في ظل الحياة المرئية

كيم إكلين

ترجمة:
داليه مصري

رواية



كيم إكلين

في ظل الحياة المرئية

رواية

ترجمتها عن الإنكليزية:

داليه مصري

في ظل الحياة المرئية



في ظل الحياة المرئية - رواية

Under the Visible Life

تأليف: كيم إكلين

by: Kim Echlin

ترجمتها عن الإنكليزية: داليه مصري
التدقيق اللغوي: عمر الخولي
الإخراج: فايز علام
تصميم الغلاف: فادي العساف
ISBN: 978 - 9933 - 540 - 13 - 5
الطبعة الأولى: 2016

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/
هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963
جوال: 00971557195187
البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net
twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

We acknowledge the support of the Canada Council for the Arts for this translation.



إلى أولئك العاجزين عن تحديد هويّتهم

«أبدأ في منتصف الجملة وأتنقّل في كلا الاتجاهين في آن واحد».

جون كولترين[1]

1 - موسيقي أمريكي، عازف ساكسفون وملحن لموسيقى الجاز.

I

ما من ذكرى مُلكٌ للمرء وحده

مهسا

أنا على ما هي عليه.

هربتْ والدتي مع والدي من لاشكار جاه عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها فقط، وأنجبتني في كراتشي، لؤلؤة بحر العرب. لطالما استمتعتْ بإضحاكنا على نكاتها التي تقولها بخليط من الباشتو والأردية والأميركية، وكذلك على أمثالها وتعابيرها التي تصوغها بالإنكليزية. اسمها بريشنا نجيب الله. وهي ذات عينين رماديتين لامعتين تلهث وراء الاهتمام بكل شيء، وخاصة بي وبوالدي. شعرها طويل مُسدل، وتحمل ذقنها آثار ندبة بشكل هلال سبَّبها سقوطها وهي طفلة. وهي تبدو مثل ابتسامة صغيرة ثانية. اعتادت والدتي أن تتحرَّك وتعمل بطاقة ورشاقة كبيرتين.

أمَّا والدي، فهو مهندس مياه أميركي. قدِمَ إلى أفغانستان للعمل على مشاريع السدود، وهو يحبّ مشاهدة الأفلام العائلية وعزف البيانو. اسمه جون ويفر. وكان قد اشترى البيانو الخاص بنا من هايدن. اعتاد أن يقول بشيء من اللامبالاة: «كل ما أعزفه هو موسيقى الحفلات فقط، ومع ذلك، تستمتع والدتكِ بها بشكل لا يصدّق». كانت غرفة معيشتنا تضجُّ بعزفه لأغانٍ مثل "تلة التوت" و"بي بوب آ لولا". أخبراني فيما بعد بأنني في سنٍّ الثالثة كنتُ أستمتعُ بتقليده، وأحاول عزف الألحان التي يعزفها. وقد علَّمني أبي كيفية العثور على مفاتيح البيانو الصحيحة، ثم أصبح كل شيء

آخر سهلاً. كنتُ أؤلِّف أغنياتي الخاصة، وقد أحببتُ ذلك وأمضيتُ وقتاً طويلاً في التمرُّن. فعلياً، لا أستطيع أن أتذكَّر أي وقت لم أكن فيه قادرة على عزف البيانو.

منذ البداية، ترنَّح والداي على شفير هاويتهما الخاصَّة. وللأسف، لم يبقيا إلى جانبي لفترة طويلة. فقد قُتلا بدم بارد عندما كنتُ في الثالثة عشرة من العمر.

كان فندق "بيتش لاكشري" مكانهما المفضَّل للرقص، ولم تفارق عينا والدي وجه والدتي ولو للحظة واحدة. كان هو رجلاً وسيماً على الطريقة الأمريكية، ذا وجه حليق ناعم وشعر قصير مفروق بأناقة. كان ظهره منحنياً قليلاً نتيجة لطول قامته وليس ضعفه، ويبدو متحمِّساً دوماً عند رؤية أو تجربة أي شيء جديد. كما كان يحبُّ ارتداء ربطات العنق الضيِّقة، وهو أمر غير اعتيادي نظراً لحرارة كراتشي. أحياناً، كنت أتظاهر بأنني هو، فأجذب واحدة من ربطات عنقه وألفُّها حول عنقي.

رنة صوته لطيفة، كما لو ليترك لي المزيد من الوقت للتفكير. فقد اعتاد التحدُّث ببطء، بعيداً عن التصنُّع، وهو يحاول لفظ الحروف الساكنة بوضوح، مؤمناً بأن ذلك مفيدٌ للأشخاص الذين لا يتحدَّثون اللغة الإنكليزية بطلاقة. وقال في إحدى المرَّات: «عندما أحاول شخصياً فهم لغة أخرى غير لغتي، فسأكون سعيداً لو تحدَّث أهلها ببطء معي».

ضحكتْ والدتي عندها وقالت:

- «جون، اللغة الوحيدة التي تُتقنها في حياتك هي الإنكليزية الأميركية تحديداً. ولن يحدث أي فرق، مهما تحدَّث الآخرون ببطء».

* «هذا هراء حبيبتي، فأنا أتحدَّث الإنكليزية ولكنني أعرف كيف أقول "شكراً لك" بالأردية والباشتو والجوانية!».

- «ليس هناك لغة اسمها الجوانية».

ولينهي الموضوع شرع يغنِّي لها أغنية من أغنيات فرقة الفالكونس بعنوان "أنتِ جميلة جدًّاً" وأخذها بين ذراعيه ليراقصها. ثمَّ توقف عن الغناء ودسَّ وجهه في شعرها وقبَّل رقبتها، ثمَّ توقَّف للحظة عن الرقص وقال: «هذه هي اللغة الجوانية».

لم تكن لديهما أية مشكلة في أن أرى مدى حبِّهما لبعضهما البعض، واعتادا أن يقصَّا عليَّ مراراً وتكراراً قصَّة لقائهما أوَّل مرَّة في غرب أفغانستان على نهر هلمند القادم من هندو كوش. التمعتْ عينا والدتي الناعمتان مثل النجوم الجبلية في فصل الشتاء عندما قالت لي: «تحدَّث إليَّ بلغة الباشتو وطلب مني أن أرقص معه. وقال لي إنني إن كنتُ متزوجة فسيحوِّل سرير زفاف زوجي إلى قبره. من المؤكَّد أن والدكِ يحبُّ المبالغة».

نظرتْ إليه لتعرف إذا ما كان يستمتع بحديثنا. وعندها قال موجِّهاً حديثه إلى مروحة السقف كما لو أنه لا يوجد أحد آخر في الغرفة: «إنها تقصد أنني أحب التفوُّه بالهراء».

لم يكن لينزعج من أي شيء تقوله والدتي؛ فقد كان يحبُّنا نحن الاثنتين فقط. وقال: «ببساطة لا يمكنني أن أتوقَّف عن حبِّ والدتكِ أبداً».

كنتُ أدعو والدتي باسم مور، وهي كلمة تعود أصولها إلى الباشتو، وأدعو والدي باسم أبو، وهي كلمة أردية، وعندما أريد مضايقتهما، كنت أناديهما "ما" و"با" وهما كلمتان تعلَّمتهما في كتاب أمريكي. اعتاد أبو أن يضحك عندما يسمعني أقول ذلك ويقول إنني أبدو كقروية عندما أنطق بهاتين الكلمتين، أما مور فلم تكن تعرف ما كنتُ أقول.

اسمي مهسا وهو يعني "مثل القمر"، واسم عائلتي هو ويفر-نجيب الله، كان أبو يظن بأنه اسم طويل جدّاً، ولكن مور كانت تؤمن بأنني سوف

أحتاج إلى كلا الاسمين في يوم ما. كانت الفتيات في مدرستي تحملن شتَّى أنواع الأسماء الإسلامية والمسيحية والهندوسية، إلا أن اسمي كان الأطول بينها جميعاً. وعموماً، كان أبو يناديني باسم بوركيوباين، والذي يعني الشيهم[1]، وتعود قصَّة هذا الاسم إلى أغنية غنَّتها لي والدتي عندما ولدتُ.

كان أبو يقول لي: «للكِ يداي الكبيرتان وعينا أمِّكِ الجميلتان، وسوف تكونين يوماً ما جميلة مثلها، وتخطفين قلب أحد الرجال، وآمل أن يكون رجلاً صالحاً».

فكَّرتُ بيني وبين نفسي، في أنني أريده أن يكون مثلك أنت يا أبي.

وتابع قائلاً: «في المكان الذي وُلدتْ فيه أمُّكِ، يؤمن الناس بأن النساء يولدن محميات من الأسود ومن أمثالي من الرجال. ولكنني وقعت أسير شيء غريب في عينيها، وتملَّكتني الشجاعة وشرعت أرسل إليها برسائل الحبِّ وسألتها: هل أنت مرتبطة بشخص ما؟ هل أنت متزوِّجة؟».

وكما هي الحياة، فإن الطيور ترى البذور وليس الأفخاخ، وبذلك سرعان ما وقع والداي في الحبِّ دون انتظار.

خلال عمله في لاشكار جاه، كتب والدي تقريراً يفيد بأن المياه الجوفية في منطقة كاريزس مالحة جدّاً ولا تلائم كروم العنب والبساتين، وأن التربة كانت ملائمة لشجيرات البازلاء والخشخاش فقط. ولكن لم يكن هناك من يرغب في سماع مثل هذا الكلام. وفي نهاية المطاف، اشتعل رجال البشتون غضباً، فهو متَّهم سابق بالشيوعية في أمريكا، وينتقد الآن المشاريع الأمريكية ويتحدَّث إلى فتاة من البشتون. وبهذا فإن جون ويفر، مهندس المياه الصادق، قد وجَّه الآن الإساءة إلى جميع الأطراف.

---

1 - أحد أنواع القوارض، يمتاز بغطاء من الأشواك الحادة.

قال لي في إحدى المرَّات: «بوركيوباين، قد تجلب لكِ الحقيقة المشاكل في بعض الأحيان».

وفي يوم من الأيَّام، خبَّأ والدي مور في الجزء الخلفي من شاحنة إمدادات أميركية إلى أن وصلا إلى نقطة حدودية، حيث دفع المال إلى دليل لمساعدتهم على العبور إلى باكستان سيراً على الأقدام. كانت مور حاملاً بي آنذاك. تسلَّلا إلى كراتشي، عروس المدن. والتي كانت في تلك الأيام مدينة تكتسي بالخضرة، يغسل الرجال شوارعها ليلاً ويركب الناس الترام من سوق الإمبراطورة إلى كياماري. في ذلك الوقت، كانت مور تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وكان أبو يكبرها بخمس سنوات، وقد وجدا المتعة في التحدُّث مع الموسيقيين في الأماكن التي كان يعزف فيها أبو أحياناً من أجل المتعة. اعتاد والدي تسجيلَ أفلام الفيديو المنزلية لمور وهي تجلس معهم، وتحملني بين ذراعيها وأنا في زيٍّ الأطفال الأفغانيين. كانت مبتسمة وتبدو أكثر شباباً وجمالاً من الفتيات الأوروبيات. وكان أبي يمزح قائلاً: «كنتُ دائماً أخشى أن تتركني والدتكِ وتلوذ بالفرار مع موسيقي حقيقي».

عند وصولهما إلى كراتشي، توجَّها إلى الشخص الوحيد الذي يعرفانه، وهو عم مور، باراك ديلاوار، ذي العينين الرماديتين. وهو أوَّل رجل في عائلتنا يتعلَّم القراءة ويغادر أفغانستان. حيث التقى في كراتشي بشخص ساعده وأعلمه أن في إمكانه الحصول على وظيفة في فندق "بيتش لاكشري" حيث يوظِّفون طهاة من البنغال والسند والبنجاب، وأولئك الذين يتحدَّثون الأردية المحلية، ومن هم من شعب البلوش.

أُعجب العم بالمباني الجميلة الواسعة والمهاجع الطويلة المخصَّصة لعمال الفندق على كلِّ جانب، وهي الأماكن نفسها التي عاشت فيها

القوّات العسكرية في أثناء الحرب. لم يتخيَّل أبداً أنه سيعيش في مثل هذا البذخ. ونظراً لقدرته على القراءة والكتابة، وقوّته البدنية التي وظَّفها فيما مضى في المصارعة، فقد وُظِّفَ وترقَّى بسرعة ليصبح مديراً ليلياً في مكتب الاستقبال في الفندق.

وفقاً لتقاليدنا، كان يتعيَّن على العمِّ أن يقدِّم لوالديَّ ما يُعرف باسم "ناناواتي" أو الملجأ، إلى أن تتحسَّن أحوالهما. وبالفعل فقد بقي أبو ومور معه حتى ولادتي، حيث انتقلنا إلى منزلنا الخاص في جزء من كراتشي يُسمَّى سدار تاون بالقرب من مدرسة "دير سانت جوزيف"، وهي المدرسة التي درستُ فيها. تعلَّمتُ القراءة من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار باللغتين العربية والإنكليزية، كما ويمكنني أن أتهجأ النستعليق[1]. تمكَّنتُ من تعلُّم اللغات بسهولة، تماماً مثلما فعلت مور، وكان أبو يقول لي: «لديك عينان مذهلتان لا تكفَّان عن الحركة، مثل نول حائك السجَّاد». كان أبو يدرِّس في ذلك الوقت في الجامعة. وبفضل إتقانها لعدَّة لغات، فقد عملت مور في شركة الخطوط الجوية الدولية الباكستانية حيث ارتدت زياً من تصميم بيير كاردان.

كان أبو فخور جدّاً بها، وقال في إحدى المرَّات: «إنها شركة فذَّة ومن الطراز الأوَّل. فالخطوط الجوية الدولية الباكستانية هي أول شركة طيران تستخدم طائرات "سوبر كونستيليشن" وتعرض أفلاماً على متن الطائرة». وغمزني على طريقته الأمريكية، وأضاف: «قد يكون في وسع والدتكِ أن تؤمِّن لنا بعض التذاكر. أليس ممتعاً أن نشاهد الأفلام ونحن في السماء؟».

لكنني كنت أحبُّ الذهاب إلى السينما معهما هنا على الأرض، في

---

1 - كما يُسمى بالخط الفارسي وهو أحد الخطوط العربية التي ظهرت في إيران في القرنين الثامن والتاسع هجريين على يدي مير علي التبريزي ويقوم على دمج خطي النسخ والتعليق ومن هنا جاءت تسميته.

سينما "بارادايز" و"نيشات". بعد مشاهدتنا لفيلم "أن تقتل طائراً بريئاً" قال أبو بطريقة هازئة موجِّهاً كلامه إلى مور: «أرأيتِ؟ أمريكا ليست عظيمة جدّاً في نهاية المطاف». كانت مور تحبُّ فيلم "بارسات كي رات" الذي يضم موسيقى القوالين وتدور أحداثه حول ابنة شرطي تقع في حبِّ شاعر يغنّي أغانيه الشاعرية. كما شاهدتُ بصحبة أبو فيلم "كازابلانكا" عدة مرَّات، لدرجة أننا حفظنا الحوار. أحياناً، كان أبو يعزف على البيانو ويتظاهر بأنه يلعب شخصية بطل الفيلم، سام.

بدأتُ أكوِّن ذوقي الخاص أيضاً. فكنت أحبُّ رقص "التويست" مع أصدقائي، وأعجبتُ بمغنيين من أمثال تشابي تشيكر، وأحببتُ بشكل خاص سام كوك وهو يغني "الرقص طوال الليل". أحياناً عندما كنت أتمرَّن في غرفتي، كان أبو يدخل مبتسماً، ويقول: «أنتِ تتحوَّلين إلى فتاة أمريكية».

كنت أتحدَّث مع مور بلغة الباشتو. وأتذكَّر كيف كنتُ أجلس على كرسي كبير وأنظر إلى شجرة الجنار، بينما أستمع إلى مور وهي تروي لي قصص حبِّ مجنون ليلى، وعنترة وعبلة. وعندما كنت أخاف من أي شيء كانت تقول لي: «بغضِّ النظر عمَّا يقوله الآخرون، فعليكِ أن تؤمني بأنك، على الرغم من كل شيء، متساوية مع الجميع وتحملين القدر نفسه من الأهمِّية». كانت تذكِّرني مراراً وتكراراً قائلة: «عليكِ ألا تنسي أبداً أن جدَّتكِ لم تكن تتحدَّث إلا لغة الباشتو. هل يمكنكِ أن تتخيَّلي ألا يكون المرء قادراً على القراءة والكتابة؟»، ولكنني لم أكن أُعر بالاً إلى كلامها، وكانت تواصل ترديد الشيء نفسه كل يوم.

ثلاثة عشر عاماً مروا على وصول مور وأبو إلى كراتشي، وبينما كنتُ مستلقية على سريري، سمعتُ مور وهي تبكي وتتوسَّل إلى أبو قائلة: «لقد

عشنا هنا بما فيه الكفاية. لقد تُوفِّي والدي الآن، وليس هناك من يردع إخوتي. دعنا نذهب إلى أمريكا الآن». سألتُ نفسي: «يردعهم عن القيام بماذا؟».

ردَّ أبو عليها قائلاً:

- «ولكننا لم نضايقهم بشيء».

* «جون، لا يمكنك إخفاء الشمس وراء إصبعك».

- «ولكننا بعيدون».

تساءلتُ: «بعيدون عن ماذا؟». وسمعته يقترب منها. وتخيَّلتُ ذراعيه وهي تضمُّها.

ثمَّ قالت: «أنت لا تعرف إخوتي».

من المؤكَّد أنهما قد أغلقا الباب، لأنه لم يعد في استطاعتي سماع المزيد، وغفوت على الفور.

أخبرتني مور في صباح اليوم التالي بأننا سنذهب في رحلة إلى أمريكا. وقالت لي: «ألن يكون من الجيِّد أن نتعرَّف إلى المكان الذي أتى منه والدكِ؟ ربَّما سنكتشف السبب وراء كلماته الغريبة».

لم أكن أريد أن أترك مدرستي وأصدقائي ومنزلي الوحيد، ولكنني استمتعتُ أيضاً بتخيُّل ركوب الطائرة، ورؤية المراهقين الأميركيين وهم يرقصون "التويست" لأوَّل مرَّة. وربَّما الحصول على بعض أحمر الشفاه.

بعد مرور أسبوعين على هذا النقاش، ظهر شقيقا مور في كراتشي. توجَّه أحدهما إلى الجامعة، وأطلق النار على أبو، تركه على الدرج لينزف حتى الموت. وذهب الآخر إلى مكاتب الخطوط الجوية الدولية الباكستانية. حيث أطلق طلقتين، استقرَّت واحدة في صدر مور، وأخرى في رأسها. لم

يُلقَ القبض على خاليَّ، بل استُجوبا فقط، وأُفرج عنهما ليختفيا مجدَّداً في أفغانستان. وبذلك ظل هذا الجانب من حياتي طيَّ الكتمان.

لدينا مثل يقول: «أنا على إخوتي. وأنا وإخوتي على أبناء عمومتي. وأنا وإخوتي وأبناء عمومتي على الغريب». وبهذا يمكن للأسرة أن تقتل بعضها البعض لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

لماذا لم يقتلوني؟ كانت حادثة قتل والديَّ بداية تشرُّدي واقتلاعي من جذوري. لم يكن لديَّ أي منزل أعود إليه. ولم أستطع فهم كيف يمكن لعائلتي نفسها أن تقتل أبو ومور، أحبَّ الناس إلى قلبي.

قبل مقتله بيوم، اصطحبني أبو إلى شارع كليفتون لزيارة متجر صغير حيث يمكن لأي شخص تسجيل أسطوانة لقاء عشر روبيات. عزفتُ وقتها لحناً من تأليفي، ثمَّ عزفتُ أغنية "أوراق الخريف". سألتْني المرأة إن كنتُ أريد طباعة عنوان للمقطوعة التي عزفتها وسجَّلتها. لم أكن قد فكَّرت في اسم لها بعد، ولذلك قلتُ: «اسمها "أغنية أبو"»، تورَّد وجهه ولفَّ ذراعه الطويلة حول كتفيَّ وقال لي: «شكراً لكِ بوركيوباين. هذه أجمل هدية حصلتُ عليها في حياتي». وبهذه الطريقة أدركتُ الأهمِّية التي يمكن أن تحملها موسيقاي. لا أعرف ما هو مصير ذلك التسجيل. فهو مفقود بالنسبة إليَّ، تماماً مثل كراتشي التي ترعرعتُ فيها واختفت الآن.

كاثرين

أبعدوني عن أمِّي. كنتُ أبلغ من العمر ثلاثة أشهر وكانتْ هي في إصلاحية بلمونت. كانوا قد احتجزوها لمجرَّد أنها تعيش مع والدي الصيني، هنري لاو، في كراج في شارع بارتون في هاملتون، أونتاريو في كندا. كان ذلك في العام 1940. قال الجميع إنه من غير الممكن تقويم سلوكها. وفي تلك الأيَّام كان من الممكن أن يُلقى القبض على المرأة فقط لأنها لم تستخدم الباب المخصَّص للسيِّدات والمرافقين، ناهيك عن النوم مع عامل صيني مهاجر.

أخبرتني أمِّي: «كان هنري قد غادر للذهاب إلى عمله في الصباح عندما جاؤوا للقبض عليَّ. سمعتُ صوت طرق على الباب ورجالاً يصرخون، ويقولون: إننا نعلم أنكِ هنا، وعندما فتحتُ الباب، رأيتُ اثنين من رجال الشرطة يقفون وراء والدي. كان في حالة سكر وفكُّه ينقبض كعادته قبل الهجوم عليَّ. كنت أتساءل لماذا تكبَّد عناء المجيء من تورونتو. فقد كان قد هجرني ووالدتي عندما كنتُ في الثالثة عشرة من عمري وهو يعيش منذ ذلك الوقت مع امرأة أخرى. كان يبدو وكأنه يشعر بالإهانة وهو يقول: تتبادلين القبلات الصفراء مع ذلك الصيني. من تظنِّين نفسكِ؟. أعادتني سيَّارة الشرطة إلى تورونتو. حيث أجلسوني في المقعد الخلفي، وكانت شبكة معدنية تفصلني عن رجال الشرطة. شعرتُ وكأنني في السجن،

وكنتُ أعرف بأنني في ورطة حقيقية. جرُّوني إلى زنزانة تحت الأرض في مبنى المحكمة. وحضرتْ أخصائية اجتماعية لمقابلتي، وسألتني عن سبب هروبي مع شاب صيني، وعن مدرستي وعمري، وعمَّا إذا كنتُ حاملاً أم لا.

كنتُ في الثامنة عشرة من العمر ولم أكن قد عرفت أي رجل آخر قبل هنري، ولكنني كنتُ خائفة من أن أضعه في ورطة نظراً لكوني قاصراً، ولذلك تظاهرتُ أمامها بأنني لا أعرف من هو والد طفلي».

أشعلتْ والدتي سيجارة، وأكملتْ سرد قصتها قائلةً: "طلبتْ الأخصائية الاجتماعية مني أن أذكر أسماء الرجال الذين من المحتمل أن يكون أحدهم والد الطفل، وكان لزاماً عليَّ أن أقول لها إنني لم أكن أعرف أسماءهم. عبَّرت الأخصائية الاجتماعية عن اشمئزازها، وسألتني: «كم عددهم؟» بدا الرقم ثلاثة أكثر إقناعاً من الرقم اثنين، فقلتُ لها: «ثلاثة فقط». كنتُ مرعوبة في الزنزانة، وكان لديَّ أمل بأن والدتي ستأتي وتخرجني نكاية بوالدي، ولكنها لم تأتِ. فقد كانتْ دائماً مشغولة بإدارة منزلنا الذي كانت تؤجر بعض غرفه، كما أنها تخشى والدي، وأظن بأنها لم تكن راضية كذلك عن حقيقة حياتي مع هنري. فعندما كنتُ طفلة وكنا نشاهد الرجال الصينيين وهم يحملون الغسيل ويمرون أمام منزلنا في شارع البرلمان، كانت تمازحني بأنهم سوف يسرقونني يوماً ما ويضعونني في إحدى حقائبهم. كان من غير القانوني توظيف امرأة بيضاء للقيام بمثل هذه المهام، ولم يُسمح لأولئك الرجال بإحضار زوجاتهم إلى هنا. كانت حياتهم بائسة وكنت أشعر بالحزن والأسى حيالهم. وعندما غادرتُ مع هنري إلى هاملتون، قالتْ لي أمي: «لطالما كنتِ عنيدة ووقحة».

«في صباح اليوم التالي، أخذوني إلى الطابق العلوي، حيث تقع قاعة

المحكمة، وهي المكان الأكثر رقياً الذي رأيته في حياتي. كانت توجد وراء رأس القاضي صورة خشبية منحوتة لامرأتين بأيدٍ متشابكة. نظر القاضي إليَّ بازدراء من كرسيه الخشبي الكبير وتعرّفتُ على الشرطي الشاب الذي اعتقلني وبدا محرجاً لرؤيتي مرة أخرى. قلتُ له: «مرحباً»، ولكنه تظاهر بعدم الانتباه. أخبر القاضي بأنني كنتُ أرتدي ملابس النوم عندما ألقى القبض عليَّ.

الجميع يرتدون ملابس النوم. لماذا كان عليه أن يقول ذلك؟!

سألني القاضي فيما إذا كنتُ حاملاً، وكم مضى من الوقت على ذلك. أخبرته بأننا كنا ندَّخر المال للحصول على رخصة الزواج، وهو ما كان صحيحاً فعلاً. ثم قال القاضي: «جيني غودناو، إن والدكِ يتصرّف وفق ما يضمن مصلحتكِ».

نفضتْ أمّي قدمها بشكل عصبي وهي تسرد هذا الجزء من القصة وتعبث بولاعتها. قالتْ: «هل من المفترض بذلك أن يضمن مصلحتي؟ أن يأمر القاضي، وبموافقة أبي، بأن أُرمى في إصلاحية فقط لأنني كنتُ حاملاً؟ لأن عشيقي صيني؟ هل من المفترض أن يكون هذا عادلاً؟ خرجتُ من المحكمة، وقالت لي القيِّمة المسؤولة عني إنه قد حُكم عليَّ بثمانية عشر شهراً، وإنه عليَّ أن أتجهَّز من أجل "بلاك ماريّا". لم أكن أعرف ما هو "بلاك ماريّا". بدا لي اسماً لعنكبوت، أو شيئاً كاثوليكياً. وسألتها: «ما هو "بلاك ماريا"؟». أجابت: «إنها عربة نقل المساجين من المحكمة». ثم أضافت: «أنا شخصياً لا أفهم لمَ قد تذهب فتياتنا مع شبان أجانب».

كانت فتاة تدعى فيوليت، أفضل صديقة لأمي في إصلاحية بلمونت. تبلغ من العمر ستة عشر عاماً، ولديها طفل وحامل بطفل آخر. وقد اعتادت إجبار الفتيات الأخريات على إعطائها وإعطاء أمِّي الحليب المخصَّص

لهن على العشاء، فهي تعتقد بأن الفتيات الحوامل في حاجة إليه أكثر. بعد ولادة طفلها، نُقلتْ فيوليت إلى مستشفى المجانين في كوبورغ. حيث قال القاضي إن الفجور من أعراض الجنون، على الرغم من تأكيدات طبيبها على أنها لم تكن مجنونة على الإطلاق. أبعدوا كلا طفليها عنها إلى الأبد، وأجبروها على الخضوع للعلاج بالصدمات الكهربائية. أخبرتني أمّي بأنه كان من الممكن لهم أن يقتلوها.

وُلدتُ أنا في مستشفى تورونتو العام. حيث قرروا إبعادي عن أمّي لفترة، لكنها كانت تصرخ وتتوعد وتقول إنها لن تتخلى عني أبداً. في نهاية المطاف، أحضرتني ممرضة لطيفة إلى والدتي وعلّمتها كيفية إرضاعي. أخبرتني والدتي بأنها كانت سعيدة بالنظر إلى وجهي ورؤية عيني هنري اللوزيتين ذاتَي اللون الأسود والبني.

وقالت: «دائماً ما تذكرني عيناكِ بالأسرار. وتحديداً الجيدة منها».

بعد مرور ثلاثة أشهر على وجودي في إصلاحية بلمونت، اتخذوا القرار النهائي بإبعادي عن أمي، ووضعوني في دار للأطفال لمدة تسعة أشهر، وعندما بلغت السنة من العمر، أمّنوا لي أماً بديلة لأنني لم أكن أحاول المشي أو الكلام. فما هي الفائدة من الكلام إن لم يكن هناك أحد ليصغي؟ كانت العاملة المتخصصة بمساعدة الأطفال ما زالت تحاول حمل والدتي على التخلي عني. وقالت لها: «معظم الفتيات اللواتي لم يتزوجن، يتخلين عن أطفالهن. وستكون ابنتك بحال أفضل بعيداً عنكِ».

ولكن أمّي ردّت عليها: «لن أتخلى عنها أبداً. فأنا عازمة على الزواج من والدها والعودة إلى هاملتون».

- «ولكن لا يبدو لي بأنه مهتم جداً بالموضوع».

* «كيف يمكن له أن يكون كذلك؟ فهو لا يعرف بأمر ابنتنا بعد».

وبهذا، كان أول شيء فعلتْه عند خروجها من إصلاحية بلمونت هو ركوب الحافلة والتوجه إلى هاملتون للبحث عن هنري لاو الذي لم يكن يعرف شيئاً عن مكان وجودها منذ ثمانية عشر شهراً. تزوجا في 26 كانون الثاني 1942، في قاعة البلدية في هاملتون. لا توجد سوى صورة واحدة بالأبيض والأسود تشهد على يوم زفافهما، احتفظت بها والدتي في دفتر للأطفال كانت تستخدمه لتتدرب على الحروف الصينية. في تلك الصورة كان هنري لاو يرتدي قبعة فيدورا مائلة أكثر فوق إحدى عينيه. اعتدتُ أن أحدِّق في صورتهما محاولة الحصول على فكرة عن الشخص الذي كان عليه والدي. وكانت والدتي ترى دائماً أنه وسيم، سألتها في إحدى المرات: «لمَ لم ينظر إلى الكاميرا مباشرة؟». وردت بالقول إن المصور كان في عجلة من أمره في ذلك اليوم، ولم يُحسن التقاط الصور.

في تلك الصورة، كانت والدتي ترتدي ثوباً ضيقاً عند الخصر، وهو الفستان نفسه الذي ارتدته في الليلة التي التقتْ والدي لأول مرة. وحتى بعد ولادتي، ظلَّ جسدها نحيلاً. يبدو الثوب أبيضَ في الصورة، ولكنها قالت لي إنه كان ذا لون أزرق فاتح. واستفاضت قائلة: «كما جرت العادة، فقد كان معي في ذلك اليوم شيء قديم، وشيء جديد، وشيء مستعار، وشيء أزرق، وستة بنسات من الفضة في حذائي».

أخبرتني بأن والدي كان يحب القافية. وأرتني كيفية كتابة بعض الكلمات بالصينية. كانت تعرف الأرقام الصينية وصولاً إلى رقم عشرين. واعتادت أن تقول: «إنه أمر لا يصدق، تخيلي أنك تحتاجين إلى ثلاثة آلاف حرف لقراءة جريدة!». التُقطتْ صورة الزفاف في مكان ما بالقرب من شارع بارتون. حيث توجد في خلفية الصورة مصانع الصلب، ربما كانت مسابك دومينيون القديمة. كما كان ثلج ناعم يهب حول أرجلهما

على الرصيف مثل أشباح ثعابين صغيرة وجميلة. لم يكن وجه والدتي منشرحاً مثلما كنتُ أتخيل وجه العروس السعيدة في يوم زفافها. ولم تكن تواجه الكاميرا بل كانت تنظر باتجاهه وشفاهها مزمومة. سألتها: «لمَ لم تكن أيديكما متشابكة؟». فغيّرت الموضوع قائلة: «ألم يكن يبدو حسن المظهر؟ لقد غلَّف جدران منزلنا بورق الطرود البني ليجعله أكثر راحة. كان الأمر يشبه العيش ضمن صندوق هدايا. كان أول شخص أراه يطبخ الثوم. واعتاد أن يُلصق صفحات الجرائد على الجدران حول الموقد لكي لا تتسخ الجدران بأي بقع، كان قميصه مدسوساً دوماً داخل بنطاله، حتى في المنزل. في الليلة السابقة لاعتقالي قمتُ بإشعال الشموع على العشاء، وقال إن ذلك يذكِّره بالمعابد والأرواح. كنتُ سأخبره بأمر حملي في تلك الليلة ولكني أحجمت عن القيام بذلك، فقد فكرتُ في شراء شيء للطفل وتركه في المنزل لأرى إن كان سيحزر أم لا. أردتُ المزاح قليلاً».

أعطتني الصورة وأضافت: «لم يكن مقبولاً في تلك الأيام أن تتشابك أيدينا أمام العامة. هناك الكثير من الأشياء التي لم تكن مقبولة في ذلك الوقت. اعتدتُ على المشي بحيث يلامس كتفي كتفه عبر معاطفنا».

حصلتْ والدتي على وظيفة في مقهى في فندق "رويال كونوت" عند زاوية كينغ وجون في هاملتون. واستأجرت شقة في قبو منزل خشبي صغير يقع في حي محترم في ماونتن برو، مالكة المنزل سيدة عجوز تدعى روز ولديها ابنة اسمها ليلي قتل زوجها الشاب في الحرب. كنا نسمع في كل ليلة صوت طقطقة أحذيتهم في الطابق فوقنا واعتادت والدتي السخرية منهم، ولكننا كنا دائماً نتناول غداء يوم الأحد معاً في غرفة الطعام الخاصة بهم. كانت ليلي تدعونا بالسيدات الأربع وعلمتني لعب الورق. في البداية خشيت والدتي ألا تقبل السيدة روز بتأجير المنزل إلى هنري، لذلك قالت

إنه ليس موجوداً معنا حالياً. وبكل الأحوال، فخلال الحرب لم يكن الناس يسألون الكثير من الأسئلة.

قالت لي أمي: «كنتُ مستنفرة عندما خرجتُ من الإصلاحية لأول مرة. لم يكن معي نقود وكنت في حاجة إلى العثور على عمل ومكان للعيش فيه ووسيلة لرعاية طفلتي. حاولوا كل ما في وسعهم لإقناعي بالتخلي عنكِ ولكنني قاتلت بضراوة في سبيل الحفاظ عليكِ».

كانت امرأة طويلة القامة، اعتادت طلي أظافر يديها وقدميها باللون الأحمر. وكانت نحيفة جداً لدرجة أن جدتي كانت تقول لها إنها تبدو مثل لوح الغسيل. كما كانت تدخِّن أكثر مما تأكل، وتتلطخ أعقاب سجائرها دائماً بأحمر شفاهها. أنا أيضاً نحيفة جداً. وعندما أرتدي كنزة ضيقة، يمكنكم ملاحظة عظام صدري وكتفي. ولهذا فقد تخليت عن محاولة أن أبدو مثيرة، فالمرأة في حاجة إلى جسد ممتلئ للقيام بذلك. كما أن بشرتي ليست بيضاء مثل بشرتها. وقد اعتادت والدتي في يوم عطلتها أن تضع كرات القطن بين أصابع قدميها وأن تلفَّ شعرها في لفافات كبيرة. كانت رائحتها تنضح برائحة الدخان المبتذل وكريم "نيفيا". وتلف حول شعرها عندما كانت تصففه وشاحاً مطبوعاً عليه صور كلاب سكوتي صغيرة، وهي تحاول موازنة سيجارتها في منفضة سجائر على شكل علامة موسيقية، وتلوح أصابعها في الهواء ليجف طلاء الأظافر أسرع بينما تضعه على أصابع قدميها. ورثت طولي منها. وكان شعرها بلون الكستناء، أخبرتني بأنه قد ضعف عندما أصبحت حاملاً ولكنني أعتقد بأنه ربما ضعف عندما كانت في الإصلاحية، لأنهم كانوا يبقون الفتيات جائعات. كما كان الأطباء هناك يختبرون علاجات تجريبية عليهن من أجل الأمراض التناسلية، وفي حال تذمَّرت أية فتاة من الانتظار الطويل في الطابور، وهي نصف عارية، أو

تلوت من الألم خلال الكي الداخلي، كانت رئيسات الإصلاحية يجبرنها على الجلوس في خزانة. حُبستْ أمِّي في خزانة لمدة يوم كامل، فقد نسوا أنها كانت محبوسة هناك. وأنا أعتقد أن من شأن ذلك كله أن يضعف شعرها. أما أنا فشعري أملس وأسود اللون. وعندما بلغت السادسة عشر من العمر قمتُ بتجعيده وتنفيشه، وأبقيته على هذا النحو منذ ذلك الحين. قال لي البعض إنه يجعلني أبدو نصف سوداء أو شيئاً من هذا القبيل. يداي وقدماي كبيرتان تتلاءمان مع طولي. وهما من الخصال التي ورثتها من أسرة جدتي لأمي، فهم ايرلنديون ضخام القامة، كانوا يعملون في ما مضى كمزارعي بطاطا.

قبل أن أبلغ الثانية من عمري، ترك والدي رسالة لأمي في الفندق الذي تعمل فيه، مكتوب عليها بخط أنيق:

عزيزتي جيني،

الحياة هنا صعبة للغاية، عليَّ أن أعود إلى وطني. لن أنساكِ ابداً.

زوجك، هنري.

كل أولئك الذين أدانوا واحتقروا أمِّي لم تتم محاسبتهم، بدءاً من والدها، والأخصائية الاجتماعية، وضابط الشرطة، والقاضي. ولكنها تدبرت لنفسها وظيفة محترمة في فندق جيد، وحصلت على شقتها الخاصة وحساب مصرفي. كما كنا من أولى العائلات التي تمتلك تلفازاً في الحي. وكانت دائماً ما تتحدث عن كونها مستقلة، كما لو أن ذلك كان امتيازاً غير متاح لمعظم النساء.

خلال طفولتي، كانت جارتنا نان ترعاني خلال أوقات عمل أمي. ولكي تتمكن من دفع أجرتها، اضطرت والدتي إلى العمل لورديتين في عطلة نهاية الأسبوع. واعتادت نان على القول: «لن يضرّني الاهتمام بطفل

إضافي. وبكل الأحوال ليس لدي أية وسيلة أخرى لجني النقود. لقد ساعدتنا جيني كثيراً». وأعتقد بأنها كانت تحسد والدتي سراً على عملها. أما هي فقد كانت وظيفتها تقوم على رعايتي، بالإضافة إلى أبنائها الثلاثة: ماك، إدي، وجوني جونيور، وزوجها جوني الذي كان يعمل وفق نظام الورديات في مصانعِ درفلة الصلب. كانت ألواح القصدير تغطي نافذة غرفة النوم حتى يتسنّى لجوني النوم خلال النهار، وكان علينا نحن الأطفال أن نبقى هادئين خلال ذلك الوقت. بالنسبة إلي وإلى والدتي كانت نان تمثِّل العائلة التي افتقدناها. جوني جونيور يكبرني ببضع سنوات، ولكنني كنت دائماً أوجِّه إليه الأوامر.

وسمعت نان تقول لوالدتي مرة: «أنت محظوظة لأن لديكِ ابنة».

في إحدى المرات وبينما كانت المرأتان تحتسيان القهوة في منزل نان، سمعت والدتي تقول: «لم يناسبني الزواج. وبكل الأحوال فدائماً ما تكون الأمور بعكس ما تشتهيه المرأة المتزوجة».

ردَّت عليها نان: «ليس الزواج بهذا السوء يا جيني».

كنتُ ألهو حولهما في الأثناء، ولم تطلبا مني الابتعاد، لذلك تجرَّأتُ وسألتُ: «نان، كيف تعرفتِ على جوني؟».

نظرتْ كلتاهما إليَّ وكأنهما لم يلحظا وجودي قبل الآن، وضحكت نان قائلة: «لقد نشأتُ معه».

سألتُها: «نان، هل يمكنكِ أن تقرئي لي طالعي في الورق؟».

ولكنها أجابتني: «ليس بعد، فما زلتِ صغيرة جداً. ولكنني سأقرأ طالع والدتكِ إن كانت لديها رغبة في ذلك».

كنتُ أحب مشاهدتها وهي تقوم بذلك، وأستمتع خصوصاً برؤية ورقة الكاهنة لأنني أحببتُ ثوبها الأزرق والهلال الموجود عند أقدامها.

وفيما هي ترتب الأوراق قلتُ لها: «آمل أن تظهر لك ورقة الكاهنة».

ردَّت نان بنبرتها المنخفضة، وصوتها الغامض الذي تستخدمه دوماً عند قراءتها للطالع: «لا يمكنكِ التحكُّم بالقدر يا عزيزتي».

وقالت والدتي: «تنبئي لي بكسب المال. فأنا أريد أن أفتتح متجري الخاص».

أردتُ الدخول إلى عالمهما الخاص بالنساء الراشدات. فقد كنتُ ألعب مع الأولاد لكنهم لا يتحدثون كثيراً. ولذلك فقد كنت ألهو بالقرب منهما، وأستمع إلى أحاديثهما لأنني لم أكن أعرف كل شيء عن والدتي، وخاصة على سبيل المثال بأنها أرادت المال لافتتاح متجر خاص بها. فقد كنتُ أعتقد بأنها تحب حياتنا كما هي. لماذا لم تخبرني بما أرادت؟

كان الحل الذي تعتمده والدتي للكثير من الأشياء هو إخفاء مشاعرها والإبقاء على ذاتها الحقيقية مخفية. أستطيع أن أتخيل عدد النساء اللواتي فعلن ذلك لحماية أطفالهن، ولجعل حياتهن ممكنة.

بدأت نان بفتح الأوراق وقلتُ: «أخبريني متى سيعود والدي إلينا مرة أخرى».

انتبهتُ إليهما تتبادلان النظرات بينهما، وشعرتُ بأنني أفسدتُ اللحظة عليهما، ولكن لم أدرك لماذا. قالت والدتي بصوتها الحازم: «والدكِ يعمل في الصين يا كاتي. لا أريدك أن تقلقي، فسوف يعود».

استعجلت نان وفتحت عدداً من الأوراق وتنبأت بالكثير من المال في مستقبل والدتي، وقالت لي: «كاتي، هل لكِ أن تقدِّمي لي معروفاً وتذهبي لرؤية ما يفعله جوني جونيور؟».

في الحقيقة فهناك لهجة في صوت المرأة تمنع الأطفال عن الإلحاح المتزايد. كنتُ أشعر بالأمان لوجودي بين أمِّي ونان، وتقبلتُ صمتهما

والطريقة التي تمضيان فيها الوقت. أحببتُ العيش في ماونتن برو وكنتُ مجتهدة في المدرسة، واستمتعتُ بالذهاب إلى المكتبة الكبيرة ذات الدرجات الحجرية الواسعة، ولقاء والدتي في فندق "رويال كونوت" وركوب الحافلة بصحبتها في طريق عودتنا إلى المنزل. كانت تنشد، وهي تضعني في السرير وتجهزني للنوم، بعض الكلمات المقفّاة عن حياتنا في منزلنا المريح وأصدقائنا الطيبين وكنت أشعر معها بالأمان.

مهسا

نادتني الأخت ديفان من الصف. ورمت العمة البرقع عليَّ قبل نقلي إلى سيارة. الشمس في الخارج حارقة ولامعة، وكانت هناك فتاتان صغيرتان بشرائط صفراء وزرقاء في شعورهما، وتسيران يداً بيد. حطمتني كلمات العمة وهي تقول: «مات والداكِ».

أخفوني لمدة سبعة أيام في شقة شخص لا أعرفه، حيث أقمتُ في القبو، في المكان المخصّص للخادمة، وذلك إلى حين عرفوا برحيل أخوالي الأفغانيين، وبأنني قد أصبحتُ بأمان. كانت العمة تأتي في كل مساء لزيارتي. كان الجو موحشاً ومظلماً ولم أكن قادرة على النوم. في الغرفة، كان هناك صدع متعرّج في الجص قرب حافة النافذة. وتمتْ تغطية الزجاج بستارة سميكة. وهناك سلك واحد نافر ضمن أرضية الفراش الضيق والعفن، وكان يخزني في جنبي إلى أن قمت بتنظيم طريقة نومي بحيث أتفاداه. أما الأغطية فهي خشنة، لا تشبه الأغطية الناعمة التي كانت على سريري في منزلنا. لم تكن العمة حنونة ودافئة مثل مور، بل ذات مشاعر جافة وقليلة. سألتها:

- «أين جثتهما؟».

* «في المقبرة».

- «أين؟».

* «"غورا قبريستان"».

- «أريد أن أراهما».

* «مهسا، لم نضع علامة على القبرين».

- «ولكن أليست تلك مقبرة مسيحية؟».

* «كان علينا دفنهما بسرعة».

بدون الصلاة على روحيهما. وبدون وداعهما. دون أي شيء. لا شيء. كيف يمكن دفن مور هناك؟ وأين سأعيش أنا الآن؟ من سيحبني ويرعاني بعد اليوم؟

جاء العم إلى غرفتي الصغيرة في الليلة السابعة ووقفت العمة وراءه في المدخل. قال لي: «سوف تعيشين معنا الآن».

كانوا قد أفرغوا منزلنا من محتوياته وباعوا البيانو الخاص بأبو. كانت تلك نهاية حياتي القديمة. وبداية حياة جديدة، حياة مؤلمة وقاسية. عرضت الأخوات في المدرسة إعطائي منحة دراسية، وأقنعت العمة العم بإبقائي في المدرسة لتعلُّم بعض المهارات التي قد تجعلني مفيدة لاحقاً. أخبرتني العمة بأنني محظوظة لقبوله بذلك. لكن بالنسبة إليَّ، أن أكون محظوظة يعني أن يبقى والداي على قيد الحياة وأن أعثر على نقود في الطريق وأتمنى أمنية. لا أن يُقتل والداي عندما أكون في الثالثة عشرة من العمر.

يبقى الحزن معنا ولا يفارقنا، يكون نابضاً بالحياة ومليئاً بنتف الذكريات الحقيقية والزائفة. قبل مقتل والديّ، كنتُ أجوب جميع أنحاء سدار مع أصدقائي على دراجاتنا، ونلعب كرة المضرب، ونزور "مانهاتن صودا فاونتن" للحصول على الميلك شيك المثلَّج الملون، الذي كانوا

يسمونه الآلهة الخضراء ودم الجلاد. أما في الليل فقد كنتُ أمشي بصحبة أبو في شوارع كليفتون القديمة ونستمع إلى منشدي السند الجوالين وهم يعزفون الاكتاره. ونسير أحياناً من "خارادار" أي "بوابة الملح"، وصولاً إلى "ميثادار" أي "بوابة الحلو"، حيث تختلط مياه البحر مع المياه الحلوة.

كان أبو يمازحني قائلاً: «هيا نذهب إلى بوابة الحلو اليوم يا بوركيوباين وسوف أشتري لك الحلويات».

قالـت مور: «ولكن ليس هذا ما يعنيه اسم ميثادار يا جون».

أجابها وقد لفَّ ذراعيه حولها مودّعاً: «لا يهم، لدينا نحن الأميركيين نزعة للعثور على الأشياء الجيدة. وها قد وجدتك بعد أن جبتُ نصف العالم، أليس كذلك؟ أليس هذا صحيح بوركيوباين؟».

علَّمني أبو عزف نسخة تجمع بين الروك والبلوز لأغنية "مدينة كانساس" وكان دائماً يغنيها بعد أن يغير كلماتها ليجعلنا نضحك. بالنسبة إليَّ، هكذا كان شكل الحياة التي من المفترض أن يترعرع المرء فيها، في أحضان شخصين يحبَّان بعضهما البعض: في عيد الميلاد الأخير قبل مقتل والديَّ، ذهبنا إلى حفلة شهيرة في فندق "بيتش لاكشري" حيث تدفقت الأضواء السحرية من الشرفات والباحات. كان تاليسمان يعزف مع نورمان دسوزا في "كاباريه 007"، وانضم أبو للعزف معهما في تلك الليلة. كان يعتبر أن صوت نورمان يشبه روحاً منسابة. كما عزفت فرقة هولندية تدعى "جوني ليون أند ذا جامبينغ جولز" بالقرب من البحر. في تلك الليلة، رقص الناس وتنزهوا على شاطئ البحر وارتفع المد ليغرق مستنقعات المنغروف المظلمة. كان الجميع متأنقين، وبقي الهندوس والمسلمون والمسيحيون ساهرين طوال الليل يستمعون إلى الموسيقى ويتناولون المأكولات البحرية وكعك المعكرون مع اللوز المجمَّد.

كنتُ الطفلة الوحيدة، وراقبتُ باهتمام حياة الراشدين من حولي، في محاولة لاستنتاج شكل حياتي في المستقبل، وما إذا كانت ستكون أقل عزلة مما هي عليه الآن حيث لا يوجد طفل آخر لأشارك معه الحياة كما أعيشها الآن. مع مرور الزمن، تصبح هذه اللحظات من المراقبة الحثيثة في طي النسيان، ثم تعود لاحقاً لتبدو ذات أهمية كبيرة. في تلك الليلة، تلمَّس أبو بأصابعه امتداد حافة بلوزة مور، عند عظم الترقوة تحت رقبتها تماماً، وقال لها: «هذه النقطة هي أكثر ما أحبه على وجه الأرض». ثم سحبني إليه وسألني: «ألا تظنين أن شكل الترقوة هو الأروع؟». عندها خطر على بالي سؤال وجهته إلى مور: «هل أنا مسلمة أم مسيحية؟»، فقد كنتُ أظن بأنني مسلمة نظراً إلى إن مور كانت مسلمة، ولأنني كنتُ أحصل دوماً على ثوب تقليدي جديد لمناسبة العيد، وفي المدرسة كانت الأخوات ترسلنني لدراسة الإسلاميات بحيث أتعلَّم قراءة القرآن الكريم باللغة العربية. ولكنَّ عائلتنا كانت تقضي أكثر الوقت مع مجموعات البارسيون والغوان لأن أبو كان يحب موسيقاهم وكانوا يسمونه "الإنكليزي".

أجابتني مور: «عائلتنا هي مسلمة ومسيحية في آنٍ معاً».

وأضاف أبو: «تأمرنا جميع الأديان بأن نعامل الآخرين كما نحب لهم أن يعاملونا. هذا هو ما نؤمن به أنا ومور يا بوركيوباين. تعالي لنعزف سوية، هيا إنه عيد الميلاد!».

ذهبنا سوية إلى البيانو وعزفتُ بسعادة إلى جانبه.

كاثرين

تعاركتُ في المدرسة مع فتاة دعتني ساخرة بالصينية ومزَّقت بلوزتي. وتقدَّم إلينا المدير مخترقاً صفوف الأطفال من حولنا الذين كان يرددون: عراك! عراك! وأبعدني عن تلك الفتاة. قال لي قبل أن يرسلني إلى المنزل: «كاتي، أنتِ تبلغين من العمر خمس عشرة سنة. لقد كبرتِ على مثل هذا العراك. فالقتال والعراك لا يلائمان الآنسات المحترمات».

كان معجباً بوالدتي على الرغم من أنها كانت بلا زوج. اعتاد أن يقول إن لديها روحاً مجتمعية مثالية لأنها تطوعت للعمل في مكتبة مدرستنا بعد ظهر كل يوم اثنين وهو يوم عطلتها.

جاوبتُ المدير: «لم أبلغ الخامسة عشرة بعد، ما زال أمامي شهر آخر. وعلى كلٍ فقد سخرت الفتيات مني وقلن إنه ليس لي أب».

أجابني قائلاً: «كل شخص لديه أب. وبكل الأحوال، من غير المسموح أن تتعاركن لأي سبب كان. اذهبي إلى المنزل، وسأتصل بوالدتكِ».

أبقيت على بلوزتي الممزقة لكي أظهر لأمي مدى الاعتداء الذي وقع لي. بعد مرور ساعات، سمعتها تفتح الباب، دخلت وهي تحمل كيساً من البقالة، كما هي عادتها في كل يوم أربعاء. كما كانت تحمل أيضاً أسطوانتي موسيقى لكل من فرانك سيناترا وبيلي هوليداي، بالإضافة إلى الفونوغراف

الجديد الذي كنا نتمنى شراءه منذ عدة أشهر. كان ذا لون رمادي فاتح مع غطاء على المفصلات ومشبك صغير ليُبقي الذراع في مكانها. قلتُ لها: أمي، إنه غالٍ جداً! أجابت بصوتها الرقيق: «وما فائدة النقود إن لم ننفقها؟ اذهبي واغتسلي. ثم، ما قصة هذا العراك؟».

غيّرتُ الموضوع قائلة: «هيا لنقم بتجهيز الفونوغراف».

قمنا بتوصيله وسمحت لي باختيار الاسطوانة الأولى لنسمعها. وقع اختياري على فرانك سيناترا، ولاحظتُ بأنها كانت سعيدة باختياري. كان هذه الفونوغراف محط إعجابنا منذ فترة طويلة. وفكرنا باحتمالية شراء كبل طويل بما فيه الكفاية لنمدَّه إلى أعلى الدرج ونضعه على الشرفة الأمامية. وكانت هذه الاحتمالية مثيرة للفضول. بعد ذلك دخلت والدتي إلى المطبخ، وبينما هي ترتِّب الأطعمة التي اشترتها قالت لي: «حسناً، سمعتُ بأنك دخلتِ في عراك في المدرسة لأن الفتيات قلن إنه ليس لديكِ أب».

أجبتها: «لقد نعتنني بأسماء مهينة».

قامت بفتح علبة من الفاصوليا ووضع بعض الخبز في المحمصة. ألقت الفاصولياء في المقلاة وقامت بتسخينها على الموقد. ثم قالت لي وهي تدير ظهرها باتجاهي: «أنا أعرف ما قلنه. ولكن اسمعيني يا كاتي، أنا أحببتُ والدكِ، ولم يكن يعنيني البلد الذي قدِم منه. عندما حملتُ بكِ لم أكن متزوجة بعد. وبسبب هذا قاموا بسجني في إصلاحية. ليس هناك أي خطئ في أن تنجب المرأة طفلاً، ولا تسمحي لأي شخص بأن يقول لك عكس ذلك. اعتقلوني من أجل لا شيء».

استدارتْ ونظرتْ في وجهي وقالت: «بمجرد خروجي من الإصلاحية، تزوجتُ بوالدك على الفور، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الصين. لم يكن

هناك ما يكفي من العمل هنا. وهناك الكثير من الأشخاص الذي يرفضون توظيف شخص صيني. فكيف يكون ذلك عدلاً؟».

وضعت الفاصوليا والخبز المحمَّص على طبقينا وجلست معي. تابعت حديثها قائلة: «قولي للفتيات في مدرستك بأن يلتفتن إلى شؤونهن الخاصة. فأنتِ أفضل من أي واحدة منهن. هيا لنأكل». ولكنني لم أكن أشعر بأنني أفضل من الفتيات الأخريات. ولم أُرد أن أعرف بأن والدتي كانت معتقلة، وأنها قد حملت بي دون زواج. حتى أنا كنتُ أعرف بأن ذلك يعني العار.

تساءلتُ للمرة الأولى حول الطريقة التي ينظر الناس بها إلينا. كنا نعيش في قبو، وكانت أمّي هي المرأة الوحيدة التي أعرفها التي تعمل بدوام كامل، باستثناء آنساتي في المدرسة واللواتي لا يحتسبن حيث أنهن جميعاً غير متزوجات.

سألتها: «كم أمضيتِ من الوقت في الإصلاحية؟».

أجابتني: «كاتي، هذا شيء من الماضي ولم تعد له أية أهمية الآن. كان ذلك ظلماً بكل الأحوال. لا تفكري في الأمر أبعد من ذلك».

عندما لم أمسك شوكتي لأتناول الطعام قالت لي: «مهما يكن ما تفكرين فيه، عليكِ الاقتناع بأنك تمتلكين منزلاً محترماً وهذا يتجاوز بكثير ما كان متاحاً لي عندما كنتُ في مثل عمرك».

كانت لا تزال ترتدي حذاء النادلة الأبيض النظيف، وتحت عينيها لطخات داكنة كبيرة. كان صوتها ينم عن ألم عميق، وفكَّرت في أنها لا بدّ قد قامت بشيء خاطئ، وبسببها فأنا أشعر بأنني أقل من غيري. لقد أنفقت كل هذه الأموال على الفونوغراف الذي كنت أشتهيه منذ مدة طويلة، ولكن ذلك اليوم لم يكن سعيداً على أي حال. فمن المؤلم حقاً أن أعرف

حقيقة أن والدتي كانت معتقلة. ولم أكن أنظر إلى تلك الحقيقة على أنها شيء محترم.

في اليوم التالي، قلتُ لنان إنني أكره والدتي. فردّت عليّ: «إياكِ أن تتحدثي بمثل هذا الكلام. فهي تعمل جاهدة من أجلك».

* «إنها نادلة».

- «كاتي! يكفي هذا. ماذا دهاكِ؟».

* «ثم إنها لم تنه دراستها الثانوية».

- «لم تُتح لها الفرصة للقيام بذلك. وكذلك أنا لم تكن أمامي فرصة للقيام بذلك. أما أنتِ فعليك البقاء في المدرسة وإنجاز أفضل مما أنجزنا».

بدأت أمِّي ونان تبدوان عديمتي الأهمية بالنسبة إليَّ. وكنتُ أرى بأنهن يضيعن وقتهما في شرب القهوة. ولعب الورق وتدخين السجائر. وفي الحقيقة فقد بدت لي معظم النساء تافهات ودون أية قيمة أو أهمية.

كنتُ أتضايق من لحظة استيقاظ والدتي في الصباح. حيث كنت أستيقظ باكراً لأدرس، وأستمع إلى صوت إشعال عود الثقاب وأشتم رائحة دخان سيجارتها الأولى في كل صباح. ثم أنتظر لأسمع سعالها. وصوتها وهي تنادي: «كاتي، ضعي الغلاية على الموقد». لم يخطر في بالي أن أسأل يوماً فيما إذا كانت تتملكها أية مخاوف عند بداية كل يوم جديد.

لاحقاً، أخبرتْ نان أمِّي بأنها أرادتْ أن تعمل في صيدلية خلال فصل الصيف، خاصة بعد أن حصل أولادها على عمل ولم تعد هناك حاجة إلى أن ترعاني بعد أن أصبحت أكبر عمراً. أخبرتني والدتي بأنه لا يمكنها أن تتركني وحيدة في المنزل وبأنه عليَّ أن أرافقها إلى الفندق. كانت ترسلني في كل صباح مع شطيرة غربية وقهوة قوية إلى مكتب هارولد كادليتس في الطابق الثامن، كانوا يلقبونه باسم الكولونيل، وهو المسؤول عن حجز

المواهب الفنية والموسيقيين في جميع أنحاء المدينة من أمثال: "فلامينكو لاونج"، "ذا غولدن ريل" و"ذا أرموريز". كنتُ أسلّمه الشطيرة، ويأخذها مني قائلاً: «شكراً لكِ سيدة غوناو»، وأجيبه: «لكنّ هذا ليس اسمي، إنه اسم والدتي». كان يضحك في كل مرة نقول فيها ذلك. اعتاد أن يسمح لي بالقراءة على أريكته، حتى عند تواجد الموسيقيين في مكتبه. كنت أحبُ صناديق آلاتهم المهترئة وقبعاتهم وسراويلهم السوداء ذات خطوط الساتان، وربطات عنقهم الضيقة. كانت تفوح منهم دائمة رائحة الكولونيا والعرق ويبدون دائماً في الحقيقة أصغر مما هم على خشبة المسرح. كما كان هارولد يسمح لي بالاستماع إلى أعمالهم في الليالي التي تعمل فيها أمّي حتى وقت متأخر. استمعتُ إلى تومي دورسي، وديوك إلينغتون، وجاك تيغاردن، وبوبي هاكيت. وأحببتُ بشكل خاص شاباً مضحكاً يدعى روني هوكينز. كان يرتدي بذلة سوداء أنيقة وملفتة، كما كان يقوم بالشقلبات والرقص بطريقة مميزة على خشبة المسرح. حيث يعزف مع رجل ملتح ضخم يدعى غارث ويعزف الأرغن في فرقته، كان أداؤهم رائعاً في الحقيقة. في إحدى المرّات، ربّت روني ذو الابتسامة الساحرة على الأريكة في إشارة منه لكي آتي وأجلس بجانبه، لكن هارولد نظر من فوق أكوام الملصقات والعقود، وقال له: «روني إنها طويلة القامة بالنسبة إلى عمرها. دعها وشأنها».

سألني روني: «هل يمكنكِ الغناء؟».

عندها وقف هارولد وهتف قائلاً: «كاتي، هل يمكنكِ أن تحضري لي فنجاناً من القهوة؟».

ومع خروجي سمعت روني يقول: «هيا، كولونيل، لم أكن أعني شيئاً بسؤالي».

كانت الفرقة التي تركت أقوى انطباع لديَّ مؤلفة من إخوة من عائلة واحدة، يحملون اسم "واشنطن براذرز". وكان الأم والأب يقفان في الخلفية ويستمعان إلى أبنائهما بفخر. كنت أتمنى لو كان لديَّ والدان يراقبانني مثلما يفعل هذان الاثنان. من المؤكد أن ذلك سيكون أفضل من البقاء وحيدة مع أمِّي ومن كوني نصف صينية.

توقفتُ عن ذكر والدي الصيني، وقمتُ باختراع قصة أفضل. قلتُ إن جدي الأكبر كان زعيماً هندياً من الموهوك، السكان الأصليون لكندا. وبدت هذه القصة جيدة بالنسبة إليَّ. وعندما أتقمص الدور أكثر، فإنني أضيف بعيون ذات نظرة مأساوية أن والدي قد اختفى في الحرب.

سئمت من والدتي وهي تردد بأن والدي سيعود يوماً، وأن عليه تسوية الأمور في الصين. كنت مؤمنة بأن هنري لاو لن يعود أبداً من أجلي.

في ذلك الصيف، وخلال تسكعي في الفندق، علَّمت نفسي بنفسي كيفية العزف على البيانو. كان هناك بيانو كبير وجميل في قاعة الاحتفالات ولم يكن يُسمح لي بلمسه. وواحد آخر في "ديوك لاونج". كما كان هناك في القبو بيانو قديم ضخم من طراز "هاينتزمان"، وكان لوح الصوت فيه جافاً لدرجة أن أحداً لم يتجرأ على ضبطه خوفاً من تحطمه كلياً. على مقعد البيانو كتابة بالية باللون الأصفر تقول: "سي إل هانون: عازف البيانو الموهوب". كنتُ أجهل كيفية قراءة النوتة الموسيقية ولكنني استمتعتُ بالشعور الذي انتابني عندما حدقت في السطور الموسيقية التي تحمل العلامات الملغزة. كانت ممتلئة بالخطوط، والنقاط، وأمامي المفاتيح الموسيقية الثلاثية والباس. لاحظ جيمي الكسندر، عامل الصيانة في الفندق، وجودي هناك بينما أنا جالسة أمام النوتة، سألني: «هل تستطيعين قراءة النوتة الموسيقية؟». وكان واضحاً بأنني لم أكن أفقه شيئاً في

الموضوع. أراني موقع علامة سي الوسطى على المفاتيح وموقعها على السطر الأول تحت المدرج الموسيقي، كما علَّمني أيضاً كيفية عدِّ الأحرف صعوداً. هناك الكثير من الأشخاص الذين يعزفون عزفاً سماعياً دون قراءة النوتة ولكنني كنتُ محظوظة لأنه علّمني كيفية قراءتها. حفظتُ موقع علامة السي على الورق وعلى البيانو. وصار في إمكاني معرفة الخطوة التالية بدءاً من هناك؛ حيث يشبه الأمر معرفة موقع الجبل ومن ثم البحث عن ممر يوصل إلى قمته. بالنسبة إليَّ، بدَت العلامات الموسيقية وكأنها تبرز من الصفحة. استطعت فهم السلم الموسيقي، ثم الأصوات التتابعية. وما زلت حتى الآن أشعر بالحماس والشغف كلما نظرت إلى ورقة الموسيقى. فأنا أستمتع بمنظر أصابعي وهي تتحرك صعوداً ونزولاً على لوح المفاتيح. ولا أريد لهذه الحركة أن تنتهي.

كنتُ في بعض الأحيان أعزف السلم الموسيقي بأوكتاف واحد؛ ثماني علامات موسيقية، وأحياناً أعزفه كما تقول النوتة بأوكتافين؛ ست عشرة علامة موسيقية، ولكن سرعان ما أصبحت أعزف سلالم موسيقية أطول، بأربعة، أو خمسة أوكتافات. كما كنتُ أعزف الأصوات التتابعية بيدي الاثنتين. قال لي جيمي الكسندر وي بعد ظهر أحد الأيام: «أنت في حاجة إلى تعلّم نوع آخر من الموسيقى».

* «لا شكراً لكَ. فأنا أحب ما أفعله».

- «أنت عنيدة ولكنني متأكد من أن لديكِ إمكانات تزيد على مجرَّد علامة سي الوسطى التي تعزفينها حالياً».

* «أجل، بالتأكيد».

كانت لديّ أنا ووالدتي أسطوانات مفضلة وغالية على قلبينا. أحبت ليه بول وهانك وليامز. كما أحبت موسيقى الفرق الكبيرة التي تعود إلى زمن

الحرب، وكانت لديها أسطوانة لـ "انترناشونال سويتهارتس أوف ريثم". وأهداها أحدهم ألبوم ماري لو وليَامز الذي أعجبني كثيراً. كانت تحب ليل هاردن التي كتبتْ "فقط للمتعة" وماتت على خشبة المسرح وهي تعزف.

قالت والدتي معلقة على حادثة موتها: «إنها طريقة جيدة للموت». رفعت يديها في الهواء، ثم استلقت على ظهرها متظاهرة بالموت.

بدأ اليوم الأول لحياتي الحقيقية عندما سمعت مقطوعة "رقصة الكفار". حيث أعارني جيمي ألبوم فرقة "باد باولز موديرنيستس"، وأعدتُ سماع تلك القطعة مراراً وتكراراً لدرجة أن والدتي قالت لي إنه سيترتب عليها أن تشتري أسطوانة أخرى لجيمي لأنني على وشك أن أتلفها. وفي كل مرة كنتُ أستمع فيها إلى الأسطوانة كنتُ أتراقص على أنغامها وأبتعد أكثر فأكثر عن طفولتي. لم يعد هناك شيء آخر مهم. كنتُ أدرك أن الجميع لا يؤمنون بأن الشغف شيء جيد، ولكن بمجرد أن تقع في شراكه فلا يعود هناك مجال للفرار. بدأت بكتابة العلامات الموسيقية لمقطوعة باد باول. الواحدة تلو الأخرى. وكان ذلك أصعب شيء قمتُ به في حياتي. طلبتُ من هارولد أن يسمح لي باستخدام مونوغراف قديم مهترئ موجود في مكتبه. وضعته في القبو، أقرب ما يكون إلى البيانو. كنتُ أشغل الأسطوانة وأوقفها. حتى يتسنى لي البحث عن العلامة الموسيقية الصحيحة، ثم أقوم بكتابتها، وأعيد الاستماع إلى الأسطوانة مجدداً، ثم أهرع إلى البيانو وأعزفها لأرى إن كنتُ على صواب. استغرق الأمر مني طوال فصل الصيف، وكان ذلك بالفعل صيفاً سعيداً.

خلال فترة استراحاتها، كانت أمّي تُحضر لي فطيرة وتجلس لتدخن في المدخل، وهي تقرأ مجلة "بريفنشن". كان يمكنني أن أستنتج أنها كانت معجبة بحقيقة أني أعلّم نفسي بنفسي، وهي تستمع إلى معزوفاتي بهدوء.

في أثناء عملها، كانت تتحدث طوال الوقت، وتظهر بشخصية ساحرة تأسر النادلات الأخريات والطهاة والزبائن، لكن دون أن تؤثر عليّ.

كان الجميع في مطبخ الفندق يضحكون على نكاتها، ويحبون شخصيتها والطريقة التي ترفع فيها شعرها وتضحك وتوجه إليهم الأوامر. ولكن، عندما أحاول أن أتحدَّث معها ونحن في الحافلة في طريقنا إلى المنزل، كانت تقول لي، وهي تبدو مرهقة جداً: «ليس الآن يا كاتي»، ثم تُميل رأسها على النافذة وتغط في النوم.

مهسا

قبل وفاة مور، أصابني القليل من الألم في ثدييَّ ولاحظتُ ظهور شعر مفاجئ في أماكن غير اعتيادية. لم أشعر بالراحة لارتداء الفوط النسائية، ولا حمالات الصدر القطنية ذات الأشرطة الضيقة والتي كانت تتحرك من مكانها إذا رفعت ذراعي كثيراً. حاولتْ مور جاهدة أن تلفت نظري إلى مزايا البلوغ، وقالتْ لي: «سنذهب الليلة جميعاً إلى فندق متروبول للاستماع إلى فرقة "كزافيير سيسترز". هل ترغبين في ارتداء جوارب حقيقية الآن؟». وبالطبع فقد قمتُ بذلك. وارتديتُ كذلك الأحزمة اللازمة، حيث كان الأول ضرورياً لتثبيت الفوطة النسائية، والثاني لتثبيت جواربي، في الحقيقة فقد تمنيت لو أن كل ذلك لم يحدث لي، فقد كنت أتألم، وناديتُ على مور قائلة: «أشعر بأنني مقيدة ومحبوسة!».

وردّتْ قائلة: «لا تقلقي سوف تكونين على ما يرام».

خرجتُ أخيراً وأنا أرتدي جوارب حريرية حقيقية، وتنورة رقص جديدة. شعرتُ، على مضض، بالفخر بالحياة المخفية الموجودة تحت ملابسي، وقال أبو: «لم يعد في استطاعتي أن أناديكِ بوركيوباين بعد الآن يا بوركيوباين. فأنت تبدين امرأة ناضجة حقاً».

يقع فندق "متروبول" في شارع ميرويثر، وهو يحتل مربعاً سكنياً كاملاً،

وقد بدا الأمر وكأن سفينة سياحية أنيقة ذات جدران بيضاء وزوايا مستديرة قد جنحت في كراتشي. يضم الفندق مكاتب واسعة لشركة طيران "بان أمريكان". وتوجد داخل الفندق، قاعة رقص ذات ثريات كريستالية بإضاءتها المبهرة وأرضية الرقص المصقولة. قدّم النُّدُل، المتأنقون بسترات سوداء، المشروبات في أكواب طويلة وأقداح صغيرة مع الثلج، وفناجين الشاي الصغيرة. وارتدت النساء الحرير والأقراط الكبيرة وتعطّرن بالعطور، بينما ارتدى الرجال البذلات الرسمية وفق الطراز الغربي، والأحذية الجلدية اللامعة، وربطات العنق الضيقة. ولا بدّ من القول إنه كان هناك العديد من اللغات في القاعة. رقص والداي "الروكابيلي"، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أستمع فيها إلى "هارلم دو ووبينغ" و"أنتِ تنتمي إليَّ".

بعد مقتلهما، كنت في حاجة إلى أن يذكرهما الناس أمامي، لكي أشعر بأنهما كانا موجودين فعلاً في هذه الحياة. قال أبو وهو يجلس على طرف سريري في بيت العم: «عندما رأيتُ مور لأول مرة أدركتُ بأنني قد وجدت بيتي». ضحكت مور التي كانت تجلس على حافة نافذتي، وقالت: «أخبرني بأنه الشخص الملائم لي تماماً». نظرتْ إليه من خلالي وكأنني لم أكن موجودة، وقالت: «جون، لماذا أتيتَ إلى أفغانستان؟».

نهض وقام بالقليل من حركات التباهي أمامها وقال: «جئت لأجدكِ، بريشنا». ثم قال لي: «بوركيوباين، لا تسمحي لأحد بأن يقنعكِ بأن الفتيات لا يستطعن الذهاب إلى الجامعة. دراستك في الجامعة هي ضمانتك للنجاح وللحصول على حياة أفضل من هذه». وقالت مور: «جدتي كانت أميّة».

اختفيا هما الاثنان، إلا أن أبو عاود الظهور عند النافذة وأخذ بيد والدتي بالطريقة نفسها التي اعتادا القيام بها عند عودتهما من مدرسة الرقص.

شرحا لي كيفية رقص "الفوكستروت" وكذلك "الرومبا" و"السامبا". وتخيلتُ ثعالب حمراء صغيرة وهي ترقص، وخطوات الراقصات وهن يرتدين الريش.

في الصباح، عندما لا تكون لديَّ رغبة في مغادرة سريري، كان أبو يقول لي بلغة الباشتو وبطريقة لفظه المضحكة: «هل ترغبين في الرقص معي؟». وتغيظه مور قائلة: هذه هي العبارة الأقل منفعة في لغتنا كلها، وهي الوحيدة التي اخترت أن تتعلمها». ويجيبها أبو: «لكنها لم تكن عديمة الفائدة معكِ، ثم إنني أستطيع أن أكتبها لكِ أيضاً». وباندفاع صبي يحاول التباهي لإرضاء فتاة، كتب العبارة بخطّه الطفولي ليجعلنا نضحك.

قلتُ لشبح مور الموجود على حافة النافذة: «اطلبي من أبو أن يأخذنا إلى أمريكا».

لكنها هزّت رأسها وقالتْ: «نحن بخير في المكان الذي يكون فيه والدكِ بخير. فنحن إن لم نقدِّر الأشياء الصغيرة، فلن نقدِّر الأشياء العظيمة».

أغمضتُ عيني لأجعلهما يختفيان. كنتُ في حاجة إلى النوم والدراسة، وإلى أن أرضي العم. وبكل تأكيد لم أكن في حاجة إلى مشاهدة والديّ المتوفيين وهما يرقصان طوال الليل. تدحرجتُ على سريري بعيداً عن النافذة. وفتحتُ وأغلقتُ عيني مرة أخرى. ووعدتُ نفسي بأن أحاول التحدّث مع العمة أكثر وبأن أدرس أكثر. خلال حياتها، قالت لي مور في إحدى المرّات: «حياتنا صعبة على الأرض، أما الجنة فهي بعيدة جداً».

في بعض الأحيان، تعجز اللغة الإنكليزية عن وصف كل الأشياء والخواطر. بلغة الباشتو، كان والدي يُسمّى "هامسايا" والتي تعني بأنه ليس من القبيلة وأنه في حاجة إلى الحماية. ويسمّى الولد "نك سار"، والتي

تعني الشخص الجيد، وتسمّى المرأة "آجيزا"، والتي تعني الشخص سيئ الحظ، وفي ذلك المجتمع، من الممكن أن تستخدم الفتاة لسداد ديّة قتيل أو لسداد دَين رجل بسبب القمار. ولهذا لم يكن في إمكان إخوة مور أن يستوعبوا كيف يمكن لرجل أن يأخذ الابنة المفضَّلة لوالدهم، ويبقى على مقربة منهم.

كاثرين

كنت ووالدتي نحبُّ الاستماع إلى برنامج مهرجان الأغنية الشعبية، الذي يقدِّمه أوسكار براند على إذاعة "دبليو أن واي سي" في كلِّ ليلة سبت. وأستمتع بالسهر معها حتى وقت متأخِّر والبحث عن تردُّد الإذاعة القادمة من مكان بعيد من مدينة نيويورك. كانت تعدُّ لي الفشار ونستمع إلى أوسكار وهو يعزف على جيتاره، ولطالما حلمتُ بأن أكون جزءاً من عالم الكبار الليلي والتحرُّر من بلدة الصلب المنعزلة. كانت أمِّي تقول لي في كلِّ أسبوع: «أتعرفين بأنَّ أصول أوسكار تعود إلى هذه البلدة؟». في إحدى الأمسيات، استضاف أوسكار امرأة تغنِّي بصوت منخفض أغاني السجن من ولاية تكساس، وكنتُ أتحدَّث مع أمِّي التي اقتربت مني ولمست ساقي قائلة: «اصمتي قليلاً حبيبتي. إنها أوديتا. وأريد أن أستمع إليها».

كانت أوديتا تخبر أوسكار كيف أنَّ المجتمع يحكم قبضته على المرء ولا يستطيع الإفلات من قبضته، ولكن عندما يصل إلى مفترق طرق فأمامه خياران، إما الاستسلام والموت، أو الإصرار على متابعة حياته. وقالتْ إنَّ الأشخاص الذين ألَّفوا أغنيات السجن هم الذين أثبتوا أنفسهم، ولم يستسلموا. واسترسلت قائلة: "أنا أدعو هذه الأغنيات باسم أغنيات التحرُّر". طلب أوسكار منها لاحقاً أن تغنِّي شيئاً مختلفاً، وقامت بغناء

أغنية بلوز بعنوان "انظر انظر أيها الراكب" والتي لم أفهم معانيها، ولكن والدتي طلبتْ مني أن أبقى هادئة وأستمع.

في تلك الأيام كان الرجال يحبُّون انتقاد الفتيات، وأوسكار لم يكن مختلفاً عنهم، ولكنه لم يكن قادراً على فعل ذلك بأوديتا. فقد كان هناك شيء خاص في صوتها، والأغاني التي اختارتها، مما جعله هادئاً. عندما انتهى البرنامج، لم تكن لدى أمِّي الرغبة في الخروج وإلقاء نظرة على القمر، كما اعتادت أن تفعل في بعض الأحيان. وقالت: «لا أستطيع تحمُّل ليلة واحدة أخرى»، وذهبت إلى السرير. أما أنا فلم أعر الموضوع الكثير من الاهتمام. فقد كنتُ معتادة على تقلُّبات مزاجها، كما كنتُ مستغرقة في الأمور والقضايا التي أحبها. بالإضافة إلى شعوري بالعجز، وبأنه ليس في إمكاني القيام بأيِّ شيء حيال مشاكلها.

لم أفكر كثيراً في حقيقة أنها ظلَّت مستلقية في سريرها طوال يوم الأحد، ولكنها لم تنهض كذلك من سريرها في صباح يوم الاثنين، وقالت: «سوف آخذ إجازة لهذا اليوم».

ذهبتُ إلى المدرسة، وعندما عدتُ إلى المنزل فوجئتُ بأنها لا تزال مستلقية في السرير.

قالتْ: «كاتي، لا يسعني القيام بشيء حيال ما أشعر به». وارتدت رداءها الأخضر الملطَّخ وجلست على طاولة المطبخ وبدأت تدخِّن. يوماً بعد يوم. بدأت عيناها تبدوان متعبتين وذاهلتين. وبدتْ في كثير من الأوقات وكأنها لم تكن تدرك بأنني كنت معها هناك. كانت قد خبَّأت بعض المال المُدَّخر في إحدى الأدراج، ناولتني إيَّاه وأرسلتني لشراء السجائر. قمتُ بعدِّ النقود محاولة أن أعرف لكم من الوقت سيكفينا هذا المال. اشتريتُ أرخص طعام موجود في المتجر، وهو عبارة عن المعكرونة والخبز

الأبيض. كما اتصلتُ بمديرها في العمل وأخبرتُه بأنها مصابة بالإنفلونزا. وأخيراً، لجئتُ إلى نان، كانت تخلط الحليب المجفف من أجل فتيانها، وتكرَّمت بإعطائي كمية كبيرة منه قائلة إنها ستأتي وتطمئنُّ على والدتي. كنتُ أخشى من العودة إلى بيتنا الذي تحوَّل إلى حفرة مليئة بالدخان، ومن رؤية عينيها الغائبتين والغائرتين. جاءتْ نان لزيارتنا، وقالت لي: «يمكنكِ الذهاب الآن، دعينا وحدنا لندردش قليلاً».

جلستُ خارج باب غرفة النوم ولكن نان شغَّلت الراديو بحيث لم أعد قادرة على سماع حديثهما، وكل ما استطعت سماعه هو صوت بكاء والدتي ومن ثمَّ سمعت نان تقول: «حسناً، إذا كان متزوجاً..».

خرجتْ نان وأعدَّتْ لي بعض الشاي، وقالت: «أمهليها بضعة أيام أخرى، وستكون بخير».

بدأتْ دورتي الشهرية الأولى خلال الفترة التي لم تكن فيها والدتي راغبة في مغادرة المنزل، ولم تكن لدينا أية فوط نسائية، أما أنا فقد كنتُ محرجة جدَّاً من أن أطلبها من نان. سرقتُ علبة من الصيدلية لأنني كنتُ قلقة من ألا يكفيني المال لشراء الطعام. ولم يكن أمامي من خيار سوى أن ذهبتُ إلى دروس الباليه التي تُقام في صباح كلِّ سبت في صالة الألعاب الرياضية ضمن مدرستنا وطلبتُ منهم أن يوظفونني للعزف على البيانو، بأجر زهيد جداً. وكان ذلك بالفعل أول عمل لي.

بسبب مرض والدتي، وحاجتي إلى الانتباه إلى كلِّ بنس والتأكُّد من حصولها على السجائر في كل يوم، فقد نضجتُ بسرعة، وفاتني الكثير من الوعي الذاتي الذي كان لدى الفتيات الأخريات. كانت والدتي تزداد نحالةً وتسعل طوال الوقت، حتى أن نان جاءت مرة أخرى، وقالت لي: «إليك بعض النقود لتدفعيها لسيَّارة الأجرة. خذيها إلى المستشفى».

أخذتها إلى هناك، حيث الكثير من الأناس الآخرين المعدمين والمتعبين. كانت أمِّي مرتعدة ومنكمشة ونحيلة جدّاً، وكانت تفوح منها رائحة الدخان المزعجة. جاءت الممرِّضات واصطحبنها للخضوع للفحوصات، لكنها صرخت فيَّ: «لا تدعيهن يحبسنني بعيداً».

جلستُ وحدي وصلَّيتُ من أجلها، وهو أمر لم أكن معتادة على القيام به، وقلتُ: «إلهي، أرجوك ساعدها، ولا تسمح لهم بأن يبعدوها عني. أنا لا أعرف ماذا سأفعل لو بقيتُ وحيدة من دونها. شكراً لكَ. إنها أنا كاتي».

جاءت الممرضة وأخبرتني بأن أمِّي محبطة قليلاً، وبأنه يمكنني مساعدتها على تناول بعض الحبوب كل صباح. كما قالت لي إنها عنيدة ولا تريد الالتزام بتناول أدويتها وأضافت: «هذه علامة جيِّدة يا عزيزتي».

* «وكيف تكون هذه علامة جيِّدة؟».

قالت لي الممرضة وهي تعطيني قصاصة ورق مكتوب عليها رقم هاتف عيادة عامة: «إن أمك عنيدة حقاً، ولكنها ستحتاج إلى مساعدتك. صحيح، لقد أخبرتني بأن لديكما عائلة كبيرة والكثير من الأصدقاء للمساعدة، ولكنني لا أرى أحداً».

أعدتُ والدتي إلى المنزل في الحافلة واقترضتُ المزيد من المال من نان لشراء الأدوية، وقالت لي نان: «سوف أعود لزيارتكما في وقت لاحق الليلة. ابني ماك سيجلب فتاة ليعرِّفنا إليها وعليَّ أن أحضِّر العشاء للعائلة».

فكَّرتُ بيني وبين نفسي بأنَّ هؤلاء الأولاد محظوظون لأنهم قادرون على جلب أصدقائهم إلى المنزل ولأنَّ لديهم أمَّاً تعدُّ لهم ولأصدقائهم العشاء. تمنَّيتُ لو أنَّ نان تدعوني لتناول العشاء معهم.

بدأت والدتي بالتحسُّن بعض الشيء. واتصلتُ هاتفياً بهارولد في فندق "رويال كونوت" لأنه لم يعد في إمكاني الادِّعاء بعد الآن بأنها تعاني من

الإنفلونزا، أخبرتُه بالحقيقة وقال لي: «يا إلهي، ماذا حلَّ بالسيدة غودناو. لا بدَّ من أنَّ ذلك صعب. قولي لها إنَّ عملها سيبقى شاغراً بانتظارها إلى أن تتحسَّن وتصبح قادرة على العودة».

كان كلامه طيِّباً، وقد تدبَّر الأمور مع رئيسها في الفندق. قالتْ لي والدتي عندما تحسَّنت صحتها وعاودت عملها مرة أخرى: «كاتي، أنا آسفة لأنه كان عليكِ أن تخوضي في كلِّ تلك التجربة وتمرِّي في تلك الفترة الصعبة. أرجوكِ، لا تفعلي ما فعلته أنا».

* «وماذا فعلتِ؟».

- «أخبرتكِ سابقاً».

* «حقيقة أنكِ حملت بي؟».

كنتُ أحاول أن أحلم بمستقبل لا أكون فيه امرأة مهملة تدخِّن في قبو مظلم. بالنسبة إليَّ، كان تعلُّم الموسيقى أسهل من محاولة إصلاح حياة والدتي. لم أكن لأكون مثلها. كنت عازمة على تأليف الموسيقى الخاصة بي وأن أقول: «تقبَّلوني كما أنا».

بدأ عملي كعازفة في قاعة رقص الباليه يؤتي ثماره. فبعد أن اكتشفتُ بأنه يمكنني كسب المال من خلال العزف على البيانو، لم يكن هناك مجال للعودة إلى الوراء. في عمر الست عشرة سنة كنت أعزف بشكل احترافي. وكنتُ أريد أن ألفت أنظار العاملين في مجال الفن، ولذلك عثرتُ على قبَّعة قديمة من طراز "باندينو" وزيَّنتها من الأمام بشبكة سوداء غطت وجهي حتى أسفل أنفي. فقد كنتُ متأثِّرة بفيلم "إما أن تحبني أو تتركني" الذي شاهدته في تلك السنة، واستلهمتُ بعض الأفكار من الممثِّلة دوريس ادي. كما عثرتُ في متجر "سالي آن" للألبسة المستعملة على زوج من الأحذية السوداء ذات الكعب العالي، وفستان كوكتيل أسود مع تنورة كاملة

وأكمام قصيرة جدّاً. بارتداء ذلك النوع من الملابس، كنتُ أظنُّ بأنني أبدو في الخامسة والعشرين من العمر، من خلال عينيَّ المخبَّئتين وراء الشبكة السوداء، وشفتيَّ الملوَّنتين بأحمر الشفاه. كما قمتُ برفع شعري وحدَّدت عيني اللوزيَّتين بالكحل. حاولتُ أن أرتِّب ملابسي المستعملة لتبدو وكأنها قد صُمِّمت خصوصاً لي، كما كنتُ أتعلَّم كيفية عزف المقاييس لتظهر كما لو أنها كانت خاصَّة بي أيضاً. وتسلّلتُ بانتظام لمشاهدة الفرق الموسيقية. وقد زارت فرقة مو بيلسن البلدة أكثر من مرَّة، وكنتُ أذهب للاستماع إليهم كلَّما أُتيحت لي الفرصة، وبعد ذلك بدأتُ أحلم بالعزف معهم. كان من الجنون أن أحلم بأنني أنا، الفتاة البسيطة التي تبلغ من العمر ست عشرة سنة، يمكنها أن تعزف مع فرقة لموسيقى الجاز من جنوب الحدود.

ثمَّ، حدث شيء لا يُصدَّق في تلك الليلة المذهلة التي ما زلتُ أذكر تاريخها حتى اليوم: الأربعاء 15 شباط/ فبراير 1956.

خرجتُ أنا، كاثرين غودناو، متأنِّقة بفستاني الأسود، وقبَّعتي الكبيرة وحذائي ذي الكعب العالي. ركبتُ الحافلة إلى وسط المدينة، ودخلتُ إلى بار "الكسندرا" في شارع جيمس ساوث، وعندما أخذتْ فرقة "مو بيلسن" استراحة، تجرَّأتُ وصعدتُ على خشبة المسرح، جلستُ إلى البيانو، وانحنيتُ باتجاهه كعادتي وبدأت أعزف الأغنيات التي كان الحضور يعرفونها جيِّداً مثل: "الأشياء التي قمنا بها في الصيف الماضي" و"أوراق الخريف"، وعندما استشعرت بتفاعل الجميع مع ما أعزفه، قمتُ بعزف القليل من ألبوم فرقة "باد باولز".

لم يحاول أي أحد منعي عن الاستمرار في العزف.

كنتُ أعلم بقرارة نفسي أنَّ على الفتاة أن تعرف ما تريد القيام به، وأن تتحلَّى بالجرأة للقيام بذلك. وهذا تماماً ما حدث معي في تلك الليلة.

وكما اعتادت أمِّي أن تقول دائماً: «أن تحاول هو دائماً أفضل من ألا تحاول». وتقول لي عندما تكون في مزاج مرح وجيِّد: «كاتي، أنا أؤمن بكِ وسأدعمكِ دائماً».

عادتْ الفرقة مرَّة أخرى إلى المسرح. حيث ركل أحدهم كرسياً للفت انتباهي إلى وجودهم، ولكنني كنتُ أعرف مسبقاً بأنهم كانوا هناك. كنتُ أعرف كلَّ شيء. وأحاول أن أستوعب كلَّ شيء. قال مو: «ينقصنا عازف بيانو في الفرقة. يمكنكِ البقاء إذا كنتِ قادرة على مجاراتنا، ولكن ليس لدينا أية نقود لندفعها لكِ».

كان ذلك الموقف إشعاراً ببدء مسارٍ جديدٍ ومختلف في حياتي. فقد عزفتُ معهم في كلِّ زيارة لهم إلى البلدة. لم أكن قد بلغت السنَّ القانونية بعد، ولذلك كنتُ مضطرَّة إلى أن أجد طريقة أكون فيها غير مرئية أمام أعين الجميع، كما تمكَّنتُ أخيراً من إقناع مو بأن يدفع لي أجراً. عثرتُ على قبَّعة أكبر. وبذلك، إذا دخل شرطي إلى المكان كنتُ أُسدل شعري إلى الأمام. في تلك الأيام، كان الرجال يقولون أشياء من قبيل: «تبدين جميلة في هذا الفستان، وستبدين أجمل من دونه». وفي إحدى المرَّات قال لي رجل متعجرف ومزعج: «مهلاً، ما قصَّة هذه الفتاة؟ تبدو وكأنها تبلغ اثنتي عشرة سنة».

جالتْ فرقة "بيلسن" بلدات الجنوب وعزفتْ في جميع المدن الصناعية على طول الحدود. كانوا يعرفون الفنادق التي تدفع لهم مقابل عزفهم ولا تسمح لهم بالمبيت، والمطاعم التي لا تقدِّم لهم فنجاناً من القهوة، ولا تسمح لهم باستخدام دورات المياه. وقد سمعوا بالفعل كلَّ أنواع المضايقات والتعليقات الممكنة. كان مو يحبُّني. فقد كان لديَّ حسٌّ قويٌّ بالإيقاع، وكنتُ أعرف أنغام البيانو الأساسية وأتعلَّمُ أسرع

من الشيطان. كان يقول بأنني أتمتَّع بقدرات خارقة. أما أنا فقد كنتُ على طبيعتي وأشعر بأنني كاتي الحقيقية عندما أكون على المسرح.

«أية فتاة؟». قال مو بابتسامته الساحرة إلى الرجل المتعجرف، «فأنا لا أرى سوى عازفة بيانو».

عندما وصلنا إلى المجموعة الأخيرة من الأغنيات. عزفتُ باحترافية وباندفاع لدرجة تدفع ذلك المتعجرف إلى تغيير رأيه عن كوني مجرَّد فتاة، وحالما انتهينا من العزف، غادرتُ المكان. عزفتُ مع مو لمدَّة أربع سنوات في كلِّ مرَّة كانوا يزورون فيها البلدة. وكان هو يبدِّل أعضاء الفرقة على الدوام ممَّا جعلها مثيرة للاهتمام بالنسبة إليَّ. كنتُ متأكِّدة من أنه لم يكن يدفع لي أجراً جيِّداً جدَّاً، ولكنَّ ذلك لم يزعجني أبداً. كان يضيف أحياناً عازف درامز جديداً، وأحياناً عازف إيقاع جديداً. ومع اقتراب نهاية دراستي الثانوية، انضمَّ عازف ساكسفون طويل ومثير يسمِّي نفسه تي ماينور إلى فرقة مو. قال لي في الليلة التي تعرفتُ فيها عليه: «أنا من رونوك في ولاية فيرجينيا. ونسمِّيها "بيغ لِك[1]"». ضحك جميع العازفون في الفرقة ولكنني كنت معتادة على عدم الالتفات إلى الطريقة البذيئة التي يتحدَّث بها الرجال. جلُّ ما أردته هو العزف فقط. ومع ذلك، فقد شعرتُ بأنَّ هناك شيئاً غير عادي. حيث يمتلك تي طريقة خاصَّة للإغاظة بعينيه وطريقة حميمية في إمالة كتفه إلى الأمام عندما يتحدَّث.

كنتُ أذهبُ إلى المدرسة بالحدِّ الأدنى الذي استطعتُ تدبُّره، وهو أمرٌ لم يحاول أيُّ أحد إزعاجي بشأنه، فقد كنتُ مجتهدة دون أن أبذل جهداً كبيراً. وحضرت الصفوف بما يكفي لأنجح في امتحاناتي. في اليوم الأخير من المدرسة حصلتُ على بطاقة التقرير المدرسيِّ الخاصَّة بي وشهادة

1 - لعقة كبيرة. (المترجمة).

التخرُّج، وكتبتْ واحدة من فتيات صفي العبارات التالية في كتابي السنوي:

إلى كاثرين:

الفتاة المختلفة – من ناحية الأسلوب واللباس

الفتاة التي لا تُعير بالاً إلى الرجال – والفتيان كذلك!

أراكِ في نيويورك أيَّتها النجمة!

أريتُ الشهادةَ إلى والدتي التي قالتْ لي: «لا أعرف كيف تمكَّنتِ من فعل ذلك، مع غيابك المتكرِّر عن المدرسة».

وفيما كنتُ على وشك الخروج للعزف لدروس الباليه، قالت لي: «أنتِ محظوظة يا كاتي، فأنتِ تمتلكين موهبة يمكنكِ كسب المال من خلالها. ما رأيكِ في أن أخبز كعكة الليلة للاحتفال؟ فأنتِ أوَّل فتاة تتخرَّج في عائلتنا».

ولكنني قلتُ: «أمّي، لديَّ حفلة الليلة».

مهسا

كان أفضل شيء جلبه أبو إلى المنزل هو جهاز عرض أفلام وكاميرا 8 مم لتسجيل أفلام الفيديو المنزلية، كان يصوِّر أفلاماً عني وعن مور والجيران في منطقتنا. أراد أن يشرح لنا خطَّ رحلته من أمريكا، فوضع خريطة للعالم، وربط خيط إلى طائرة معدنية صغيرة قمتُ بجرِّها على طول الخريطة من كنساس إلى المحيط ومن ثمَّ إلى لاشكار جاه حيث كان يصوِّر الفيلم. توقَّف وربط الخيط إلى جَمَل بلاستيكي وقمتُ أنا بجره من أفغانستان إلى كراتشي لإظهار المكان الذي قَدِمَ منه هو ومور. سألته: «هل ركبتَ الجمل حقّاً على طول الطريق إلى هنا؟». فضحك وقال: «لا، ولكن ذلك سيكون مشوِّقاً أكثر من أجل فيلمنا». كنتُ أساعده أحياناً في وضع عناوين للأفلام، وفي إحدى المرَّات، كنا على الشاطئ، وكتبنا على الرمل العنوان التالي: "يوم على الشاطئ"، وطلبَ مني أن أكتبه باللغة الأردية أيضاً، وبعد ذلك قام بتصوير الأمواج وهي تمحوه.

كما صوَّر مور وهي تمشي على الشاطئ باتجاه المحيط وكنتُ أمشي برفقتها وأنا أتناول بوظة "كواليتي". وكان أحياناً يقوم بتصوير الفِرَق الموسيقية والرقص في النوادي التي كان يرتادها مع مور ليلاً. اعتاد أن يعرض تلك الأفلام على قطعة قماش بيضاء، وكنت أسترق لمحة عن الحياة الغامضة للبالغين، وهم يرقصون ويضحكون معاً. بدوا لي مثل

الأطفال الذين يلعبون ويمرحون وهم يرتدون ربطات العنق والكعب العالي. كان أبو يشاهد الصور، وبخاصَّة تلك الخاصة بالفرق الموسيقية، ويقول: «يحتاج هذا المشهد إلى الموسيقى»، ومن ثمَّ يتحمَّس ويتوجَّه إلى البيانو ليعزف. كنتُ أنا ومور نشاهد أفلامه أحياناً لوحدنا، عندما يعمل في الجامعة حتى وقت متأخِّر. أحبّت مور أن ترى الصور التي صوَّرها لي وأنا طفلة رضيعة. كانت تبدو شابة في تلك الصور. سألتُها إن كانت لدينا صور في لاشكار جاه وقالتْ: «لم يكن أبو يملك الكاميرا في ذلك الحين، وكان من الصعب أن نلتقط صوراً هناك». ثمَّ صمتت قليلاً وقالت: «مهسا، ستكونين فتاة حرَّة مثلي. ولدى شعبنا مقولة أنَّ البنت سرُّ أمها». قالت هذا الكلام بمنتهى الجدية ومن ثمَّ ضحكتْ وعرضت الفيلم الذي يحملني فيه أبو وأنا طفلة. وقالت: «قمتُ أنا بتصوير هذا الفيلم».

كنتُ فعلاً أريدُ أن أكون مثلها.

بعد قتلهما واضطراري إلى العيش مع العمَّة والعم، كنت ولفترة طويلة أعود من المدرسة إلى البيت وأبقى وحيدة في غرفتي. أقوم بإعداد جهاز العرض لكي أشاهد أفلامنا لوحدي. وأسترجع الوقت الذي كنَّا فيه جميعنا سعداء، حيث نلوِّح ونبتسم ونضحك ونتحدَّث إلى الكاميرا التي تعرض الأفلام الصامتة فقط. ضبطني العمُّ أكثر من مرَّة وأنا أقوم بذلك، وكان يطلب مني أن أضعها جانباً وألتفت إلى الدراسة.

في معظم الأحيان، كان يتركني في حال سبيلي. وكنتُ أستلقي في سريري في الظلام وأستحضر كلَّ ما يمكنني أن أفكِّر فيه عن أبو ومور، لعلَ ذلك يساعدني على تذكُّر تفاصيلهما: أسنان مور السفلية المتداخلة قليلاً، طول أظافرها الملوَّنة، الندبة على يدها اليسرى، ومدى جدِّيتها عندما تحاول أن تعلِّمني شيئاً، وكيف كان ينتهي بنا المطاف ونحن نضحك على

أي حال، وكيف كان أبو يقول إنَّ الصيف حارٌّ جدَّاً لدرجة تشعره بالألم لمجرَّد تحريك عينيه، وكيف كنت أرافقه على الترام المتَّجه إلى بارادايز بوينت، صيده للأسماك في كيب مونز، وكيف كنتُ أجلس بينه وبين مور في عربة تجرُّها الخيول إلى كليفتون بيتش.

لم يكن باستطاعتي النوم جيداً، وعندما أكون مستيقظة، لم أكن أشعر بأنني يقظة وإنما بأنني حزينة وثكلى. وفي فجر أحد الأيام، قرَّرتُ بعد أذان الفجر أن أتظاهر بالمرض مرَّة أخرى في ذلك اليوم للبقاء في السرير وعدم الذهاب إلى المدرسة. أردتُ استحضار والديَّ بشدَّة لدرجة أنني نهضتُ ووضعتُ فيلماً في جهاز عرض الأفلام وبدأت بمشاهدته. بدت الصور باهتة على الحائط. كنتُ أحب الاستماع إلى صوت تكتكة جهاز العرض الذي كان مهدئاً ومريحاً بالنسبة إليَّ. فجأة، فتح العم باب غرفتي واقتحمها.

قال لي: «حلَّ الصباح، وأنت تقومين بهذا! ماذا عن المدرسة؟». مزَّق الفيلم من جهاز العرض والتقط الأفلام الأخرى، وأخرجها من علبها وألقاها في سلة المهملات في غرفتي. ثمَّ أخرج علبة ثقاب من جيبه، وأشعل إحداها ورمى بها في السلَّة. كنتُ أصرخ وأحاول الوصول إلى السلَّة وسحب الأفلام، لكنَّه جرَّني بعيداً ودفعني على السرير ووقف ينظر إلى الأفلام وهي تحترق وتذوب. لاحظتُ وجود العمَّة عند باب غرفتي ولكنها لم تفعل أي شيء لمساعدتي. بكيتُ وكانت رائحة الأفلام المحترقة نفَّاذة مثل الفجل المتعفِّن. ومع تحوُّل الأفلام إلى فوضى مدمرة، كنتُ قد فقدتُ أبو ومور مرَّة أخرى من جديد. التفتَ العمُّ إليَّ، وقال: «استعدِّي للمدرسة».

***

طلبت مني الأخوات في مدرسة سانت جوزيف العزف على البيانو في أوبريت مدرستنا التي تحمل عنوان "الغجري الصغير الغريب". أخبرتهم بأنني لا أملك بيانو في المنزل لأتمرَّن عليه. وقالت الأخت ديفان: «يمكنكِ التمرُّن هنا، سوف أتواصل مع عمَّتك ونرى ماذا يمكننا أن نفعل أيضاً».

تدبَّرت العمَّة مهمَّة إقناع العمِّ بالسماح لها باصطحابي صباح كلِّ سبت إلى نادي "007" في فندق "بيتش لاكشري" للتمرُّن على البيانو، بينما يلعب هو الهوكي في ضاحية بلدة سينسيناتي. أحبّبتُ أيَّام السبت تلك بعيداً عن المدرسة وعن شقَّتهما. توصلني العمَّة إلى باب الفندق وتختفي إلى أن يحين الظهر، وكان في وسعي أن أفعل كل ما أحببته. ولفترة طويلة، كنتُ أعزف فقط الموسيقى التي علَّمني إياها أبو.

كاثرين

كان تي ماينور يقف على المسرح بعيداً ومنعزلاً بعض الشيء عندما يعزف. وكان العازفون المرافقون له يصيخون السمع إلى عزفه حيث لا يمكن أبداً التنبُّؤ بما سيعزفه. استمتعت بمشاهدة عينيه المغمضتين وكأنهما تبحثان عن مكان لم يكن فيه من قبل. كان يبدو لي كرجل على صخرة تسحبه الأمواج نحو دوَّامات مرعبة. كانت الأنغام تجرُّه بعيداً إلى عالم النسيان، وتعيده إلى قسوة الليل وإلى ما هو جديد. ومن ثمَّ يعاود الذوبان في صوت ساكسفونه السوبرانو الذي يلفُّ الزوايا المظلمة ويرقص تحت الإضاءة ويعاود حضوره إلى الواقع بعد مرور وقت طويل جداً. كنت أشعر بأنه يزور العالم السفلي، ويستمع إلى حزن لا ينتهي قبل أن يقفل عائداً إلى بلاده من ملحمة ساكسفونية عزف فيها أمام الحوريات وبنات آكلي لحوم البشر، وابن قضى عمره في انتظار طويل. كان تي يعزف إلى حدٍّ تشعر معه بانقطاع النفس، حيث يستمرُّ ويستمرُّ إلى أن يفتح عينيه مجدَّداً ليتنفَّس ويعيد تكرار العلامات الموسيقية منذ البداية. رأيته وهو ينظر إليَّ، ويتأمَّل تفاصيلي، وكنتُ أركِّز مثل المجنونة لأكون قادرة على مجاراته، والشعور بنظراته إليَّ وأنا على خشبة المسرح. حتى عندما نكون أمام الجمهور، فقد كنتُ أشعر دائماً بأننا لوحدنا معاً. قلتُ له عندما قبَّلني للمرَّة الأولى بعد أحد العروض، وكانت قبلة سريعة، إنَّ والدتي تنتظرني، لكنه لم يصدِّقني

ولم يلِنْ. راح يلفُّ ذراعيه حولي ويهمس بصوته المنخفض: «اكذبي كذبة امرأة حقيقية يا فتاة، أخبري والدتك بأنك ترقصين مع أصدقائك». ليلة بعد ليلة، كان يتحدَّث معي، يسرق قبلة، ويلمس يدي، ولكنني شعرتُ دوماً بأنه في قمَّة حماسه تجاهي عندما نكون على خشبة المسرح.

في إحدى الليالي، ذهبتُ وحدي إلى نادي "داونستيرز" في شارع مكناب حيث كان بيتر ابليارد يعزف. أردتُ أن أستمع إليه، وأردتُ أكثر أن يستمع إلى عزفي أولئك الذين جاءوا للاستماع إليه. ارتديتُ قبعتي، ونزلتُ الدرج الرخامي، عبرتُ مدخل النادي ذي الجدران المغطَّاة بصور ألبوم "فولكوايز". لم أدفع رسم الدخول إلى الرجل في مكتب الاستقبال. فقد أقنعته بأنني أعزف معهم. بدا مشوَّشاً ولكنه سمح لي بالدخول إلى النادي عبر الممرِّ ذي الجدران المكسوة بجلد أحمر. كانت هناك آلة معطَّلة لبيع السجائر على أحد الجانبين وخشبة مسرح صغيرة مع بيانو قديم ومهترئ. والسقف مكون من أنابيب سوداء على شكل متاهة. عند وصولي، لم يكونوا قد بدأوا بالعزف بعد، ولذلك فقد عزمتُ على القيام بخدعتي المعتادة، صعدتُ إلى خشبة المسرح، جلستُ إلى البيانو وبدأتُ العزف. كانت الطاولات مغطاة بمفارش حمراء عليها مربَّعات ولم أكن أعرف عدد الحاضرين هناك، ربما كانوا ثلاثين شخصاً.

اخطأتُ في الحكم على تلك الليلة. فقد قدِم الجمهور من ابليارد. واستاء المدير من فكرة أن تغزو فتاة خشبة مسرحه الرديئة. كانوا يقدِّمون الكولا والفانيليا، لكنَّ الحضور كانوا يدخِّنون، وفي حالة سكر حتى قبل جلوسهم على تلك الكراسي الخشبية المهلهلة. صاح رجل سكران في الصالة الصغيرة: «اخلعي ملابسك يا حلوة».

عزفت بشكل أقوى. ولم أختبئ. ولكنني تمنَّيتُ لو كان باستطاعتي

الاختباء. كانت تلك رغبة ملحَّة. استلزم الموقف كله شجاعة كبيرة. ومن ثمَّ، لمحتُ تي في المدخل، دخل مباشرة ووقف أمام الرجل الذي كان يصيح ويقاطعني. وعندما انتهيت من العزف، صفَّق تي، لوحده، إلى أن انضمَّ إليه عدد قليل من الناس. تقدَّم المدير ليخبرني بأن أغادر المسرح، وقال تي: «هيا بنا نذهب». وأجبته: «لن أهرب. أنا باقية هنا».

جلسنا واستمعنا إلى مجموعة الأغنيات، كنتُ مشوَّشة التفكير، فقد عرفتُ في قرارة نفسي بأن تي ينوي مغادرة ذلك المكان. وبأنه يريد أن نكون أنا وهو في تلك الليلة. كانت تلك نهاية الإغواء وكان عليَّ اتخاذ القرار. بطريقة أو بأخرى. سمحتُ له بمغادرة المكان برفقتي. قاد السيارة إلى موتيل في كوتيس بارادايز. وأعتقد بأنه كان يفعل هذا الأمر دائماً لأنه كان يملك بالفعل مفتاحاً لغرفة في الموتيل مخبّأً عن الأنظار فوق دعامة الباب، وكلُّ ما كان علينا القيام به هو ركن سيارة الفرقة الكبيرة من طراز شيفروليه أمام الباب رقم 9 والدخول إلى تلك الغرفة الصغيرة.

أعتقد بأنه لم يكن يدرك كم كان عمري. أما أنا فلم أكن أعرف كم كان عمره، وفي الحقيقة لم أهتم بذلك. أعتقد بأنه كان مثاراً من حقيقة أنني نصف بيضاء ونصف آسيوية. ولم أكن مهتمَّة بذلك أيضاً لأنني لستُ من جنوب الولايات المتَّحدة حيث يتمُّ سحل الرجل وقتله لقيامه بما ينوي تي القيام به معي في تلك الليلة.

كانت تلك ليلة جميلة، وأعتقد أنَّ تي تفاجأ بكونها المرَّة الأولى بالنسبة إليَّ. أيقظته في الفجر لنقوم بذلك مرة أخرى، وكانت المرَّة الثانية جيِّدة جدّاً وأدركتُ عندها معنى الرغبة التي لا تنطفئ ولا تخمد.

وضعتُ رأسي على صدره وأنا أتلمَّس بأصابعي ملمس بشرته الجميل، أحببتُ ملمس أصابعه التي تعزف الساكسفون عزفاً مذهلاً. قال لي: «اعتاد

جدِّي أن ينادي جدَّتي بلقب فتاته المفضَّلة. هل تريدين أن تكوني فتاتي المفضَّلة؟».

إذاً، هذا ما كانت تحذِّرني منه والدتي طوال هذه السنوات. هذا الشيء المقدَّس. هذا الشيء الجميل. فلطالما قالت: «بمجرَّد أن يبدأ الأمر، تضيع الفتاة في أهواء نفسها». أظنُّ بأنها كانت لتكون أكثر فائدة لو قامت بإعطائي بعض المعلومات حول كيفية تحديد النسل، ولكنها لم تفعل ذلك. ولكن مع ذلك فقد كانت على حقٍّ فيما قالته. منذ المرَّة الأولى التي كنتُ فيها مع تي ماينور، عرفتُ بأنني أحبُّ هذا النوع من الضياع. أحببتُ الشعور الذي أعطاني إيَّاه هذا الموتيل الرخيص مع ستائر بيزلي الغامقة.

قلتُ له: «هل يمكنني أن أكون فتاتكَ المفضَّلة وعازفة البيانو المفضَّلة لديك أيضاً؟».

وكانت هذه هي الطريقة التي حصلتُ فيها على زوجي وأوَّل فرقة ثابتة أعزف معها.

مهسا

أنا أعرف الصمت المشترك لأولئك الذين يشتركون في الخديعة.

عندما كانت العمَّة تأتي لتأخذني من فندق "بيتش لاكشري" في صباح كلِّ سبت، كانت تبدو أكثر سعادة وأكثر توردُّاً، لكننا لم نتحدَّث أبداً عن المكان الذي كانت تذهب إليه وأنا لم آتِ على ذكر غيابها. أعتقد بأنَّ العمَّة أحبّتني كثيراً لأنني أحفظ سرَّها ولكنني لم أحبُّها قط. كنتُ أرى أنها تافهة، بلا أية شخصية مستقلَّة. كانت والعم أولاد عم، ومنذ ولادتها قرَّر أهلهما أنهما سيكونان زوجين مستقبليين. شفتاها رقيقتان مزمومتان دوماً، كانت تصغر العمَّ بست عشرة سنة، وطوال حياتها لم تنظر إلى عينيه مباشرة. تعرفت إلى مور في لاشكار جاه. وقد روتْ لي قصصاً عن النزهات العائلية إلى الأنقاض الضخمة لقصور الغزنويين. كان أخوة مور يغارون من حقيقة أن والدهم قد أنفق الأموال عليها للذهاب إلى المدرسة. كما كان باقي الرجال في العائلة غيورين جداً من رحيل العم بعيداً، وبعد وصول الأمريكيين لبناء السدود، تغيَّر كل شيء، واضطر العديد من الرعاة إلى التخلِّي عن قطعانهم لإفساح المجال لمشاريع السدود. أمَّا الرجال الذين مانعوا التخلّي عن قطعانهم فقد تمَّ قتل جميع قطعانهم في مذبحة واحدة، حيث العيون الخائفة، والأنين المذعور، وحمام الدماء، واللحم والجلود المهدورة. كان العمُّ من أوائل الذين غادروا، أخبرتني العمَّة بذلك وهي تشعر بالفخر،

كما لو أن إنجازاته هي إنجازاتها، فهي في الحقيقة لم تكن لها أية إنجازات شخصية. عاد ليتزوَّجها، وكانت خائفة من الابتعاد عن جميع الأشخاص الذين عرفتْهم في حياتها والانتقال إلى العيش في مدينة أجنبية.

قالتْ لي: «لقد تعلَّم القراءة وعمل في الفندق، ومن ثمَّ بدأ حياته التجارية في مجال بيع السجَّاد. لديه الآن شريك تجاري آخر، ويقوم بتصدير البضائع إلى أمريكا».

سألتها: «لماذا أقدم إخوة مور على قتلها؟».

رفعت العمَّة إصبعها ووضعته على شفتيها وقال لي همساً، على الرغم من أنَّ الشخص الوحيد الذي كان في المنزل حينها هو خادمتها، مينو، وهي فتاة أمِّية تخشى العمَّ كثيراً: «كانت والدة مور الزوجة المفضَّلة لدى والدها. لكنَّ زوجاته الأخريات لم يتقبَّلنها وجعلن حياتها جحيماً. هي نفسها كانت صغيرة في السنِّ ولم تكن قادرة على السيطرة على والدتِك خاصة بعد التحاقها بالمدرسة حيث أصبحتْ عنيدة جدَّاً».

قاطعتها قائلة: «هل كان لا بدَّ من قتلها؟».

* «لا، ولكن لا يجوز للفتاة أن تفرَّ مع شخص غريب».

- «ولكنها أحبَّتْ أبو».

* «مور لم تكن متزوِّجة عندما حملت بكِ».

كانت تلك ذكريات عائلتي. وما من ذكرى مُلكٌ لمرء بعينه فقط. كنتُ أحبُّ قصص مور وأبو عن الوقوع في الحب، أكثر من قصص العمَّة حول المعصية والخطيئة. اعتادت مور على القول: «مهما كان الجبل عالياً، سوف تجدين دائماً وسيلة للوصول إلى قمَّته».

أضافتْ العمَّة: «لم يفهم والدكِ عاداتنا وأسلوب حياتنا».

لطالما شعرتُ بالغضب عندما كانت تقول أيَّ شيء ضدَّ أبو. فأنا أحبُّه وكنتُ أرى بأنه كان يعرف كلَّ شيء، وأنه كان دائماً يجعلني أضحك مع مور.

قلتُ للعمَّة: «لن أكون مثلك وأضيِّع نهاري دون القيام بأيِّ شيء طوال اليوم. أريد أن أكون موسيقية».

مع كلِّ يوم كانت طفولتي تبدو أبعد وأبعد، كما لو أنني على متن قارب يجدُّ في الابتعاد عن الشاطئ. كما لم يعد والداي يزورانني في السرير. كنتُ تعبة من الحزن، وفي صباح يوم سبت وبينما كنتُ أعزف وحيدة في نادي "007" في فندق "بيتش لاكشري"، اقترب فتى مني وأجفلني بسؤاله: «هل تستطيعين عزف الجاز؟».

التمعت عيناه بلون الأوبال الأسود، وبدتا دافئتين ومبتهجتين ومهتمَّتين. في ذلك الوقت من النهار، كان النادي يخلو دائماً من أيِّ زوار، باستثناء نادل يغطُّ في النوم على أريكة. لم أتكلَّم ولكنني عزفتُ نسخة صبيانية من أغنية "أوراق الخريف"، وعندما أدركتُ بأنه ينصتُ إلى عزفي ويعتزم البقاء، عزفتُ له أغنية "مدينة كينساس" التي كنتُ قد أعددت توزيعاً جيداً لها. نظرتُ إلى الساعة، وخمَّنت أنَّ العمَّة ما تزال مع عشيقها. سحب الفتى كرسياً من تلك المكدَّسة بجانب الحائط وجلس بجرأة قرب البيانو، وقال: «أحب الطريقة التي تعزفين بها. ماذا كانت تلك الأغنية الأخيرة؟».

كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أكون فيها مع رجل آخر غير أبو أو العم. كنت أتحدَّث وصديقاتي في المدرسة مع الصبية في الفرقة الموسيقية من مدرسة "سانت باتريك"، وكنا نلتقي بهم أحياناً في مانهاتن صودا، ولكنَّ هذا الموقف كان مختلفاً، وأحببتُ هذا الشعور.

أجبته: «عزف ليتل ويلي ليتلفيلد تلك الأغنية. وعلَّمني إياها والدي».

سألني: «ما اسمكِ؟». وأجبته.

قال لي: «اسمي كمال جمال. أنا لم أركِ هنا من قبل قط».

* «إذاً فأنتَ لم تأت إلى هنا في أيام السبت صباحاً، فأنا دائماً أتمرَّن هنا في ذلك الوقت. عمِّي هو المدير الليلي في الفندق. هل تعرف الأمريكي أحمد جمال؟ إنه واحد من عازفي البيانو المفضَّلين لديَّ».

- «لا، لا أعرفه ولكن سأبحث عن أسطواناته. هل عمُّك موجود هنا الآن؟».

ارتبكتُ من أسلوب حديثه الذي شعرتُ من خلاله بأنه يقصد إغاظتي، وأجبت على سؤاله بجدية: «لا، قلت لكَ بأنه المدير الليلي. لماذا أنتَ هنا؟».

- «أنا أدرس في الجامعة، وسيُقام مؤتمر هنا. أنا المسؤول عن تولِّي الترتيبات. عزفكِ جيِّد جدَّاً. هل تعرفين أية أغنية من أغنيات العروض؟».

لم أكن أعرف معنى أغنيات العروض، ولكنني اعتقدتُ بأنها ربَّما تعني شيئاً مأخوذاً من الأفلام ولذلك فقد عزفتُ له أغنية "مع مرور الوقت" من فيلم "كازابلانكا" وتمنَّيتُ أن أكون محقَّة في استنتاجي. شعرتُ كما لو أن أصابع قدميَّ منغمسة في تيار نهر جارف، ولا أعرف حتى الآن إن كنتُ سأقفز أو أكتفي بالجلوس على الضفة. عندما انتهيتُ، تولَّد تواطئ خفيٌّ بيني وبينه، وقمنا تلقائياً بتمثيل مشهد عزف تلك المقطوعة في الفيلم، حيث قال لي: «اعزفها مرَّة أخرى، يا سام. كُرمى للأيَّام الخوالي».

* «أنا لا أعرف ماذا تقصدين يا آنسة ليزا».

ثمَّ أمال كرسيّه إلى الوراء قليلاً وقال: «لماذا أتيتَ إلى هنا يا سام؟».

* «جئتُ للاستمتاع بالمياه».

- «ولكنّ هذا المكان جاف وجبلي».

* «إذاً لا بدَّ من أنَّ معلوماتي خاطئة».

ضحكنا سوية، ثمَّ نظرتُ إلى الساعة، فقد شعرتُ بالحرارة تزداد في الغرفة وظننتُ بأنَّ الوقت لا بدَّ قد شارف على الظهيرة. قلتُ له: «يجب أن أذهب».

* «اسمحي لي بأن أعزف لكِ أيضاً. وعليَّ أن أحذركِ فأنا أعزف بشكل سيِّئ للغاية ولا أعرف سوى أغنية واحدة فقط».

كان عزفه سيِّئاً فعلاً، ولكنني كنتُ قادرة على التعرُّف على اللحن المأخوذ من فيلم هندي شهير. رقصتُ قليلاً على أنغام عزفه، حيث كنتُ أحرِّك كتفيَّ ببطء في البداية، على الطريقة التي تعلَّمتها مع الفتيات في المدرسة. كنتُ أحرِّك رأسي وشفاهي مزمومة، ويدايَ موجهتان نحو الأذنين، بينما أحرِّك وركيَّ بدلع. جعل عزفه الصاخب الصالة تبدو وكأنها تضمُّ حفلة راقصة. نادراً ما كان هناك أحدٌ عندما كنتُ أتمرَّن، ولكنني رأيتُ بعض موظفي المطبخ وهم يسترقون نظرات خاطفة من وراء الباب ويبتسمون، أما أنا فقد توقَّفتُ عن الرقص. مدركة أنَّ العمَّة ستصل قريباً إلى هنا.

قال كمال: «مهسا، أنتِ ترقصين بمهارة أيضاً».

فكرت فيه طوال الأسبوع، وخصوصاً عندما أكون وحدي في السرير. وتحوَّل التفكير فيه إلى هوس جديد، أصبحتُ فجأة في حاجة ماسة إليه، أمرٌ لم أعتده من قبل. تخيَّلتُ أنني جالسة في عربة الترولي في طريقي إلى المدرسة، وبأنه كان يجلس قبالتي في الممرِّ ويتحدَّث معي، كما تخيَّلتُ أنه ظهر عند نافذة غرفة نومي وأعطاني قصيدة أو رسالة حب. وعندما عاود الفتى الحقيقي القدوم إلى فندق "بيتش لاكشري" في يوم السبت التالي

قبل صلاة الظهر، بدا أطول قليلاً وكتفاه أعرض وعيناه أكثر جمالاً ممَّا كنتُ أتذكَّر.

عرفتُ بأنه كان هناك بمجرَّد دخوله إلى الصالة، ولكن تابعتُ العزف كما لو أنني لم ألاحظه أبداً. كانت الكراسي والطاولات مكدَّسة قبالة الجدران، والأرض نظيفة بعد سهرة ليلة الجمعة. دون توقُّف، بدأت بعزف أغنية "كل الأشياء التي تجسِّدها أنت"، قمتُ بإعادة توزيعها بطريقة أعجبتني وأردت أن يسمعها. نظرتُ إليه وحاولت أن أبدو مندهشة لرؤيته هناك، التقتْ عينانا، وكنتُ قد تأنَّقتُ من أجله وطليتُ أظافري باللون الوردي الذي لم ينل إعجاب العم، وصبغت شفتي بأحمر الشفاه. عندما انتهيتُ، اقترب مني وقال: «كان ذلك جميلاً».

* «كيف كان مؤتمركَ؟».

- «ما زلت منهمكاً في إعداد ترتيباته. وسيترتب عليَّ أن آتي إلى هنا كثيراً».

رفعت يديَّ عن مفاتيح البيانو والتفتُّ إليه، لم أكن أعرف ماذا عليَّ أن أقول. سألني: «لماذا تعزفين بمفردكِ في صباح كل سبت؟».

* «لا نملك بيانو في المنزل. فأتمرَّن هنا».

- «من هما والداكِ؟».

* «لقد تُوفيّا. اسم والدي جون ويفر، عمل مدرساً في الجامعة، ليس في جامعتكَ نفسها وإنما في جامعة "نيد"».

ما زال نطق اسم والدي يحزُّ في قلبي. راقبتُ كمال لأرى إن كان قد سمع عمَّا حدث، ولكنَّ عينيه لم تكشفا عن شيء. سألني: «كم عمركِ؟».

* «ست عشرة سنة. وقريباً سأنهي امتحاناتي. كم عمركَ؟».

- «تسع عشرة سنة».

فكَّرتُ في أنه لا يبدو فعلاً أكبر من ذلك.

وقال: «أنا أدرسُ اللغة الإنكليزية. وأريد أن أصبح مدرِّساً. أراد والدي أن أكون مهندساً ولكنني أريد أن أنشئ المدارس في جميع أنحاء البلاد».

* «إذا كنت تحبُّ الأدب كثيراً، فهل تعرف شعر عائشة؟».

سرد لي مقطعاً من شعرها قائلاً: «لماذا عليَّ أن أطيع الكلاب بينما لا أقيم وزناً للأسود؟».

شعرتُ بأنَّ هناك شيئاً من الغرور في إجابته، فسألته: «هل تعرف من كتب "أنا لبؤة ولن أكون أبداً امرأة لأي رجل"؟».

هزّ رأسه، وهو لا يزال يبتسم، وقال لي بصوت لطيف: «قولي لي أنتِ».

لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة بأن تباهي الرجل يعني بأنه معجبٌ بكِ. وكنتُ أيضاً أتباهى بدوري، وتلوتُ شعراً هندياً يقول: "لا أعيشُ لحظة سلام بدونك، ولا أية لحظة سلام بدونك حبيبي، قلبي يفتقدك، ولا سلام بدونك يا حبيبي".

لم أكن قد فكَّرتُ في ما تعنيه الكلمات إلى أن نطقتها بالفعل، وعندما انتهيتُ، شعرتُ بإحراج كبير فقلتُ: «علَّمتني والدتي هذا الشعر عندما كنتُ لا أزال صغيرة، وأعتقد بأنه شعر صوفي، ومع ذلك فوالداي لم يكونا متديِّنَين».

كان كمال يبتسم بطريقة مغيظة، كما لو أنه يدلِّل ويُساير أخته الصغيرة. وقد جعلني ذلك منزعجة حقاً، لكنه قال: «كانت والدتك امرأة حكيمة جدّاً لكي تعلِّم ابنتها الجميلة مثل هذا الشعر».

ثمَّ رأيتُ العمَّة ونهضتُ بسرعة، وقلتُ: «عليَّ أن أذهب». ركضتُ إلى المكتب الأمامي لألاقيها وسألتني: «من كان ذلك؟». فأجبتها: لا أحد».

كاثرين

اعتاد تي أن يقول لي: «حبيبتي، سأكون دائماً في آخر مكان تبحثين فيه... أشعر معكِ بأنني ألمس ما هو مقدَّس». كنتُ أشعر بعمق ما كان يحدث بيننا. فعندما لا يبقى هناك أي ضوء، وكل ما يلفُّنا هو الموسيقى، لم نكن نجد الراحة إلا في أحضان بعضنا البعض، قبل أن يطوي الليل سواده. كان قد عزف مع فرق الإيقاع والبلوز، وعازفي الساكسفون الذين يعزفون ويبالغون في عزفهم بطريقة مشوَّهة. كان تي يحبُّ أن يعزف مقطوعة هوكينز "الجسد والروح"، وكنتُ أعشق الاستماع إليه، والنظر إلى انحناء ظهره، وكيف يقف كرجل لا مثيل له. كانت الليالي التي نحتسي فيها قهوة الهندباء، ونزور البارات التي تقدِّم الجعة الرخيصة تلائمنا تماماً، وكنا نتحدَّث عن العزف وعن أنفسنا ولا نرى أيَّ خطر في أيِّ مكان.

في بعض الأحيان، كان ينتابنا في أثناء عزفنا الشعور نفسه الذي نشعر به عند ممارسة الجنس، ويسألني بعد أن يتحقَّق من أننا اختبرنا نفس الشعور: «هل لمستِ ذاك الشيء المقدَّس؟».

* «أجل، وأنتَ؟».

أريتُ تي كتيِّب هانون للموسيقى، بدأ هو بالتمرُّن على الأصوات التتابعية على طول مفتاح الأوكتاف، وهو أمر لم يكن قد فكَّر فيه مطلقاً،

وظلَّ لوقت لابأس به يعزف مراراً وتكراراً مقطوعة هانون رقم 46، وهو تمرين على ارتعاشات النغمات. استمعنا إلى عازفة الساكسفون في "ريد" وهي تعزف "نداء الطائر" و"روح السيدة"، وبالطبع كنَّا نستمع دوماً إلى كولترين الذي كان قد بدأ بالتجريب مع الأصوات الهندية. عندما تكون شابّاً فأنت ترغب في الاستمرار والتقدُّم في حياتك دون التوقُّف مطوَّلاً عند التفاصيل. فقد كنتُ أشعر بأن تي لم يكن في سلام مع نفسه ولكنني لم أعره بالاً. قال إنَّ وجود امرأة قد غيَّر الفرقة، وإنه لا يحبُّ أصوات النساء ولذلك فهو سعيد لأنني لا أغنِّي. وفي إحدى الليالي، وبينما كنَّا نعزف على المسرح، أعطاني، على سبيل المزاح، زوجاً من القفَّازات الوردية المكشكشة التي تظهر الأصابع من نهايتها. تجاهلتُ الموضوع لأنَّ معظم الرجال كانوا يتصرَّفون على ذلك النحو مع النساء في تلك الأيَّام، وكانت النساء تتجاوزن هذا النوع من الدعابات التي لم تكن مضحكة أبداً. رغبتُ في العزف. ولم أكن لأتزعزع أو أتردّد حيال ما كنتُ أفعله، وخفتُ في الوقت نفسه من ألا أتمكَّن من العزف بالمستوى الذي أريده.

كنا نستوعب قصص بعضنا البعض رويداً رويداً. حدَّثته عن والدي الصيني. وأخبرني بأن والده قُتل شابّاً. كان يريد أن يعرف لماذا سمحت لي والدتي بالانخراط في هذا النوع من الحياة، وقلتُ له: «لأنها لم تستطع أن توقفني. نحن أشبه بشركاء سكن الآن»، وهو ما لم يكن صحيحاً، ولكنني كنتُ سعيدة بأن أفكر في أننا كذلك حقاً.

سألته: «أين بقيَّة عائلتكَ؟ وماذا حدث لوالدكَ؟».

* «يقولون إنه رُبط على سكَّة حديدية».

لم أكن أعرف كيف يمكن لي أن أستوعب ما كان يقوله لي. سألته: «لماذا؟».

* «هذا ما قاموا به حبيبتي».

- «ولكن ماذا حدث؟».

* «غادرتُ المنزل بعد تلك الحادثة».

لم أكن أعرف كيف أسأله عن السبب، فقد كان يقول ذلك كما لو أنني يجب أن أعرف بنفسي. قلتُ له: «أين كانت والدتكَ؟».

* «عندما قُتل أبي تداعى كلُّ شيء. قاموا بإبعادنا نحن الأطفال عنها. وقالوا إنها لا تستطيع أن تعتني بنا بعد الآن».

وعلى الرغم من أننا كنا نرقد عاريين معاً في السرير، وهو أقرب ما يمكن لنا أن نكون، كانت هناك أشياء لم نكن قادرين على تفسيرها أو فهمها أو التحدُّث عنها.

كنت أعرف نغمة الصوت التي تردعني عن توجيه المزيد من الأسئلة، ومع ذلك سألته: «ولكن ماذا حدث لوالدتكَ؟».

* «حبيبتي، لقد انهارت تماماً عندما أبعدونا عنها. ولذلك فقد وضعوها في مصحٍّ عقلي».

ألَّفتُ بعض التوزيعات الجديدة لعدد من الأغنيات وأعطيتها إلى مو الذي قام بدوره بتجريبها. رفض تي عزف ما قمتُ بتأليفه، ولكنني تجاهلتُ ذلك أيضاً. لم أحاول التفكير في استفزازاته ولم أكن أنوي أن أعطِّل مسيرتي المهنيَّة بسبب آراء أيِّ شخص عني، حتَّى آرائه هو.

كنتُ أؤمن بنفسي، ولديَّ ثقة عالية بالنفس لدرجة أنني أعرف أنني سأموت إذا لم أفعل ما كان من المفترض بي أن أفعله. تجاهلتُ مزاجيَّة تي عندما كنتُ أحصل على عرض عمل بدونه. وكنتُ أعرفُ كيف أقترب منه وأحاول تهدئته، قائلة: «كان عزفكَ رائعاً في الليلة الماضية». وأضعه

في مركز الاهتمام مجدداً، وأجعله يرغب في ممارسة الحبِّ معي، وهو الأمر الذي كان يفعله دائماً. كان ذلك هو الشيء المفضَّل لدينا. فقد كان جسدانا في حالة اشتهاء دائم لبعضهما البعض. وكنتُ أعرف كيف أُبقي على صراعاتي الداخلية طيَّ الكتمان وهي تحترق بعيداً في الزاوية. فعندما تكون شابّاً فأنت تفعل كلَّ شيء على نحو سلس وببساطة.

بالطبع فقد حملتُ، وفكَّرتُ في أنه ربَّما من الأفضل أن نتزوَّج أنا وتي، وقد أردتُ ذلك على أيِّ حال. كان ذلك في عام 1960، ولم أنوِ التخلِّي عن طفلي ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عن الإجهاض. في تلك الأيَّام، بدا أنَّ جميع الفتيات قد أصبحن حوامل وكنَّ يُخفين الأمر؛ فقد اعتدن على السفر عبر البلاد لولادة أطفالهنَّ، والتخلِّي عنهم والعودة إلى بيوتهنَّ مرَّة أخرى وكأنَّ شيئاً لم يحدث. كانت المجلات تصفنا بأننا منبوذات وخارجات عن القانون الأخلاقي. وفي المحصِّلة فقد كانت والدتي محقَّة. فقبل أن أصبح حاملاً كنتُ الفتاة المراهقة، وعازفة البيانو الجيِّدة والطالبة المجتهدة. ولكن بعد أن حملتُ، أصبحتُ بنظر المجتمع امرأة تجلب العار، امرأة غير متزوِّجة. أمَّا تي، فلم يُوجَّه إليه أحدٌ أصابع الاتهام لأنه غير متزوِّج.

في إحدى الليالي، بعد أن أنهينا تقديم عرضنا في بار ألكسندرا. قلتُ له: «أنا حامل. وأعتقد بأننا يجب أن نتزوَّج».

كان يقوم بفكِّ أجزاء ساكسفونه. توقَّفت أصابعه للحظة، حمل ساكسفونه في يده اليمنى واندسست أنا تحت ذراعه اليسرى ويده تلفُّ كتفي، وهو المكان الذي كنتُ أحبُّ دوماً أن أكون فيه. قلتُ له: «كنتُ أفكِّر في الموضوع. وهو ليس نهاية العالم».

* «ولكن ليس لدينا أي مكان نعيش فيه».

- «حسناً، أعتقد بأنه من الأفضل لنا أن نبدأ بمعالجة هذه المسألة».

جذبني أقرب إليه وقبَّلني، كان الساكسفون يضغط على جسدي. ثمَّ قاطعنا مو قائلاً: «عصفورَيْ الحُبِّ، هل ستأتيان معنا؟».

أفسح تي المجال لذراعه لكي تنزلق وأخذ يدي بيده، وهو ما يزال يحمل الساكسفون في يده الأخرى. نظر عميقاً إلى عينيَّ وكأنه كان يبحث عن شيء أضاعه في سيل نهر جارف، وسألني: «هل أنتِ متأكِّدة؟».

أجبتُه: «أنا متأكِّدة».

ثمَّ قال تي: «مهلاً يا مو، نريدك أن تكون أوَّل من يعرف. كاتي وأنا سوف نتزوَّج».

هزَّ مو رأسه وقال: «كان عليَّ أن أتوقَّع ذلك وألا أسمح بدخول فتاة إلى الفرقة».

ولكنني كنت أعرف بأنه كان معجباً بي، وخصوصاً أسلوبي في العزف، وبأنه كان يمزح. أجبته قائلة: «لا تقلق، سوف أستمرُّ في العزف».

لم نفكِّر مليّاً في أيِّ شيء. وعندما أعود بذاكرتي إلى تلك الأيَّام، أذكر أنني كنتُ أحبُّه بطريقة لا تُصدَّق. لم يكن لديَّ أيُّ مال، ولم يقدِّم أحدٌ لي المساعدة في عالم كان يعادي ويحتقر ما كنتُ أفعله. ولكن ذلك كان يعني أيضاً بأنني لم أكن في حاجة إلى موافقة من أحد. كنت أريد كلَّ شيء من الحياة، وكانت ولادة الطفل جزءاً منها. لم أتخيَّل أبداً احتمال ألا أنجب ذلك الطفل. ولكنني لم أكن لأقبل الزواج بأيِّ أحد آخر سوى تي، كما كنتُ لا أمانع الأفكار الجديدة، والزواج المختلط، وتزاوج الأعراق، وما هو غير شرعي وأبناء الزنا. أحياناً كنتُ أشعر بأنني أستيقظ لأعيش في حلم مزعج، وليس بالعكس. كانت هناك أماكن لم يكن في إمكاني الذهاب إليها بصحبة تي. كما بدأتُ أولي اهتماماً للأخبار لأنها كانت تهمُّني. في إحدى المرَّات، شاهدتُ أنا ووالدتي على شاشة التلفاز تقريراً عن أربعة

طلاب من السود في جرينسبورو بولاية نورث كارولينا، كانوا قد تجرَّؤوا على طلب القهوة والدونات من مقهى مخصَّص للبيض فقط في ولوورث. اعتصموا هناك طوال اليوم ولم يتزحزحوا. وفي اليوم التالي جاء المزيد من الطلاب. وانتشرت الاعتصامات إلى مدن أخرى، كان أولئك الشبَّان الأربعة الشعلة التي انتشرت في العشب الجاف. كنّا نشاهد النساء وهنَّ يرتدين تنانير ديرندل الواسعة وبلوزات بيضاء، ووجوههنَّ عابسة تنضح بالكراهية بينما يصرخن خارج المحلات اعتراضاً على تواجد أولئك الطلاب. قالت لي أمّي: «انظري إلى هذا يا كاتي. هذا ما ينتظر طفلك».

بدتْ ولاية كارولينا الشمالية بعيدة جدَّاً وغريبة عني، وكلُّ ما كنتُ أفكِّر فيه هو نفسي وممارسة الحب والعزف مع الفرقة. قال أحد الشبَّان الذين أجبرتهم الشرطة على النهوض عن المقعد وضربته بالهراوات: «أتمنَّى لو كان في وسعكم أن تعرفوا ما يعنيه أن تكون أرواحكم نظيفة»، وكنتُ أشعر بأنني نظيفة جدَّاً في تلك اللحظة.

هل كان تي يشعر بأنَّ لديه روحاً نظيفة؟ كان جيراننا في ماونتين برو، ذوي الحياة الرتيبة، يهزُّون رؤوسهم عندما كانوا يتحدَّثون عن الاحتجاجات جنوب الحدود، ويقولون: «الأمور مختلفة هنا». ولكن والدتي كانت تقول: «إنَّ الأمور ليست مختلفة جدَّاً». لم أكن أريد أبداً أن أكون مثل والدتي، ولكنني أصبحتُ كقطار ينطلق على نفس المسار، ولكنني لم أكن أريد إخفاء نفسي بعيداً في قبو مثلما فعلت هي.

قالت لي والدتي: «حسناً، على الأقل ليس لدينا مدارس منفصلة خاصَّة بالأطفال البيض هنا».

* «ولكن لو كانت هذه هي الحالة، فإلى أية مدرسة سأذهب؟».

- «أوه، كنتِ ستذهبين إلى المدرسة التي تحبِّين. كنتُ سأفعل كلَّ

ما في وسعي لتأمين ذلك. فطوال حياتكِ لم أسمح أبداً لأيِّ شخص بأن يمنعك من القيام بأيِّ شيء تريدينه».

أُقيم حفل زفافنا في الساعة الخامسة من بعد الظهر في قاعة المدينة. كانت فرقتنا محجوزة للعزف في دايموند جيم في وقت لاحق من ذلك اليوم. ارتديتُ فستان الكوكتيل الأسود وقبّعتي ذات الشبك التي اشتريتها سابقاً من متجر "سالي آن". كنتُ أقف أمام قاضي الصلح، عندما فكَّرتُ في أنه ربما كان عليَّ أن أخبر والدتي، ولكنني لم أرد أن أسمع أيّاً من آرائها. كنت أقوم بما أردتُ القيام به بالضبط، وبالطريقة التي أرغب، وكنت أشعر بأنني محقّة في قراري ومتحمِّسة جدّاً لما أقوم به. تزوَّجنا، وعزفنا كما لم نعزف من قبل في ذلك العرض. وذهبنا بعد العرض إلى مطعم "وايت غريل" في الساعة الثانية صباحاً لتناول العجّة والبطاطا المقليّة والكاتشب. جلب مو معه زجاجات من الشمبانيا وقدَّمها المدير في أكواب القهوة. كانت وليمة زفافي مثالية وفي غاية الكمال بالنسبة إليَّ.

كان اسمه الحقيقي ثيودور لينكولن جونز، أفضل عازف سوبرانو في منطقة جنوب أونتاريو - شمال ولاية نيويورك. في أول صباح لنا كعروسين، سألته ونحن نرقد على السرير في الموتيل: «متى غادرت منزل عائلتكَ؟».

* «حبيبتي، لقد هربتُ من العائلة التي تبنَّتني عندما كان عمري خمس عشرة سنة، ولم أعد إليهم مجدَّداً أبداً».

- «إلى أين ذهبتَ؟».

* «هنا وهناك».

- «ولكن أين عشتَ؟».

* «عند بعض الأصدقاء».

- «ولم يحاول أحد البحث عنكَ؟».

جلس تي وأشعل سيجارة، وقال: «تم اعتقالي بتهمة السرقة. وضعوني في سجن الأحداث لبضع سنوات».

فكَّرتُ بيني نفسي: «يا إلهي، أنا متزوِّجة من هذا الرجل الآن».

كان هناك نبرة فيها شيء من المرارة في صوته وهو يقول: «التقيتُ هناك بشاب يحبُّ الجاز سألني: من علَّمك أن تكره نفسكَ؟».

اقترب ووضع ذراعه تحت كتفي، وقال: «ليس من العار أن تكون مجرماً لمرَّة واحدة في حياتك. بل أن تستمرَّ في كونك مجرماً هو العار بحدِّ ذاته. مالكوم إكس هو من قال ذلك. وكان هو شخصياً والعزف على الساكسفون الشيئين الوحيدين اللذين أنقذاني. بعد خروجي من سجن الأحداث عملتُ نادلاً، ومن ثمَّ بدأت بأداء بعض العروض التي كانت تدرُّ عليَّ المال. بالنسبة إليَّ، كان الذهاب إلى السجن بمثابة تعليم لي».

سألته: «من أين حصلتَ على ساكسفونك الأوَّل؟».

* «كان هذا ما سرقته».

أطفأ سيجارته وتقابلنا وجهاً لوجه وانسللنا في السرير مرة أخرى.

كان ينبض في داخله نصل من الغضب، حيٌّ كما هو عشب الربيع، مصقول ومخبَّأ. كانت هناك مشاعر مقيَّدة، مثل المطواة، تنتظر أن تنطلق فجأة. عيناه زرقاوان داكنتان ولامعتان، ويداه كبيرتان وساقاه صلبتان كأنهما من الحديد، أوه، كم كنتُ أحبُّ أن أنظر إليه وهو يقف مع ساكسفونه. ذراعاه مفتوحتان لي في الغرفة رقم 9 من موتيل في كوتيس بارادايز، ومسار حياتي يتحدَّد. تي وأنا. سأنجب طفلنا ولم أكن أنوي أن يكون طفلاً وحيداً كما كنتُ أنا. أردتُ طفلاً آخر، وبسرعة، حتى يتسنَّى لهما رعاية بعضهما البعض. ولم يكن لديَّ أدنى فكرة...

مهسا

كان من السهل الحفاظ على موضوع كمال سرّاً عن العم. كنتُ ألتقي به في أماكنَ مختلفةٍ على طول طريق عربة الترولي، كنا نمشي على الشواطئ، ونذهب إلى "زيلين كافي هاوس"، وسينما "بارادايز". كانت هناك حرب مع الهند. ووقف إطلاق النار. وصراع ينشأ في باكستان الشرقية.

كنتُ أدرس جاهدة من أجل امتحاناتي. وكان كمال يمتلك جهاز تشغيل كاسيت صغير يعمل على البطارية، كنا نأخذه إلى الشاطئ للاستماع إلى الموسيقى. من المفترض أن ينهي كمال دراسته في الجامعة في الوقت نفسه الذي سأنهي فيه الدراسة في "سانت جوزيف". أخبرني بأنه قد يستمر في الدراسة في الجامعة ويدرِّس فيها أيضاً، وبأنه يريد أن ينشئ المدارس لكلِّ الأطفال في باكستان. أخبرته بأنني أريد الدراسة في الجامعة أيضاً ولا يمكن له أن يكون أستاذي، قال وهو يضحك على كلامي: «سوف تكونين دائماً أستاذتي». وفي الحقيقة فقد سرَّني كلامه جدّاً. كنتُ أفكِّر في أنَّ تواجدي مع شابٍّ لن يعجب العمَّ أبداً، فقد كنتُ ظاهرياً تلميذة يتيمة مطيعة، ولكن مع كمال كنتُ أصبح شخصاً آخر- فتاة ذات آراء، ولديَّ ذوقي الخاصُّ في الموسيقى والقراءة. كان كمال يستمع إليَّ تقريباً كما اعتاد أبو أن يستمع. كانت لديه أفكار حول الزواج الذي لم أكن أريده، ولكن لم يشكِّل ذلك مصدر قلق بالنسبة إلينا. كنَّا نتشارك في كلِّ

شيء، وبهذه الطريقة، وعلى مدى ثلاث سنوات، كنَّا نكبر رويداً رويداً، وبحماس، جنباً إلى جنب.

ذات يوم، دعاني كمال إلى بيت صديق له، والذي لم يكن في البيت. قام بإعداد بعض الشاي وجلسنا على الطاولة متظاهرين بأننا ننتظر ذلك الصديق. ثمَّ قال لي كمال إنَّ صديقه لن يأتي. مدَّ يده إليَّ ولمس يدي. انتظرتُ منه أن يقودني إلى حيث كنت أرغب أن أكون، وقلتُ له في ذلك اليوم: «أجل، الآن».

قال بحنان: «يبدو الأمر غريباً بعض الشيء، وكأنني أقبِّل صديقةً لي».

* «أنا صديقتك بالفعل».

بحثت شفاهنا عن بعضها البعض بطريقة مختلفة. كنا صغاراً وأقوياء، نعطي ونأخذ بسخاء، كنا نقف ونستلقي ونستوعب كلَّ ما يمكن للحياة أن تقدِّمه لنا. بعد تلك المرَّة الأولى، بحثنا دوماً عن منزل فارغ لأحد الأصدقاء، وكنتُ أحياناً أصل إلى النشوة بمجرَّد لمسه لي. كنت خائفة من الحمل، وأعتقد بأنه طمأنني وقال لي إنه ما من داعٍ للقلق.

عندما نفترق، يبقى ضغط لمسته على بشرتي. كان حبُّه متطلباً، نهماً، لا يُقاوَم. وكان معقَّداً وبسيطاً في آن. مع كمال، كنتُ أجرِّب كلَّ شيء، وتعلمَّنا كلَّ شيء من بعضنا البعض. كان جسدي غير متردِّد، ولكن، كما هي الحال دائماً، فللرجال فرص مختلفة عن الفتيات. انضمَّ إلى الاتحاد الوطني للطلاب ووصف لي النضال من أجل الديمقراطية. كنتُ أسمع أنا والعمة في المنزل عن الإطاحة بأيُّوب خان بسبب جماعات طلابيَّة تضمُّ أمثال كمال. أردتُ أن أكون جزءاً من هذا العالم الخارجي أيضاً، ولكنني كنت أشعر بأنني صغيرة ولا أعرف كيف يمكنني التلاؤم مع ذلك الجزء من حياته.

قلتُ له: «لا بدَّ من أن الطالبات في مجموعتك مثيرات للاهتمام».

* «أجل هنّ كذلك». ثمَّ أضاف: «ولكنني أحبُّكِ».

كان يريد حمايتي، وربَّما كان خائفاً من عمِّي. ولكنني لم أكن أريد أن أكون تحت الحماية. أردتُ القيام بكلِّ ما لم أختبره بعد، وكنت أخشى من مدى حبِّي له ومن فقداني لنفسي تماماً. وبهذه الطريقة بدأت السهولة والسلاسة التي تميَّزت بها سنواتنا الأولى بالانهيار.

في أحد الأيَّام، مشينا في الدرب الوعر إلى الضريح المتداعي لمزار "شاه غازي". خلعنا أحذيتنا وغطَّيتُ شعري بوشاحي ومررنا بجانب المسؤول عن المكان. قدَّم لنا رجل نحيل صغير الحجم موجود بالقرب من القبر بعض الورود لنضعها على الضريح. بعد الوقوف قليلاً بجانب القبر الرخامي، مررنا على مبنى ثانٍ أصغر، ومن النوافذ الغربية كان يمكننا مشاهدة البحر ورؤية الموجات العاتية والمضطربة التي تأتي مع الرياح الموسمية. وبتداخله مع أصوات النوارس، سمعنا نداء المؤذِّن للصلاة- الله أكبر، الله أكبر- وهو يُهدي إلى الوقت لينبِّه الإنسان ويترك الملهيات. استمعتُ طوال حياتي إلى هذه الأصوات التي تندمج مع صوت البحر، ولكنني أصبحتُ أشعر بما هو إلهي حتى في تفاصيل الأمور الاعتيادية، ذلك لأنني أصغي إليها الآن مع الرجل الذي أحبُّ. على الشاطئ تحتنا، كان هناك متصوِّفون وأتقياء يرتاحون بصحبة بعضهم البعض بالقرب من مجموعة صغيرة من السيَّاح الأوروبيين القادمين من هوكس باي، وكانت موجات العاصفة القادمة رمادية وسوداء على الرمال الفضِّية.

في ذلك السبت، عاد العمُّ إلى الفندق في وقت مبكِّر من لعبة الهوكي، ورأى كمال يمشي معي إلى بهو الفندق.

عند عودته إلى المنزل، صاح العمُّ على العمة: «أي كنتِ؟ فأنت لا

تراقبينها جيِّداً بما فيه الكفاية!». ثمَّ قالي لي: «لا يمكن لهذا الصبيِّ أن يكون قريباً منكِ. فهو ليس مناسباً لكِ. ولا تصرِّي على الموضوع».

كانت العمَّة منزعجة. فهي أيضاً في حاجة إلى الاستمتاع بيوم السبت. قالتْ لي: «كوني أكثر حذراً. العمُّ لديه تصوُّرات أخرى عن حياتكِ المستقبلية فيما يخصُّ الأسرة والأعمال التجارية. وهو لن يوافق على اختياركِ. وفي الحقيقة فهو يخطِّط منذ الآن لكي تتابعي دراستكِ في الخارج».

لم أكن أريد السفر إلى الخارج. أردتُ أن أذهب إلى الجامعة هنا وأن أعيش في السكن الجامعي. رغبتُ في الاستمرار في الدراسة ولقاء كمال ولم أكن أفكِّر أبعد من ذلك على الإطلاق. لم أكن أتخيَّل نفسي كامرأة متزوِّجة ومحبوسة بين الجدران. فالنساء اللواتي يتزوَّجن كُنَّ يُقتلن على يد أُسَرهنّ.

التقيتُ كمال في عربة الترولي في اليوم التالي بعد المدرسة وركبنا إلى نهاية الخط وعدنا مرَّتين. جُنَّ جنونه عندما أخبرته بما حصل، وقال لي: «علينا أن نغادر. لن يوافق عمُّك أبداً على أن نكون معاً. أرجوكِ، مهسا. أنا أعرف كيف تجري هذه الأمور».

أردتُ أن أصلح الأمور. وشعرتُ بأنه يمكننا أن نحمي حبَّنا من العالم.

قال كمال: «لا يمكنني أن أخفي شعوري نحوكِ. الحبُّ مثل الشمس التي تخترق الغيوم».

مرَّت من أمامنا واحدة من حافلات الهيبيز التي كانتْ تقلُّ أجانبَ غربيين في جولة سياحيَّة حول المدينة. كانت الحافلة مغطَّاة بقلوب حمراء وصفراء وكلمات باللغة الإنكليزية تقول: "استمتع بالحبّ". كنتُ أشاهد الفتيات الغربيات مع أخلائهن، دون آباء أو أقارب، وهنَّ يرتدين الجينز

ويرخين شعورهنَّ ويرتدين عصبات حول جباههنَّ وصنادل، وأكتافهن عارية. كنَّ يعشن بحرِّية مطلقة.

إلى أين سنذهب؟ وماذا عن الجامعة؟ كان أبو يقول دائماً إنَّ عليَّ أن أدرس. كنت أعتقد بأنه يمكنني أن أفعل ما أريد إذا لم يرني أحد. اعتقدتُ بأنه يمكنني أن أحبَّ كمال دون أن يعرف أحد بذلك. كنتُ أؤمن بالحياة الخفيَّة للنساء.

والآن بعد أن أصبحتُ متعلِّقة به، فقد كان الخطر كبيراً بالنسبة إليَّ. انتشرت عربات الترولي حولنا على طول المسارات وشاهدتُ جملاً يحمل أثاثاً ثقيلاً، ولم أخبر كمال بأنَّ الأمور كانت أسوأ بكثير ممَّا كان يتصوَّر، وبأنَّ رؤية العم لنا كانت موضوعاً صغيراً، وبأنني كنتُ حاملاً وقد قرَّرتُ تدبُّر الأمر بمفردي.

كاثرين

كانت فرقتنا تعزف في الفنادق الصغيرة، والصالات، والنوادي على طول الطريق السريع من بحيرة إري إلى تورونتو. قبل هذه الحياة الجديدة لم أكن قد أقمتُ قط في غرف الموتيلات أو تناولتُ وجبات الطعام في الخارج، كما لم أكن بعيدة عن والدتي أو عشتُ مع أناس يفكِّرون في الموسيقى والجنس فقط. كنا نعزف في "يونج ستريت"، "جورج جاز روم"، "كولونيال"، "بيني فارثين"، "يوركفيل"، "الموكامبو"، و"بوربون ستريت جاز كلوب". حيث نعزف ستَّ ليال في الأسبوع. أما مو، فكان قائد فرقة محترف. وفي الليالي التي كنّا ننهي فيها عملنا مبكِّراً كنا نذهب لرؤية الموسيقيين الآخرين، حيث استمعتُ إلى أوسكار بيترسون وصديقي القديم روني الذي كان يملك مكاناً صغيراً فوق "كوك ديه أور"، كانوا يطلقون عليه اسم "هوكس نست". استمتعتُ بإشعال حماس الجمهور وتعلَّمتُ كيفية جعل الجمهور يندمج معي. كان مو يقول لي: «أنت تتقنين ما تفعلين يا كاتي الصغيرة». أحياناً، كان تي يقترب مني على المسرح وكنا نتحاور بآلاتنا ونعزف بإغواء أحياناً وبشيء من المزاح في أحيان أخرى. كنّا أنا وتي جذَّابين معاً، الساكسفون والبيانو، نتفاعل مع بعضنا البعض، وكلَّما تقدَّمتُ في الحمل، كانت الأمور تصبح أكثر إثارة

على خشبة المسرح. كنتُ فتاة استثنائية. ففي ذلك الوقت، كنتم بالكاد ترون امرأة حامل تسير في الشارع، فما بالكم بامرأة تعزف في النوادي!

في إحدى الليالي، قامت الإذاعة الوطنية بتسجيل عزفنا مباشراً من نادي "جورج جاز روم"، حيث كانت الإذاعة تسجِّل لفرقة "نيمونز إن ناين". أخبر خبيرُ الصوت مو بأن في إمكانه تسجيل عزف فرقتنا، وقام بتدوين أسمائنا. عندما استمعتُ لاحقاً إلى العرض قال المذيع: «إنَّ الفنانة كاثرين غودناو هي جديدة على الساحة ويبدو أنها تعزف عن شخصين، فهي بالتأكيد حامل. إنها عازفة ممتازة ولا بدَّ للجمهور من أن يستمتع بعزفها. إنها فنانة أصيلة».

كنتُ أتساءل ما إذا كانت والدتي قد سمعت ذلك، وكنت أتمنَّى بألا تكون قد فعلت، لأنه لن يعجبها ذلك التهكُّم حول كوني حاملاً.

بعد العروض، كنت أعود دائماً إلى المكان الذي نقيم فيه، وعندما يأتي تي في وقت لاحق كنا نمارس الحب، بطريقة أكثر هدوءاً. في مطلع فجر أحد الأيام قلتُ له: «تي، أعتقد بأننا في حاجة إلى القيام ببعض التغييرات لجعل الأمور أكثر إثارة بيننا». ولكنه قبَّلني وبدأ الأمر من جديد. وعندما حوَّلت الشمس المشرقة ستائر الموتيل الرخيصة إلى لون وردي قذر قال لي: «ما من تغيير ضروري، حبيبتي، فأنتِ مثالية».

كانت المكالمات الهاتفية مكلفة جدَّاً، لذلك اعتدتُ أنا ووالدتي على إرسال البطاقات البريدية، فكانت ترسل رسائلها إلى النوادي التي أعزف فيها. مرَّةً، أرسلتْ إليَّ بعد عيد الميلاد بطاقة مفاجئة. فقد كانت تحمل صورة لساعة من الزهور في شلالات نياجرا وكتبتْ على الخلفية: خمِّني من لديه موعد غرامي في ليلة رأس السنة الجديدة؟ اشتريتُ زوجاً من الأحذية الخفيفة ذا لون فضِّي. سنة جديدة سعيدة!

كتبتُ لها على ظهر إحدى البطاقات التي تحمل صورة شرطي كندي: من الذي سيصحبك في موعد غرامي؟

جاء ردُّها على بطاقة تحمل صورة سنجاب في الغابة: لن تتذكَّريه. إنه رجل يدعى شون. كنتُ أعرفه في المدرسة الثانوية.

بالطبع أتذكَّره. كان هو الرجل الوحيد الذي قال لي إنها امرأة عظيمة. كنتُ أراه في فندق "رويال كونوت". ومن ثمَّ تخلَّصت منه ولم تعد تذكر اسمه مرَّة أخرى. ويبدو لي أنه قد عاد.

بعد احتفالات رأس السنة الجديدة، والتي عزفنا وقتها لدى جورج جاز روم، كتبتُ لها على بطاقة تحمل صورة "رويال يورك"، أطول مبنى في تورونتو: كيف جرت الأمور؟ سنة جديدة سعيدة لكِ أيضاً!

ردّتْ لي على ظهر صورة لمصانع ستيلكو للصلب: ليس نوعي المفضَّل من الرجال. متى سترجعين إلى المنزل لولادة الطفل؟

كان يراودني شيء من القلق بأن يحدث لي مثلما حدث مع والدتي. فقد ورد إلى مسامعي بأنه يمكن لجمعية مساعدة الأطفال طرح أسئلة حول ما إذا كانت المرأة تدخِّن أو تشرب الكحول أو تذهب إلى السينما. افترضتُ أنَّ العزف في الأندية مع فرقة من الرجال السود قد لا يكون من الأمور التي ستحبِّذها الجمعية. كنتُ متزوِّجة ولكنني كنتُ أرى بأنه من الأفضل لي أن أبقى بعيدة عن الأضواء، لأنه في تلك الأيَّام لم يكن يُسمح للنساء الحوامل بأن تعملن كمعلِّمات أو العمل في أيِّ مكان. وفي الحقيقة، فلم أكن أعرف ما يُسمح لنا القيام به، ولم أكن أعرف كيفية معرفة ذلك، ولم أكن أريد أن يُقال عني إنني غير ملائمة للاحتفاظ بطفلي.

كان عدد الطلاب الذين يُلقى القبض عليهم في ازدياد بسبب الاعتصامات والتسلُّل إلى المسارح المفصولة عنصرياً. وفي تلك الفترة

قال مارتن لوثر كينغ إنَّ الأمر قد يستلزم بقاء المزيد من الطلاب في السجن إلى أن يستيقظ الضمير النائم للأمَّة. في هاملتون، كانت الأمور مختلفة، لكنَّ والدتي قالت بنبرة مريرة: «كلُّ ما عليكِ هو خدش السطح، وسوف ترين ما هو مخبّأ تحته ومنتشر في كلِّ مكان». كان محبُّو موسيقى الجاز يعزفون الموسيقى ويقرأون الشعر الذي يصف أمريكا على أنها إمبراطورية، وبؤرة الجحيم، ومكان الحرِّية والسجن. كنتُ مبهورة بالسلوك اللاعنفي للطلاب وخطبهم حول دعم أيِّ صديق ومعارضة أيِّ عدو، وإطلاق سراح المظلومين ودفع الثمن وتحمُّل الأعباء. كانت تلك الأحداث تروق لي ولكنَّ تي لم يكن مهتمَّاً جدَّاً. قال: «لا أعرف يا كاتي. أنا أحمل اسماً إسلامياً حتى أتمكَّن من السفر بوصفي رجلاً أبيض». ولم أفهم تماماً ما كان يعني بقوله ذلك.

أراني بطاقة الملاهي الليلية الأمريكية التي تحمل اسمه الآخر، طالب سلام، فقد اعتنق الإسلام، مثل رودي باول وإدريس سليمان. وكان هناك الكثير من موسيقيي الجاز الذين يفعلون الشيء نفسه ويعتنقون الإسلام في تلك الأيَّام، حيث ينصُّ القانون على أنه في حال كان السود مسلمين فإنهم لا يُعتبرون زنوجاً، ويمكنهم الذهاب إلى المطاعم وشراء السندويشات والقهوة.

قلتُ له: «لم أكن أعرف ذلك. وأنت لم ترني هذه البطاقة من قبل. ماذا يعني اسمك، تالب[1] سلام؟».

ضحك تي وقال: «هناك الكثير من الأشياء التي لا تعرفينها يا حبيبتي. حرف تي مأخوذ من اسم تالب وسلام هي كلمة عربية. وبصراحة، عندما رأيتُ رجال أكثر سواداً من داخل مدخنة، ولديهم بطاقات تحمل كلمة

1- طالب. (م).

أبيض لمجرَّد اعتناقهم الإسلام، فقد تشجَّعت وفعلت ذلك أيضاً، لكي لا أكون زنجياً بعد اليوم».

* «أين قمتَ بذلك؟».

- «في السجن. كان الشباب هناك يتحدَّثون عن الله، وكلٍّ تلك الأمور. كاتي، أنتِ تتحدَّثين عن اللاعنف ولكنك لا تعرفين كلَّ المسائل الأخرى».

كان وجودي مع تي وسيرنا معاً يداً بيد يثير ضجَّة صامتة داخل الناس الذين يمرُّون بنا في الشارع، كان ذلك يزعج تي، ولكنني شعرتُ دوماً بأنني على حق. يمكن للناس النظر إليَّ بأية طريقة يريدون، فأنا وأمِّي معتادتان على كوننا مختلفتين. أحياناً، كان يفلتُ يدي إذا اعتقد بأنَّ شخصاً ما كان يحدِّق فينا، ولكنني أسارع إلى إمساكها مجدَّداً. وأقول له: «نحن أفضل منهم».

* «حبيبتي، كنتُ في أمكنة يعلِّقون مجسَّمات للزنوج من أبراج الكنائس بمثابة تحذير. وفي آخر مرَّة عزفت فيها في ساوث، لم يكن المدير ليسمح لي بالدخول، وقال لي: هذه صالة للبيض. وقلتُ له: ولكنَّ اسمي مكتوب على اللافتة في الخارج، أنا العازف الرئيس. أخيراً، طلب مني الدخول من الباب الخلفي، بدأتُ العزف، ولكن الحمَّى أصابتني وأنا على خشبة المسرح، وخرجت لأتقيَّأ. عُدتُ لاحقاً لأنهي العزف وغادرت. لم أنتظر لأقبض أجري، فلم يكن في إمكاني النظر مرَّة أخرى إلى وجوه أولئك الذي يرقصون على إيقاع موسيقاي».

- «أولئك الذين تتحدَّث عنهم هم أناس مثلي!».

* «حبيبتي، أنتِ لا تغمدين سكِّيناً في ظهر رجل على سبيل المتعة».

- «وماذا عن طفلنا؟».

* «حسناً، كان ذلك خطأكِ. فأنتِ من حمَّسني!».

ضحكنا على الموضوع. في ذلك المجتمع، كان في وسعنا أن نكون مثيرين على خشبة المسرح قدر ما نشاء، ولكن من غير المسموح أن تسير امرأة بيضاء ورجل أسود يداً بيد في الشارع. ولذاك كنتُ أنا وتي نفضِّل الليل. وفي نوادي هاملتون، كان الزنوج والموهوك والصينيون والبيض يختلطون مع بعضهم البعض.

سألته: «متى سأقابل والدتكَ؟».

* «لن يحدث ذلك حبيبتي، لا يمكننا الذهاب إلى فيرجينيا سويةً، وأمِّي لا تحبُّ أن تسافر».

كان هناك ألم متجذِّر في أعماق تي لا يحبُّ أن يتطرَّق إليه، ولذلك فلم أحاول أنا أيضاً التحدُّث بالأمر. لم أكن أدرك بأنه يمكن للأمور أن تثور فجأة من تحت الركام وتنقضَّ عليكَ مثل قطٍّ عصبي. كنتُ فقط أستمرُّ في عيش حياتي اليومية.

مهسا

كانت عاملة التنظيف في فندق "بيتش لاكشري" تعمل أيضاً في مستشفى "العائلة المقدَّسة" في شارع الآغا خان الثالث حيث كان هناك جناح توليد جيِّد. قامت بسرقة منظار طبِّي وموسِّعات ومجرفة من أجل القيام بالأعمال الصغيرة التي كانت تديرها مع صديقتها القابلة. أخبرتني عنها عاملة غسل الصحون. ذهبتُ وحدي لزيارتها، وكنتُ خائفة من أن أطرق الباب الذي لم يكن يحمل أيَّ اسم في المجمَّع السكني. ولكنَّ خوفاً أكبر كان يمدُّني بالشجاعة. عندما فُتح الباب قلتُ: «سمعتُ بأنك تساعدين الفتيات الحوامل». ابتعدت عاملة التنظيف عن الباب لتسمح لي بالدخول. كنت أرتدي الزيَّ المدرسي. وسألتني المرأتان أسئلة مثل: كم مضى على معرفتي بموضوع الحمل، وكم عمري. أريتهما النقود التي كنتُ أحملها والتي لم تكن كافية. قلتُ لهما: «سوف أجلب المزيد من النقود». وقالت القابلة: «يجب ألا تنتظري طويلاً. ارجعي إلينا في غضون أربعة أيام». لم ترضَ عاملة الكنس أن تصرِّح لي عن اسمها، ودعتْ القابلة باسم ربيعة.

سألتها: «هل أنتِ متأكِّدة من أنكما ستنجحان في مساعدتي؟».

أجابتني: «أنا متأكِّدة».

قلتُ للفتيات في المدرسة إنني أجمع الأموال لصالح جمعية الآغا خان الخيرية لمساعدة الأطفال. وتدبَّرتُ بهذه الطريقة دفع تكاليف إجهاضي. في اليوم الثالث من جمعي للتبرُّعات، استدعتني إحدى الأخوات إلى مكتبها. كنت أخشى من أنها ستأخذ النقود مني ولذلك خبَّأتها في ملابسي الداخلية. ولكنها قدَّمتْ لي فنجاناً من الشاي، وعبَّرت لي عن مدى فخر المدرسة بكوني أخذت زمام المبادرة للعمل لصالح جمعية خيرية على الرغم من أنني أعاني الأمرَّين على الصعيد الشخصي بعد مقتل والديَّ. كما هنَّأتني على أدائي الجيِّد في الامتحانات.

دخل المنظار رويداً رويداً، وكانت عاملة التنظيف تحمل ضوءاً لربيعة التي كانت تغطِّي شعرها كاملاً، وبدت خطوط وجهها حادَّة وقاسية. أدخلتْ الموسِّعات وفتحتْ ساقيَّ إلى أقصى حد. أعطتني عاملة التنظيف خرقة قماش لأعضَّها وهمست في أذني: «اخرسي. ولا تسبِّبي لنا المشاكل».

كانت تلك بداية سلسلة من الصمت القسري. كنتُ أعضُّ على الخرقة التي كان مذاقها بطعم القطن والصابون. وأضغط على يد عاملة التنظيف، وعندما لم أعد قادرةِ على الاحتمال أكثر من ذلك، قالتْ ربيعة أخيراً: «انتهينا». رفعتُ رأسي لأرى، لكنَّ عاملة التنظيف قالت لي: «أوه! لا، لا تنظري. بعض الفتيات يغمى عليهنَّ. استلقي».

ولكنني رأيت وعاء الدم، واللحم، والفوضى اللامتناهية.

قالت ربيعة مرَّة أخرى: «انتهينا»، وقامت بإزالة الموسِّعات وسحب النصال والمنظار مني، وملأت ما بين ساقيَّ بقماش قديم قائلة: «لقد أبليتِ بلاء حسناً. الآن. سوف تبقين هنا لمدَّة ساعتين. هل ترين أصابعي؟ ضعي أصابعك على هذا الشكل وقومي بالتدليك هنا، فوق رحمكِ. سوف يساعده هذا على التقلُّص، وسوف يوقف النزيف والتشنُّجات».

لم يسبق لي أن سمعت امرأة وهي تسمي هذه المسمَّيات. والآن بعد أن أبعدت يديها عني لم يعد وجهها المجعَّد يبدو قاسياً كما كنت أراه، وكانت عيناها لطيفتين. أخبرتني عاملة التنظيف بضرورة عودتي إلى المنزل في سيَّارة أجرة وبأنها ستطلب واحدة تعرف سائقها، وقالت لي إنه كان ينبغي أن أحضر شخصاً ما لمساعدتي.

استنتجتُ بأن الألم الذي تشعر به الفتاة بين ساقيها هو ألمها وحدها. ولذلك فلم أقل شيئاً لكمال حول الإجهاض، لأنني كنتُ غاضبة من حقيقة أنني عانيت وهو لم يشعر بشيء. فكَّرتُ، لماذا كان هو يفلت من قبضة الهموم والقلق، بينما كان عليَّ أن أقلق في كلِّ شهر. والآن فقد عاكستنا الأمور، وعليَّ أن أتحمَّل كلَّ هذه المخاطر والمتاعب وحدي. فكَّرتُ في أنني أريد أن أحبَّه لا أن أتزوَّج به. لماذا كنتُ أفكِّر بتلك الطريقة؟ كنتُ أرغب في الدراسة وفي أن أكون حرَّة. عشتُ في هذا الخليط من الأفكار المتشابكة والضبابية. كنتُ غير مرئية في المنزل، مجرَّد فتاة كان والداها مصدر خزي بنظر المجتمع. الشارع من حولي كان يضجُّ بالمزيد من المظاهرات والشائعات التي تدور حول قيام حرب في ولاية البنغال، وفي خضمِّ هذه الظروف أصبح العمُّ عصبياً. بعد مرور أسبوعين على إجهاضي، استدعاني إلى غرفة الجلوس. في كل مرةٍ أراد العمُّ والعمَّة التحدُّث معي معاً، في الغرفة نفسها، كان الموضوع دوماً غير سارٍّ أبداً بالنسبة إليَّ. قال العمُّ إنَّ الأمور غير مستقرَّة في أفغانستان، وإنه قد سمع مؤخَّراً أخباراً جديدة عن العائلة هناك.

أضافت العمَّة أنَّ العمَّ يريد مني المغادرة إلى خارج البلاد، إلى كندا تحديداً، وأنهما كانا يشعران بالقلق عليَّ.

كانا كتومين، ونظَّما الأشياء بدقَّة. لم يُفصحا لي عن كثير من التفاصيل،

وكأنني فقط تميمة يُحتفظ بها أو يتم تداولها لجلب الحظ. أدركتُ بأن مقر القنصلية الكندية يقع في الفندق، وبأنه من السهل على العمِّ أن يفعل كلَّ شيء دون أن يخبرني.

قلتُ لهما: «أنا لا أرغب في الدراسة في كندا. أريد أن أدرس هنا. لماذا لم تخبراني؟».

قالتْ لي العمَّة إنها قد ذهبتُ لزيارة الأخت ديفان التي قدَّمت يد العون في تقديم طلب سفري إلى الخارج، وأضافت: «مهسا، كنت أعرف أمَّكِ وأباك، كانا يُحبَّانكِ ويريدان منكِ أن تكوني متعلِّمة. لا تنسي هذه الحقيقة بغضِّ النظر عمَّا يحدث لاحقاً».

قلتُ لهما: «لا أفهم لماذا يكون رأي الجميع أكثر أهمِّية من رأيي أنا؟».

قالت العمَّة: «لم نكن نريد أن نخبركِ ونزعجكِ". وقال العمُّ: "سوف تفعلين كما نقول. لقد رتَّبنا كلَّ شيء».

قلت لهما: «لن أذهب. أريد البقاء هنا».

بدأتُ في البكاء، عندها وقف العمُّ واقترب مني، رفع ذقني بيده بفظاظة ممَّا جعلني أتوقَّفت فوراً عن البكاء. وقال: «أنتِ ناكرة للجميل. معظم الفتيات سيعتبرن أنفسهنَّ محظوظات حين تُتاح لهنَّ فرصة الدراسة في الخارج، اذهبي الآن واستعدِّي».

ضغط بإصبعه السميك بقوَّة على المنطقة الطرية من أسفل الفك، بالقرب من حلقي، حتى شعرتُ بأنه سيقطع أنفاسي.

عندما غادر الغرفة قلتُ للعمَّة: «لا أريد أن أسافر».

في كلِّ مرَّة كان العمُّ يجبرني فيها على فعل أيِّ شيء، كانت عيناها تبقيان دون أية تعابير إلى أن يصبح خارج الغرفة. عندها فقط تحاول

مواساتي وتهدئتي. كنتُ أشعر بأنها راضية نوعاً ما عن حقيقة أني أشاركها أيضاً في المعاناة من ر ـشبته. كان من الأسهل بالنسبة إليها أن أختبر نفس المعاناة والظلم. وكنتُ أشعر أيضاً بأنها تراقبني ببعض الغيرة عندما أذهب إلى المدرسة وتحاول في بعض الأحيان أن تقرأ بعضاً من كتبي.

سألتها: «ماذا سمعتِ من إخوة مور؟».

* «إنهم رجال غيورون. وهم يعرفون أنكِ في سنِّ الزواج، وأنَّ العمَّ يمتلك المال».

أصبحتُ أعرف كيف أنَّ الانقسامات والخصومات هي أمر طبيعي ومستمرٌّ في عائلتنا. غالباً ما تحدَّثت العمَّة عنهم في أثناء تصفُّحها لمجلات الموضة. لم تكن تنظر في وجهي، وكأنَّ هذا كان يجعل إفصاحها عن القصص أقلَّ خطورة. أخبرتني عن أيَّام الملكة ثريا التي خلعت حجابها. وكانت تقلِّب صفحة أخرى وتقول: «في بعض الأحيان يظهر التغيير على السطح فقط».

استهجنت قولها، وقلتُ: «ولكنَّ مور لم ترتدِ الحجاب يوماً».

- «مهسا، لقد اتَّخذ العمُّ قراره منذ مدَّة طويلة».

وتابعت بصوت رقيق: «هذه فرصتكِ. لم تُتح لي في حياتي الفرصة لأقوم بما أنتِ على وشك القيام به. لقد ساعدت الراهبات في الحصول على منحة دراسية لكِ، وهذا هو سبب موافقة العم، كما أنه يعتقد الآن بأنه قد تكون هناك فرصة هناك في مجال الأعمال التجارية. عليكِ بالسفر. فستكون الحياة حرَّة هناك».

* «ولكن لماذا لم تخبريني؟».

- «لم يسمح لي العمُّ بقول أيِّ شيء».

لم يكن لدي أيُّ خيار آخر. كرهتُ العمَّة لضعفها، ولكنها أعطتني فكرة عن كوني حرَّة في مكان بعيد.

عندما أخبرتُ كمال عن الموضوع، نهض بعنف، أوقع كرسيه في "زيلينز"، ونظر الجميع إلينا. ألقى بعض الروبيات على الطاولة وقال لي: «هيَّا نخرج!».

* «أريدُ أن أنهي شرب فنجان الشاي».

سوَّى كرسيه وجلس مرَّة أخرى، وهو يشعر بالخجل قليلاً، بعد أن خفَّ احمرار وجهه، انحنى على الطاولة الصغيرة نحوي وقال: «قولي لعمِّك: لا. قولي له: لا».

كنتُ دائماً أحبُّ لقاء كمال في أيِّ مكان يقترحه، وأعشق مشاركته الكتب التي يقرأها والاستماع إلى موسيقاه، ولكنني كنتُ أشعر بأنني أقلُّ حرِّيَّةً منه. هناك جزء غير مألوف في داخلي يعترف ضمنياً بأنني أريد السفر، وبأنني لا أريد أن أعيش مع العمِّ لفترة أطول. أردتُ الانخراطَ في العالم وخوضَ غمار الحياة أيضاً، ولم أتصوَّر أبداً أنني أستطيع القيام بذلك وحدي. فكَّرتُ في أنني ربَّما مثل أبو. فقد عبَر هو المحيط في الاتجاه المعاكس. هل سأبدو هناك غريبة كما يبدو الأجانب هنا في حافلات الهبيين؟ لكنَّ والدي كان أميركياً.

كانت لدى العمَّة صورة واحدة لجامعة "ماكجيل" موضوعة ضمن كتيِّب، تأمَّلتُ المباني والمداخل الحجرية، والمنطقة العشبية الكبيرة أمام المباني الرئيسة. كما أرتني العمَّة أيضاً كتيِّباً عن المدينة، وكنا ننظر سويةً إلى صور مصلَّى "سانت جوزيف" وكاتدرائية "ماري رين دو موند" بالقرب من محطة القطار، حيث منحوتات لرجال دين في الأعلى، وجبل في وسط المدينة ذو صليب ضخم مضاء ليلاً، وأناس بأسنان بيضاء يرتدون قبَّعات

الفراء وقفّازات وأحذية التزلُّج على الجليد. قلتُ للعمَّة: «ألا يبدو الجميع سعداء في مونتريال؟».

* «ربَّما هم كذلك».

- «هل يوجد هناك أشخاص من كراتشي؟».

* «لا أعرف. أخبرتني صديقتي بأنَّ شخصاً ما كان يحاول بناء مسجد هناك».

- «ربَّما سأكون مسيحية هناك».

* «لا تتحدَّثي بأيٍّ من هذا أمام العم».

- «كان والدي مسيحياً وأنا أحمل اسميهما. لن أحمل اسم نجيب الله هناك، بل سوف أحمل اسم ويفر. كانت مور تقول دائماً إنني سأحتاج كلا الاسمين في يوم من الأيَّام».

* «تحمل أوراقكِ التي أرسلها العمُّ اسم نجيب الله».

في اليوم السابق لمغادرتي، تدبَّر كمال مكاناً للقائنا في منزل أحد الأصدقاء. كانت تلك المرَّة الأولى التي نمارس فيها الحب بعد الإجهاض، كنّا متمهِّلين وصامتين ورقيقين. في ذلك اليوم كانت عيناه تقولان لي: «لا تذهبي، لا يمكن لهذا أن يكون صحيحاً». عندما انتهينا أخيراً، كان حزيناً بدل أن يكون غاضباً وقال: «لن نعيش مثل هذا الحبِّ مرَّة أخرى أبداً».

لم أجد الكلمات لمواساته، فقد كنتُ سأسافر ولم يكن لشيء أن يغيِّر هذه الحقيقة، مارسنا الحب مرَّة أخرى ومن خلال جسدي استطعتُ أن أقول له الشيء الصحيح: إنني أحبُّه. لم أكن أعرف كيف أقول الأفكار المعقَّدة التي كانت تراودني، إنني لم أكن أعرف من أنا، وإنه لديَّ الفرصة الآن لاكتشاف ذلك، إنني أريد القيام بذلك أيضاً. وكنتُ أفكِّر فيما إذا كان

سيستمرُّ في حبِّه لي أو ينتظرني. هذه كلُّها كلمات بسيطة، عبارات قصيرة، ولكن لم أكن أعرف كيف أقولها له.

في تلك اللحظة الجميلة عندما كنتُ لا أزال مع حبيبي، وأستمع إلى موسيقاي، محاطة بكتبي، ومدينتي؛ كنتُ مستعدة بالفعل لاختبار أمور مثيرة ومجهولة. اكتشفتُ بأنني لم أكن أعارض هذه المغامرة التي فُرضت عليَّ. كان جسدي يحاول أن يقول كل شيء له؛ إنني أحبُّه، وخائفة من أن أتركه. كنتُ أفكِّر في كلِّ الأمور التي أحاول أن أتحرَّر منها؛ العم في كراتشي، أخوالي الأفغان. القلق بشأن الحمل، أبو ومور الميتَين.

قال كمال: «سوف أحبُّكِ دائماً وأبداً».

اعتدنا على تعرية بعضنا البعض، ومن ثمَّ، بعد أن ننتهي من ممارسة الحب، كنا نرتدي ملابسنا بسرعة لنغادر ونعود إلى شوارع كراتشي. في ذلك اليوم أطلنا المكوث، لم أكن أريد أن أغادر ولم أرد النهوض من السرير. قال لي: «هيا، سوف يعود صديقي في أية لحظة، وسيكون عمُّك في الانتظار».

بدأ يُلبسني وأنا في السرير، وهو يضحك، وضع سروالي الداخلي أولاً، ثمَّ تنورتي.

قلتُ له: «إنه دوري». وجدتُ ملابسه الداخلية وبنطاله وساعدتُه على ارتدائهما.

ألبسني صدارتي وبلوزتي وزرَّر كلَّ زرٍّ ببطء، وهو يقبِّل كلَّ جزء من جسدي قبل أن يغطِّيه، كما قبَّل معصميَّ وساعديَّ والمكان المحبَّب على كوعي. مشَّط بعد ذلك شعري، وداعب أذنيَّ بشفتيه. عندما انتهى وضعتُ جانباً قميصه لأحتفظ به على سبيل التذكار، ألبستُه قميصه ببطء وزرَّرتُ أزراره من أعلى إلى أسفل، كنتُ أقبِّل رقبته نزولاً باتجاه سُرَّته،

كان مُثاراً ومارسنا الحبَّ مرَّة أخرى دون أن نخلع قمصاننا هذه المرَّة، بسرعة، مثل شربة ماء، ووصلنا إلى النشوة بسرعة. ارتدينا ملابسنا، دون قبلات، وضمَّني إليه. كنتُ أشعر بدفء جسده عبر ملابسه. قال لي: «أنتِ الآن بكامل ثيابكِ، وجاهزة لتفترقي عني. هذا خطأ. كان عليَّ أن أحتجزكِ عارية في غرفة نائية. مهسا، لا تنسيني».

ما لم نكن قادرين على التكهُّن به في البداية، علينا تحمُّله لاحقاً. في تلك الليلة، تأمَّلتُ من إطلالة نافذتي جمال أزهار القمر المزروعة أمام المنزل. استلقيتُ بعد ذلك على السرير، وغفوتُ، جسدي مشبعٌ بحضور كمال، وفكري مضطرب بأفكار الطيران وحدي لأوَّل مرَّة، ووصولي إلى مكان بعيد وعدم معرفتي بالمكان الذي سأنام فيه أو كيفية تدبُّر أموري هناك، أو كيف سأتصرَّف في كندا، حيث تُستخدم اللغتان الإنكليزية والفرنسية، مع أشخاص لا يعرفونني. استيقظتُ من حالة نصف النوم هذه وجلستُ في السرير، فكَّرت مذعورة في أنني نسيتُ أن أقول وداعاً لأبو.

ومن ثمَّ استيقظتُ تماماً وتذكَّرتُ أنه قد مات.

كاثرين

عندما أصبحت في أشهر متقدِّمة من الحمل، كنتُ أجلس إلى البيانو قبل إنارة أضواء المسرح وأنتظر في الظلام. وبذلك كان الناس بالكاد يلاحظون حملي. كنتُ أعزف وآكل وأنام مثل دبٍّ في حالة سبات. أحببتُ التنقُّل على الطرقات. ودائماً ما كنتُ أرغب في القيام بجولة لا تنتهي أبداً. ولكن قبل أسبوعين من موعد ولادة الطفل، اتصلتْ والدتي وقالتْ: «أين عقلكِ وبماذا تفكِّرين؟». جعلتني أقلق وبدأتُ أفكِّر في أنه من الأفضل لي أن أبدأ بتنظيم الأمور. أخبرتُ مو بأنه عليَّ أن آخذ إجازة من الفرقة. وبأنني سأعود إلى هاملتون للحصول على شقة وألد الطفل.

أخرج من جيبه لفَّة من النقود وأعطاني القليل منها، وقال: «كنتُ أعتقدُ بأنك ستلدينه على خشبة المسرح!».

سألته: «هل كنتَ أنت من اتصل بوالدتي؟».

- «لمَ قد أفعلُ ذلك؟».

من خلال العزف على البيانو، كنتُ أكسب نقوداً في الليلة أكثر من تلك التي تكسبها والدتي في يومين من العمل في مسح الطاولات. كانت غاضبة مني. وهي ترى بأنني ناكرة للجميل، فبعد أن أمَّنتْ لي مكاناً للعيش وأبقتني في المدرسة إلى أن تخرَّجت، وقدَّمت لي أكثر ممَّا قدَّمه

أيُّ شخص آخر لها خلال حياتها، فإنني الآن، وبعد الحصول على كلِّ هذه الميزات، أرميها وراء ظهري. كانت ترى بأنني قد تهتُ وحملتُ من زنجي، والأسوأ من ذلك بأنني كنتُ أتفاخر مثل ديك في قنٍّ للدجاج.

قالتْ لي: «يجب أن تغيِّري من تعابير وجهك المتكبِّرة. كنتُ مثلك أيضاً فيما مضى».

* «أمِّي، لقد عثرتُ على شقَّة بالقرب من فندق "رويال كونوت". تعالي لرؤيتها بعد العمل».

- «ألم تختاري اسماً للطفل بعد؟».

* «أجل، دكستر».

كنتُ أعرف ما يكفي لكي لا أسايرها. كنتُ أربكها. فهي تنظر إلى حياتي بغيرة غاضبة، وتريد أيضاً أن تكون فخورة بي، وأن تنسب بعضاً من فضل ذلك إليها. وأنا أتفهَّم كلَّ ما تمرُّ به، وخاصَّة حقيقة أنَّ والدها قد تسبَّب في اعتقالها.

- «من أين استوحيتِ اسم دكستر؟».

* «إنه مجرّد اسم نحبُّه».

- «إنه اسم زنجي، أليس كذلك؟».

* «لن أخوض معكِ في هذا النقاش».

- «لن أدعو حفيدي باسم دكستر».

* «هيَّا يا أمِّي، دعينا لا نقف كثيراً عند هذه التفاصيل».

كانت عيناها كالمرايا المحدَّبة وكان انعكاسي عليهما يبدو صغيراً جدَّاً. سألتها: «كيف اخترتِ لي اسمي؟».

أطفأتْ سيجارتها، وأشعلتْ واحدة أخرى. بدأتُ بتقليب صفحات

مجلة لايديز هوم جورنال بحثاً عن عمودي المفضَّل الذي يحمل عنوان: "هل يمكن إنقاذ هذا الزواج؟ دورها، دوره، دور المستشار".

ثمَّ سعلتْ وقالتْ: «لم أكن أنا من أعطاكِ اسم كاثرين. كتبتْ والدتي اسمكِ على شهادة ميلادك في المستشفى».

وضعتُ المجلَّة من يدي والتقطتُ مكعَّب سُكَّر وبدأت أتلذَّذ به.

تابعتْ قائلة: «ظنُّوا بأنه من الأفضل ألا تحملي اسماً أجنبياً، لذلك فقد سمُّوك دون الرجوع إليَّ. كنتُ أريد أن أسميكِ مينغ. كان هنري معجباً بذلك الاسم. وهو يعني "الثمينة". بحثتُ عن معناه في كتاب في المكتبة. بعد خروجي من إصلاحية بلمونت واسترجاعكِ مرَّة أخرى، كان كاتي الاسم الوحيد الذي تعرفينه. كنتِ تبكين طوال الوقت طلباً لأمِّك البديلة. وتجلسين على الأرض وظهركِ لي دون أن تلتفي إليَّ عندما أناديكِ باسم مينغ. ولذلك استسلمتُ، ولم يكن عليَّ أن أستسلم. كان يجب أن أصرَّ على مناداتكِ مينغ. فهو اسم جميل».

أحسست بجرح صغير في قلبي. ولكنني لم أكن لأسمح لآلامها بأن تكون آلامي. لم أكن أبداً لأترك الناس يفرضون عليَّ آراءهم بهذا الشكل. كنت سأقوم بما هو أفضل ممَّا فعلته هي. سأحافظ على طفلي، وأحميه. أما هي فلم تستطع حتى أن تسمِّيني الاسم الذي أحبَّه والدي.

هزَّت قدمها بعصبية، وقالت لي بحدَّة: «يجب عليكِ إعادة النظر في الاسم. يبدو اسم دكستر وكأنه علامة تجارية لأجهزة المطبخ. سوف أسمِّيه سامي».

كان من الواضح بأنها تريد فرض سيطرتها على كلِّ ما يتعلَّق بالطفل. وكنتُ أريد من تي أن يأخذ ذلك الدور. كما كنتُ متوتِّرة ومختبئة عن أعين الأخصَّائيين الاجتماعيين لأنني كنت أخشى من احتمال إبعاد الطفل عني.

لم يكن دكستر في عجلة من أمره. فقد ركبتُ الحافلة إلى هندرسون بعد نزول السائل الأمينوسي وقمتُ بإجراءات الدخول إلى المستشفى، استمرَّ مخاضي أربع عشرة ساعة. طلبتْ مني ممرِّضة أن أتوقَّف عن الصراخ وأعطوني حقنة، وقيَّدوني إلى السرير. كانوا يطلقون على ذلك اسم الخدار. لم أكن أعرف ما كان يحدث لي. وعندما استيقظتُ كانت هناك علامات على معصميَّ نتيجة تقييدي.

كان رأس دكستر الصغير يحمل علامات من الملقط. أنا وطفلي وهبنا حياة جديدة لبعضنا البعض وقاسينا الأمرَّين حتى نحقِّق ذلك. عندما استيقظتُ، كان والدتي قد جاءت وذهبت مرَّة أخرى إلى العمل، ولكنَّ تي كان هناك، مبتسماً. وعلى الرغم من أنني لا أتذكَّر شيئاً، إلا أنني شعرتُ بأنني سعيدة ومترنِّحة ومرتاحة.

ساعدني على النهوض ومشينا لرؤية دكستر عبر النوافذ الزجاجية بين الأطفال الآخرين الراقدين في مهودهم. سمعتُ ممرِّضة خلفنا تقول: «إنه مزيج غريب». وأجابت صديقتها: «حسناً، من المؤكِّد أنَّ هذا الطفل سيُواجه الكثير من الصعوبات، فهو بالفعل ثمرة خليط مربك».

لا يمكن لأحد أن يتحدَّث بهذه الطريقة عن طفلي، التفتُّ إليهما ولكنَّ تي أمسكني بقوَّة، وقال بصوت منخفض: «دعكِ منهما حبيبتي، فنحن بعيدان عن تفاهتهنَّ المتعلِّقة بالألوان والأعراق».

كنتُ أحبُّه كثيراً.

فزعتُ قليلاً من آلام تدفُّق الحليب في صدري، وذُهلتُ من الراحة التي حصلتُ عليها عندما بدأ بالرضاعة، كنتُ سعيدة برؤية ذراعي تي وهما يلفَّانني ويحملانْ طفلنا، كما لو كنا دمىً متراصَّة. كانت المرَّة الأولى التي أُرضع فيها دكستر، محدِّقة في عينيه الفضوليَّتين، لا تُقدَّر بثمن.

عاد تي مرة أخرى للعزف مع الفرقة. كنتُ وحيدة، وأفتقد الفرقة، ولكنني كنتُ مفتونة بدكستر وبكلِّ ما مررتُ به، وقد خطَّطتُ أيَّامي لإبقاء الأمور مثيرة للاهتمام. كنتُ آخذه إلى فندق "رويال كونوت" كلَّ صباح لرؤية والدتي، ولنرى هارولد والموسيقيين الذين يعملون معه، وإلى الحديقة والمكتبة. في كثير من المرات كانت أمِّي تأتي لزيارتنا بعد العمل، وتقول: «هيَّا، اخرجي من البيت لبعض الوقت، قومي بالتسوُّق أو أيِّ شيء من هذا القبيل، فأنا أعرف ما تمرِّين به الآن».

كنتُ أشعر بطول الليالي عندما أجلس بجوار النافذة وأنظر إلى نصب الشهداء التذكاري أمامي، وأقول لنفْسي: «عليكِ الاستفادة من نقاط قوَّتكِ على أحسن وجه».

بدأتُ بتأليف ألحاني الخاصة. وعندما كان دكستر يبكي، كنت أستعجل كتابة بضع نوتات موسيقية، وأُهرع لتهدئته، ثمَّ أعود إلى الكتابة مرَّة أخرى. كانت عودة تي إلى المنزل مناسبة احتفالية دائماً، كنتُ أشدُّه إليَّ ورائحة السجائر والجعة تفوح منه. أحببتُ النوم إلى جانبه، والشعور بحميمية وجودي معه ومع دكستر. أحياناً، كان تي يمازحني ويعض ثدييَّ قليلاً وهو يرشف القليل من الحليب. كنت أقول له: «يمكنك ترك ذلك لطفلك»، وكان يجد لديَّ دائماً أشياء تثيره أكثر. كان هناك مزيج فوضوي من الأمومة والإثارة، وكنتُ أقول له: «أنا سعيدة وأشعر بأنه يتعيَّن عليَّ أن أدفع لك النقود مقابل تحمُّلك كل هذه الفوضى». ويجيب قائلاً: «إذا أعطيتني فلساً فسأردُّ لكِ الباقي».

كنتُ أقوم بكلِّ المهام في الوقت نفسه؛ أتذكَّر النوتة الموسيقية لألبوم "غابة النقود"، وأغيِّر حفاضات دكستر، وأخطِّط لعشائنا. كما كنتُ أحمله وأؤلِّف الموسيقى، وأنظر عميقاً في عينيه وأغنِّي بينما تقلِّد شفاهه حركات

شفاهي وأنا أستمرُّ في التفكير في النوتة التالية. اعتدتُ وتي القيام بأمورنا الحميمية بسرعة، وكنتُ أقول له: «دعنا نمارس الجنس مرَّة أخرى بسرعة حتى لا يبقى دكستر وحيداً»، وكان ردُّه، وهو الذي لم يهتم أبداً بطرق تحديد النسل: «ذلك ملائم لي تماماً». وفي أقلِّ من سنة، أصبح لديَّ صبيٌّ آخر أسميته كينغ جيمي. ومن ثمَّ، عندما بلغتُ الثانية والعشرين، أنجبت ابنتي بيا والتي كانت آخر العنقود.

قالت لي والدتي: «لا تنجبي المزيد من الأطفال يا كاتي. سأدلُّك على طبيبة أعرفها بالقرب من محطة القطار. وهي تبلغ من العمر أربعاً وثمانين سنة. سوف تعطيك حبوب منع الحمل».

كنت قد سمعتُ عن تلك الحبوب من قبل، ولكنني كنتُ أظن بأنها كانت غير قانونية، سألتها كيف عرفت بأمرها. وقالت: «ذهبتُ إليها أنا أيضاً».

* «لماذا؟».

- «خمِّني».

دفعني جوابها إلى الشرود في أفكار مشتَّتة.

كانت الدكتورة اليزابيث باكشو ذات شعر قصير أبيض ومجعَّد، وفم عريض مزموم وجدِّيٍّ معظم الوقت، وعندما كانت تفتح شفتيها لتبتسم، كان تظهر غمَّازات في خديها. تحدِّق بعينيها الواسعتين من تحت نظَّاراتها التي دون إطار، وتظهر تجعيدة عميقة بين حاجبيها عندما تستمع إلى أوجاعك. لاحظتُ أنها لم تكن شخصاً تافهاً على الإطلاق. سألتني: «كيف يمكنني مساعدتكِ اليوم؟».

* «لديّ ثلاثة أطفال ولا أريد أكثر من ذلك».

- «هذا يبدو منطقياً».

* «سمعتُ بأن تحديد النسل هو أمر غير قانوني».

ابتسمت وقالت: «يقول العَّامة إنَّ تنظيم الأسرة هو أمر يقوم به الزنادقة والشياطين. وأنا شيطان. وسأقدِّم لك وصفة طبِّية لحبوب منع الحمل. تناولي واحدة منها في اليوم ولا تنسي فعل ذلك أبداً. سنقول إنها لتنظيم دورتك الشهرية، وهذا سيجعلها قانونية. قومي بمراجعتي بعد سنة، أو إذا ظهرت لديكِ أية مشاكل جانبية. بالمناسبة، كيف تقضين وقتك؟».

* «أمسح وأنظِّف المنزل معظم الوقت، وأعزف موسيقى الجاز».

- «أين تعزفين؟».

* «من الصعب جدَّاً الخروج من المنزل بوجود ثلاثة أطفال».

- «حسناً، عليك إذاً العثور على جليسة أطفال والخروج للعزف».

* «لديَّ واحدة. وفي الحقيقة فأنا أعلِّم أطفالها العزف على البيانو لأنني لا أملك النقود لأدفع لها أجرها».

- «حسناً، سأنتظر سماع أخبار جميلة عن عملكِ. فأنا أحبُّ الموسيقى».

أخبرتُ تي بأنني أودُّ معاودة العزف مع الفرقة. لكنه أخبرني بأنهم قد تعاقدوا مع عازف بيانو جديد، وبأنَّ لديَّ ثلاثة أطفال لأهتمَّ بهم.

عندما عدتُ إلى زيارة الدكتورة باكشو في السنة التالية للحصول على مزيد من الحبوب، سألتني عن موضوع الموسيقى وفيما إذا حقَّقتُ ما أريد. أخبرتها عن تي والفرقة. وقالت: «حسناً، عندما ذهبتُ للتسجيل في كلِّية الطبِّ طلب مني الرجال هناك أن أقف في الصف المخصَّص للممرِّضات، ولكني لم أتزحزح. عليكِ بتأسيس فرقتك الموسيقية الخاصة بكِ».

II

الحياة المرئية

مهسا

لم يكن أحد يعرف اسمي. ولم أشعر بأنني في أفضل حالاتي ولكنني كنتُ مقتنعة. مشيتُ إلى غرفتي المنفردة الصغيرة في كلِّية رويال فيكتوريا، الواقعة في وسط أعلى جبل ذي صليب عظيم موضوع على القمَّة. يعيش موتانا في قلوبنا دوماً، ولكنني في مونتريال كنتُ قادرة على نسيانهم لبعض الوقت. كنتُ أؤمن بأنه يمكنني القيام بأيِّ شيء.

غفوتُ واستيقظتُ عندما حلَّ الظلام، وأنا لا أزال أرتدي ملابسي نفسها منذ ركوبي الطائرة. كانت هناك بقعة لزجة على بلوزتي، فقد انسكب عليَّ كوب عصير. استمتعتُ بركوب الطائرة وحدي، وسألتُ الراكب إلى جانبي لماذا كانت الطائرة ترتجُّ في الهواء، فأجابني: «ربَّما بسبب الغيوم»، وكانت تلك طريقة جديدة للتفكير في الغيوم. كان العالم هنا يبدو غريباً، وتبدو رائحة كلِّ شيء من حولي غريبة أيضاً. أخرجت قميص كمال من حقيبتي ورحتُ أشمُّه، ثمَّ أعدته إلى الحقيبة وأقفلتها لأحفظ رائحته الممزوجة بالملح والبحر، رائحتنا معاً. كنتُ جائعة جدَّاً. وبما أنني معتادة على الفنادق، نزلتُ ومشيت إلى شيربروك واتجهت غرباً إلى فندق "ريتز كارلتون" حيث دخلتُ إلى البهو. لم يأت أحد ليسألني عن طلبي. أين ذهب الموظفون؟ هل يغطُّون في النوم في إحدى الزوايا؟ ومن ثمَّ قلتُ لنفسي: «مهسا، أنتِ تفكِّرين وتتصرَّفين مثل العم».

مشيتُ إلى مكتب الاستقبال وقلت: «عفواً، أودُّ أن أطلب وجبة طعام».

ردَّت عليَّ فتاة شابة: «أنا آسفة، المطبخ مغلق».

كيف يجرؤون؟ أنا زبونة لديهم. بدأتُ في البكاء.

سألتني: «ما الخطب؟».

* «أنا آسفة. إنها ليلتي الأولى هنا، فقد جئتُ من باكستان لأدرس في "ماكجيل"، وحالياً لا أعرف إلى أين أذهب لأحصل على الطعام».

رفعت سمَّاعة الهاتف وتكلَّمت بالفرنسية، ثمَّ قالت لي: «سيحضرون لك بعض الشاي والخبز. أنا أدرس في "ماكجيل" أيضاً. اسمي مونيك».

وبهذه الطريقة التقيتُ بأفضل صديقة لي في مونتريال، حيث بدأت الأيَّام الأولى الرائعة من حياتي كطالبة. ارتديتُ سراويل الجينز مثل غيري من الفتيات، وأسدلتُ شعري. شاهدتُ الطلاب وهم يرقصون مثل جيمس براون، وتعلَّمت الرقص على موسيقى الروك أند رول مع الفتيان، وليس فقط مع الفتيات كما كنتُ أفعل في بلدي. اختار لي العمُّ أن أدرس اللغة الإنكليزية والرياضيات، ولكنني أردتُ أن أدرس الموسيقى.

قالت لي مونيك: «عليك إذاً بتغيير اختصاصكِ».

* «ولكن ماذا لو اكتشف العمُّ ذلك؟».

- «سيكون الأوان قد فات. وبكلِّ الأحوال فهذه هي حياتك أنتِ».

بدت لي هذه الفكرة غريبة، ولكني تجرَّأتُ وغيَّرتُ كلَّ المقررات باستثناء مقرِّر اللغة الإنكليزية، فقد أحببتُ المدرِّس، وهو كاتب يدعى الأستاذ ماكلينان. بدأتُ بحضور صفوف الموسيقى والتمرُّن على عزف البيانو في الغرف الصغيرة في مبنى الموسيقى الذي يضجُّ بضوضاء صاخبة وشيطانية، ويضمُّ تمثالاً ضخماً للملكة فيكتوريا. كنتُ أقوم بالأشياء لأنني

أردتُ ذلك ولم يكن هناك أحد ليمنعني. شاهدتُ تشريح جسم بشري في كلِّية الطب. وعلقت في ذهني طويلاً صورة الإصبع الكبير لقدم تلك الجثَّة. والذي يحمل بطاقة عليها رقم الجثَّة العارية والمجهولة. ذهبتُ برفقة مونيك إلى بار في شارع كريسنت، كان أثاثه من متجر "ألين جونز"، ومصمَّماً على شكل أرداف وأثداء، وهي صورة انطبعت في ذهني أيضاً مثل إصبع قدم تلك الجثَّة.

مشيتُ في أرجاء الجبل وشاهدتُ السناجب البرِّية التي تركض على الشوارع والأشجار الملوَّنة بالألوان البرتقالية والحمراء والذهبية -البنِّية، مثل كرسي مور القديم على الشرفة. حفظتُ أسماء الشوارع والمباني التي تحمل أسماء العديد من أفراد العائلة المالكة والقدِّيسين.

لم تعد العمَّة في حياتي لتأمرني بالهدوء كلَّما عبرتُ غرفة، ولا راهبات تطلبن مني السكوت والإنصات. في مونتريال، جلست الفتيات متربِّعات على الأرض وهنَّ مرتديات سراويل الجينز، كما كنَّ يضعن أقدامهنَّ عالياً على المناضد، ويتركن صدورهنَّ لتظهر من خلال قمصانهنَّ. كنَّ يطلبن من الفتيان التسلُّل إلى سكن الفتيات على مرأى من الجميع الذين ادَّعوا عدم ملاحظة أيِّ شيء، لم يكن هناك أيُّ خطر حقيقي. كان الشبَّان والشابَّات يتبادلون القبلات في الشوارع. يا ليتني التقيتُ بكمال هنا.

من بعد ظهر أيَّام الجمعة، كنتُ أتبع أستاذ اللغة الإنكليزية إلى مكتبه بعد انتهاء الدرس لنناقش الكتب، وكنتُ أستمتع بمشاهدة الضوء وهو يختفي خارجاً وبلَّورات الثلج المتألِّقة مثل حجر التوباز الكريم الذي يلتمع في الظلام. كان أستاذي لطيفاً، طويل القامة ولبقاً، ذكرتني ابتسامته البسيطة واهتمامه بأبو،لو بقي على قيد الحياة لكان الآن في مثل عمره. كان قد ألَّف العديد من الكتب، وأكثرها قرباً إلى قلبي كتابه الذي يحمل عنوان

"عزلتان"، وهو كتاب عن الحبِّ والولاء والعائلات التي تواجه مشاكل واضطرابات. في إحدى المرَّات، ارتشف بعض الكحول من قارورة فضِّية صغيرة، وقال لي: «يسرُّني أن أعيرك أيّاً من كتبي إذا أردتِ».

قلتُ له: «أنا أقدِّرك كثيراً، وفي الحقيقة فأنت أفضل أستاذ بالنسبة إليَّ».

فردَّ قائلاً: «شكراً لكِ».

علمتُ بوفاة زوجته ومدى حبِّه لها من خلال كتاباته عنها. عندما أقرأ كلماته عنها يراودني الشعور نفسه الذي شعرتُ به عندما كنت أشاهد أبو ومور يرقصان. أردتُ أن أقول له ذلك، ولكنه كان كاتباً عظيماً ولم أجد وسيلة لأعبِّر فيها عمَّا يدور في ذهني. كنتُ أريد أن أقول شيئاً من شأنه أن يثير اهتمامه.

قلتُ: «يضمُّ بلدي بين جنباته العديد من حالات العزلة أيضاً».

هزَّ رأسه وتناول رشفة أخرى، وقال: «ربَّما ستكتبين عن ذلك في يوم من الأيَّام».

أسعدني كلامه كثيراً، وقلتُ: «أوه، لا. أنا أريد أن أعزف الموسيقى».

* «هذا ما عليكِ أن تقومي به إذاً. أمَّا الآن فقد حان موعد عودتي إلى المنزل».

مشيتُ إلى فندق "ريتز" لملاقاة مونيك بعد انتهائها من ورديتها. كانت تدرس المسرح وكنتُ أرافقها إلى المسرحيَّات وحفلات الرقص، ولم تكن تعلم بأنَّ والديَّ قد قُتلا، ولذلك فلم تعاملني برقَّة وبحذر، وإنما بحيويَّة الصداقة الحقيقية.

حدَّثتها عن الشاعرة الكبيرة خديجة التي أراد أخوتها منعها عن الوقوع في الحب. كانت قد كتبتْ اسم عشيقها في شعرها قائلة: "أبو مروان، لا

يسعني التوقُّف عن مغادرة نفسي للوصول إليكَ". وعندما قرأ أخوتها اسمه قاموا بقتله على الفور. ولكنه استمرَّت بعد قتله بذكر اسمه في أشعارها.

علَّقت مونيك: «دائماً ما يموت العشَّاق - لديكِ مثلاً روميو وجولييت، تريستان وإيزولده- هكذا هي الحال دائماً».

* «ولكنَّ المرأة حرَّةٌ في هذه البلاد».

- «هل تعتقدين ذلك؟! ولكنَّ الحقيقة هي ليس هكذا دائماً، فأمِّي بالكاد تتحدَّث الإنكليزية، وقد أنجبت سبعة أطفال، وجلُّ ما تقوم به هو أعمال تنظيف المنزل وزيارة الكنيسة. أما أبي فهو سكِّير. والنساء في حيِّنا يتناولن حبوب منع الحمل، يلعبن الورق ويقرأن قصص الحب، ويصببن جام غضبهنَّ عليَّ. هل هذا أفضل من قصتك عن أبو ماذا؟».

ضحكتُ، وقلتُ: «الحال واحدة، وكما يقول المثل: الحمار نفسه، فقط السرج هو المختلف».

كتب لي كمال قائلاً: «لا أريد أن أحدِّثكِ عن حياتي في الجيش. وبعد أن أنتهي من الخدمة سأعمل على بناء المدارس».

كان يشتاق إليَّ، ويريدني، ويحبُّني.

عندما رأيتُ خطَّ يده، شعرتُ بدمي يغلي بالطريقة نفسها التي كنتُ أشعر بها حين أراه في كلِّ مرَّة نلتقي فيها. كتبتُ له، ووصفتُ بعض الأشياء الجديدة التي رأيتها، ولكنني لم أستفض في الحديث خوفاً من وصول كلامي إلى العمِّ بطريقة أو بأخرى.

كنتُ أدرس باخ وتأليف موسيقى الجاز، وأستمع خارج الصفِّ إلى أعمال كولترين، رافي شانكار وفرقة البيتلز. كما استمتعتُ بالاستماع إلى جورج هاريسون وأرغنه، والتفكير في موسيقى القوالين المقدَّسة. كان أصدقائي الجدد يعزفون على آلات السوارماندال والسيتار والتامبورا.

وكانت الفتيات هنا تعزفن آلات الرجال دون أن يصيبهنَّ أيُّ مكروه. يؤمن الناس في بلدي بأنه يمكن للراجا[1] أن تسبِّب هطول المطر وشفاء المرضى، ولكنه هذه المقولات كانت بالنسبة إليَّ مجرَّد ترَّهات وتجديف، ولم يحدث لي أيُّ سوءٍ نتيجةَ عدم إيماني بتلك المعتقدات.

يغنِّي جورج هاريسون بمنتهى البراءة قائلاً: «قم بكلِّ شيء دون القيام به». في تلك الفترة، اشتريتُ أرغناً وأخذته إلى أستاذ المواد النظرية وقلتُ: «أنت ستعزف على البيانو وأنا سأعزف على هذه الآلة معك».

* «إنه يشبه الأكورديون، وهو يبدو مضحكاً».

- «أريد أن أتعلَّم كيفية كتابة نوتة لهذ الآلة».

* «رائع!».

كنت متفاجئة حقّاً من نفسي. وكانت تلك هي لحظات جرأتي الموسيقية الأولى. كما لو أنني أقفز من الحافَّة دون أن أقع، وإنما أستمرُّ في التحليق فقط. ولديَّ شعور بأن النعيم هو مشاع للجميع، حتى لي أنا. كنتُ وحيدة في كثير من الأحيان وكانت مونتريال تبدو لي خالية من الأصوات.

كنتُ أسمع أصوات أجراس الكنيسة في صباح الأحد، لم تكن هناك أصوات مؤذِّن يهتف "الله أكبر" ويذكِّرنا بالصلاة خمس مرَّات في اليوم، حتى لو لم نكن لنصلِّي. ولكي لا أظلَّ وحيدة، كنتُ أذهب في كثير من الأحيان إلى مكتبة الموسيقى، حيث اعتادت أمينة المكتبة، أنيكا، على التحدُّث معي. سألتني الكثير من الأسئلة حول موسيقى بلدي. كنتُ أستمع إلى إيقاعات ولغات غريبة، بدءاً من الموسيقى التقليدية الإيرلندية، وصولاً إلى أوركسترا ماهافيشنو، وجون ماكلولين وهو يعزف على غيتاره

---

1 - في الموسيقى الهندية: نمط من العلامات الموسيقية يتميز بفترات، وإيقاعات، وتزيينات مميزة، ويستخدم كأساس للارتجال.

ذي الذراعين مع جان لوك بونتي. كما كنتُ أستمع بالطبع إلى سانتانا. كان الجميع في كلِّ مكان يعشقون سانتانا، وخاصَّة في كراتشي. واستمعتُ إلى تسجيلات "سي بي سي" للتعرُّف على العازفين في المنطقة، وبخاصَّة تسجيلات فرقة "نيمونز أن ناين" وفرقة "مو بيلسون" التي تضمُّ عازفة بيانو تدعى كاثرين غودناو. كان إيقاعها في منتهى الكمال. قمتُ بعزف ما كانت تعزفه أمام أنيكا، التي لم كن قد سمعت عنها قبلاً، تحمَّست وذهبت إلى كتالوج بطاقاتها وبدأت تسحب أدراجاً خشبية صغيرة وتقلِّب بطاقات مطبوعة بيضاء تحمل أرقاماً. عادت في النهاية، قائلة: «لا أستطيع أن أجد أية تسجيلات أخرى لها. لا يزال قائد الفرقة موجوداً هنا في المنطقة. وكذلك عازف الساكسفون، تيودور جون».

كان أكثر ما سبَّب لي التوتُّر هو درس البيانو الأوَّل. فأنا لم أحصل طوال حياتي على أيِّ درس حقيقي لتعلُّم البيانو، كنتُ دوماً أنا وأبو فقط. في أوَّل درس لي، عزفتُ أمام أستاذي مقطوعة للعازف الهندي رافي شانكار. وكان أستاذي يحمل اسماً جميلاً، مزيجاً بين اسم فرنسي وإنكليزي، وهو جان سانت جون. كان يرتدي سروال جينز وتي شيرت ضيِّقاً وقميصاً بنِّياً مفتوحاً فوقه، بالإضافة إلى صندل من الجلد البُنِّي، ولم تكن قدماه نظيفتين. كان شعره الداكن أشعث فوق ياقته ويلامس الجزء العلوي من نظَّارته ذات الإطار المعدني. يسير بخطى هادئة عندما يدخل أيَّة غرفة، ويبحث عن المكان الذي يجلس فيه، مثل كلب يتحقَّق من المكان قبل أن يستلقي. اعتاد أن يقلِّب الكراسي الخشبية ليسند ذراعيه وصدره على ظهر الكرسي. وهو يدخِّن بلا توقُّف. عُرف عنه في الكلِّية أنه عبقري العزف على الكونترا باس، وأنه دقيقٌ جدَّاً وتصدر عن عزفه أنقى الأصوات، التي تكون منخفضة أحياناً لدرجة يعجز معظم الناس عن سماعها. كان يستمتع

بالقول: «أنا أعزف للعالم السفلي، فأنا أتعاطف مع الشيطان». أخبرني عدد من الطلاب بأنني محظوظة لأنه من ضمن أساتذتي في السنة الأولى. وقالت إحدى الفتيات اللواتي لم يتم اختيارهن للدراسة معه، موجِّهة حديثها إلى فتاة أخرى بحيث يمكنني سماعها، إنَّ الطلاب الأجانب يسيطرون على الأمور، ولا ينبغي السماح بذلك. توتّرت من فكرة العزف أمام جان سانت جون وارتجفت أصابعي، وهي المرَّة الأولى التي يحدث فيها مثل هذا الأمر. استمع إلى عزفي لبضع لحظات ثمَّ تأرجح عن كرسيه كما لو كان يترجَّل عن سرج، رمى سيجارته على الأرض، وأطفأها بقدمه ومشى إلى الباب. وهو يقول: «عليك إيجاد طريقة أخرى، اعزفي وعيناك مغلقتان أو اعزفي النوتة بالعكس، لا يهمُّني أبداً كيف تقومين بذلك، ولكن المهم أن يكون لديكِ أسلوبك الخاص. ابتكري أفكاراً خاصة بكِ. سأراكِ في الأسبوع القادم».

جلستُ للحظة واحدة، ثمَّ نهضتُ ونظرتُ من النافذة وأنا أفكِّر في السبب وراء كوني هنا وما الذي أحقِّقه من وراء دراستي هذه، العمُّ لن يوافق على دراستي للموسيقى، ولم يقتنع أستاذي بعزفي. وفي الحقيقة فقد أذهلني بقسوته، وبدا لي الأمر كما لو أنه قد صفع الباب في وجهي وأنَّ تلك نهاية كلِّ شيء، ثمَّ أدركتُ بأنه قد فتح لي باباً آخر أكثر رحابة. نظرتُ حولي إلى الغرفة الصغيرة والهادئة، ووضعتُ يديَّ مرة أخرى على مفاتيح البيانو لأعيد المحاولة. ما هي أفكاري الخاصَّة بي؟ لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن ماهية أفكاري هذه.

قلتُ لمونيك لاحقاً: «في بلدي، علينا أن نُعيد ونكرِّر لنتعلَّم التقاليد».

ضحكتْ وقالتْ: «هنا، الجميع يريدون أن يكونوا استثنائيين ومتفرِّدين. لا تقلقي بشأن هذا. تعالي ليلة الجمعة واعزفي في الفندق

واكسبي بعض المال. هناك يمكنكِ العزف كيفما تشائين. فلن يسمعك إلا السكارى فقط».

وصلتُ إلى فندق ريتز وجلستُ إلى البيانو من طراز ستاينواي. بدى لي البيانو في هذا الفندق مألوفاً، يشبه ذلك في فندق بيتش لاكشري، إلا إنه أكثر فخامة. بدأتُ العزف وأحببتُ النغمات التي لم أكن قد عزفتها قبل ذلك، جاءت مونيك إليَّ من وراء مكتبها ووضعت على البيانو وعاءً فيه خمسة دولارات. استمع إلى عزفي بعض الرجال، ووضع بعضهم المزيد من النقود في ذلك الوعاء. راقبهم مدير الفندق وهم يطلبون المشروبات، ثمَّ اقترب من البيانو، وقال لي: «يا آنسة، يمكنكِ إذا أردتِ العودة في يوم الجمعة المقبل للعزف مرَّة أخرى والاحتفاظ بالبقشيش».

عرضتُ على مونيك كلَّ المال الذي حصلتُ عليه وقالتْ: «عليك أن تردِّيها إليهم. هؤلاء الرجال هم أصدقائي. إنهم ممثِّلون وقد اصطنعوا كلَّ هذه التمثيلية حتى يسمح لكِ المدير بالبقاء. ألا تملكين شيئاً أكثر تميُّزاً لترتديه؟».

أريتها لباس الساري التقليدي ذا اللون الذهبي، الذي يكشف عن بطني بطريقة جميلة، وتركتُ شعري مسدلاً. علَّقت قائلة: «أجل، أجل، عليك أن ترتديه». في الأسبوع التالي، مشيتُ عبر الصالة وجلستُ إلى البيانو، كان الحاضرون يحدِّقون فيَّ، ولم يكونوا هذه المرَّة من أصدقاء مونيك. وضعتُ بنفسي خمسة دولارات في الوعاء، وسرعان ما بادر أحد الأشخاص بوضع بعض المال. ربع دولار، كان ذلك أوَّل مبلغ أجنيه من العزف على البيانو. طلب مني رجل سكران يلفُّ بذراعه الكتف المكشوفة لسيِّدة أن أعزف أغنية "كل الأشياء التي تجسِّدها أنت" والتي كنتُ أعرفها جيِّداً، وعندما بدأ الآخرون بطلب أغنيات لا أعرفها كنتُ أطلب منهم

همهمتها ومن ثم أقوم بعزفها. قال أحدهم: «لا تضغطوا عليها. فليس لديهم في الهند مثل هذا النوع من الموسيقى». وسألني شخص آخر: «هل أنتِ هندية؟». أجبته: «أنا من باكستان. وسأعزف لكم شيئاً من هناك». كان الرجال المتحلِّقون حول البيانو يضحكون ويشربون. انتهت مونيك من مناوبتها، وقالت لي: «يجب أن أصبح مديرة أعمالكِ».

فكَّرتُ في أنه لا بدَّ لي من الحصول على كتيِّب نوتات يضمُّ الكثير من الأغاني الغربية.

لو عرف العمُّ ما أقوم به لكان جُنَّ من الغضب، في الحقيقة، فقد كنتُ أنا نفسي متفاجئة من جرأتي. تعلَّمتُ كيفية صدِّ الرجال الوحيدين. وفي إحدى الليالي، قال لي رجل سكران وهو متَّكئ على البيانو: «أتريدين أن نلتقي لاحقاً، وأن تريني ماذا يوجد تحت ثوبكِ؟». عزفتُ برقَّة، ونظرتُ إليه بلطف وقلتُ: «اغرب عني يا صديقي»، وتابعتُ العزف. لا بدَّ من أنني بديتُ مضحكة لأنَّ عدداً قليلاً من الرجال كانوا يضحكون، أما هو فقد استُفزَّ وابتعد. في نهاية الأمسية وجدتُ الكثير من المال في وعاء البقشيش، وكنتُ أستمتع بهذا الشعور الجديد بالحرِّية، وعدم الانصياع لمضايقات أحد. كنتُ سعيدة مثل الماعز التي تفرُّ من الذئب.

كاثرين

في الساعة الخامسة فجراً، كانت بيا الصغيرة تبكي وتناديني، وكان طفلاي الجميلان ينامان بجانبي، وجيمي قد تبوَّل مرة أخرى في سريره، ورائحة البول تحيط بي، كنتُ متعبة بالفعل. مشيتُ إلى حيث كانت بيا وحملتها، كانت تمسك بحافَّة سريرها وحفاضها ثقيل. ففككته فوراً وأسقطته على الأرض وقمتُ بتنظيفها، وأنا أغنِّي أغنيات رقيقة وبطيئة، حتى لا تتنشَّط كثيراً، ورحتُ أقبِّل بشرتها الناعمة. أردتُ تنظيفها جيِّداً، التقطتُ قطعة قماش بيضاء دافئة وبدأت بالاسترخاء، حملتها إلى السرير الكبير حيث أنام أنا والأولاد، وصلَّيتُ لكي أنام لساعة واحدة أخرى.

اللعنة. وعدني تي بأنه سيعود إلى المنزل في الليلة الماضية. كان لديَّ فقط كوب من الحليب المجفَّف وعلبة من الحبوب وبعض البطاطس ولا شيء آخر. كانت سنوات تربية الأطفال صعبة، فقد كنا دون مال، ومرهقين من كلِّ تلك الرغبات، رغبة أطفالي في الحليب ورغبتي في أن أقبِّل تي. أذكر ليلة جميلة واحدة جاء فيها إلينا، واهتم بترتيب نوم الصبية الصغار ووضع بيا الصغيرة على وسادة مريحة، ثم اندسَّ بجانبي في السرير وهو يهمس بالكثير من الشتائم للعديد من الأشخاص، ويجعلني أضحك. مارسنا الحبَّ في تلك الليلة ولم يستيقظ الأطفال، كان ذلك فجراً جميلاً، وكانت عيناه الداكنتان تتألَّقان مثل النجوم فوقي.

لم أستطع معاودة النوم، وكلما زاد استيقاظي ازداد غضبي لأنَّ تي لم يعد إلى المنزل كما وعدني. تأكَّدتُ من نوم الأطفال ونهضتُ ووضعتُ جميع ملابسه في كيس من الورق البُنِّي ثمَّ ذهبتُ خارجاً للجلوس على الدرج. استمتعتُ بمشاهدة الفجر والتفكير في النوادي. ثمَّ تذكَّرت بأن أطلب من أمِّي أن تحضر لي بعض الحليب المجفَّف. عادت إليَّ الأفكار عن حياتي القديمة وكيف كنتُ معتادة على العودة إلى المنزل في مثل هذا الوقت من الصباح والنوم. شردتُ في عطور البالغين وعطر ما بعد الحلاقة، وفيَّ أنا وتي ونحن نعزف معاً، وجميع الأشياء التي كنتُ أكتشفها عندما كنت أرافقه في جولات الفرقة، والسبب في كونه لا يزال هناك معهم، وأنا محبوسة هنا. اعتدنا على أن نستغرق عميقاً في عزفنا لدرجة أنَّ الناس كانوا يحبسون أنفاسهم وهم يستمعون إلينا، فعندما نستغرق بمثل ذلك العمق فالأمر يشبه ما تشعر به في الجزء من الثانية قبل تحطُّم قطار. تصبح الموسيقى محفوفة بالمخاطر وجميلة. كنت أريد استعادة كلِّ ذلك مرَّة أخرى.

ولكنَّ تي لم يعد إلى المنزل ليشعرني بأنني امرأة أو يترك لي بعض المال. كان هناك، بعيداً يستمتع بوقته. وكنت أتساءل كيف يمكنني أن أستمرَّ بالعيش مع تلك القنبلة الموقوتة التي تنبض في داخلي والتي يسبِّبها لي ذلك الرجل، وكيف يمكن لي أن أستمرَّ من دونه.

لم أكن أمانع أن يحرمني من أيِّ شيء باستثناء ما أحتاجه لتغذية الأطفال. ثمَّ رأيته. كان يمشي في الشارع في ذلك الفجر الرمادي حيث تكون حركة المرور بطيئة في الصباح الباكر. كان منتشياً.

قلتُ له: «أنا في حاجة إلى المال لشراء الحليب».

* «هل هذه هي طريقتك في استقبالي؟».

اقترب مني ليأخذني بين ذراعيه بالطريقة التي يفعلها دائماً.

- «تي لا يمكنكَ أن تفعل هذا بي. عليَّ أن أطعم هؤلاء الأطفال».

* «حبيبتي، أنا أخرج لأعمل كلَّ ليلة».

- «أنت تعزف على حسابي أنا، على حساب مهنتي وأطفالنا. ولا تحضر أيَّ شيء إلى المنزل، إنهم أطفالك أيضاً».

* «حبيبتي، أنا لم أطلب منكِ يوماً أن تنجبيهم».

ساد الصمت الحزين بيننا وتملَّكتني البرودة. دفعتُ ذراعيه بعيداً عني.

- «ليس لديَّ أي شيء لأطعمهم. ولا يمكنني أن أطلب من والدتي مرَّة أخرى».

* «أنا سوف أشتريه».

- «ليس لديَّ أي مال لأنفقه اليوم. أنا أحاول أن أتيح لك كلَّ الظروف لتعزف. أمَّا أنت فما الذي تفعله من أجلي لكي أعزف؟».

ثمَّ قلت الشيء الذي لم يعترف به أيٌّ منا سابقاً.

- «أنتَ تستخدم أموالنا لتعبث مع النساء».

* «اللعنة كاتي!».

ركضتُ إلى أعلى الدرج وأوصدتُ الباب خلفي. لم يكن معتاداً على حمل مفتاح المنزل معه، وبدأ يطرق الباب بقوَّة ويصرخ: «لا يمكن أن تقفلي الباب. اللعنة، كاتي، أنتِ عنيدة مثل الرجال!». صاح أحد الجيران قائلاً: «اسكت، وإلا سنتَّصل برجال شرطة». استدار تي وبدأ بنزول الدرج. كان دائماً يخاف من الشرطة. فتحت النافذة وصحتُ: «تي!». وعندما رفع بصره إليَّ، رميتُ الكيس الورقي الممتلئ بملابسه على الرصيف.

استيقظ الأطفال وكانوا يبكون، طمأنتهم قائلة: «لا تقلقوا، سوف

يعود». ألهيتهم بمشاهدة الرسوم المتحرِّكة، وقمتُ بإعداد آخر ما تبقى لديَّ من الحليب وأضفتُ إليه المزيد مع الماء وبعض مكعبات السكر التي أخذتها من الفندق وقمتُ بتسخينها معاً.

كان ذلك هو اليوم الذي غادرتُ فيه شقَّتنا للبحث عن عمل.

قلتُ للأطفال: «نحن ذاهبون في مغامرة»، وطلبتُ من الصبيَّينِ ارتداء ملابسهما وقمتُ بإلباس بيا، أخذتهم على متن الحافلة إلى منزل نان وطلبتُ منها أن تعتني بهم، بينما أذهب للبحث عن وظيفة لي.

كان من الخطأ أن يقوم زواجنا على الطراز القديم، حيث يكسب هو المال بينما أقوم أنا بكلِّ المهمَّات الأخرى. أراد تي العزف وممارسة الجنس معي، وفق ذلك الترتيب. بينما أردتُ أنا الاهتمام بالأطفال وممارسة الجنس معه والعزف وتأليف الموسيقى، أردتُ كلَّ ذلك في الوقت نفسه. أردتُ أن يتمَّ تقدري ودعوتي إلى العزف لأنني كنتُ جيِّدة. وأردتُ أن أكون أكثر من مجرَّد عازفة بيانو. هناك حياة ضيِّقة جدّاً مخبَّأة تحت غطاء الحب، وأنا هربتُ منها لأنَّ تي أخرجني عن طوري في ذلك الفجر. لم أكن من النوع الذي يركض وراء مشاعره ويستمتع بالألم. ولم أكن لأخضع أو أكون تحت جناح أحد. أردتُ أن أكون حرَّة، وسيِّدة نفسي. من الممكن أن تفقد النساء كلَّ ملامح شخصيَّتهنَّ وروحهنَّ خلال الزواج، ولكنني لم أكن لأدع ذلك يحدث لي. شكوتُ مرَّة إلى والدتي: «أربع سنوات قضيتها من عمري في المنزل مع الأطفال!». وأجابتني: «في المحصِّلة لا يمكنني إنهاء زواج سعيد، كلُّ الزيجات التي تقوم على التعاسة تنتهي بالانفصال».

تدبَّرتُ العزف في الكنيسة المعمدانية لأنه كان في إمكاني أن أصطحب الأطفال معي. كما عزفتُ كذلك في دروس الباليه وأعطيتُ دروساً في

عزف البيانو لبعض الطلاب. كنتُ أجني ما يكفي من المال لدفع الإيجار والطعام. عادت الموسيقى والجاز لتكون جزءاً من حياتي مرَّة أخرى. كنتُ في كثير من الأيَّام أشعر بالغضب والتوتُّر من مسيرة حياتي. ولكنَّ الحياة تستمرُّ، وساعدتني أمِّي بإعطائي فونوغرافاً قديماً، وعاودت الاستماع إلى الموسيقى مرَّة أخرى.

كنتُ في المطبخ عندما سمعتُ لأوَّل مرَّة رباعي جون كولترين وهم يعزفون "أشيائي المفضلة". كنتُ منشغلة بترتيب ما اشتريته من البقالية ولكنني لم أقاوم الانغماس في تلك الموسيقى. كان مكوي تاينر، عازف البيانو عبقرياً. انتبهتُ إلى بيا الصغيرة وهي تُخرج ببطء البيضَ من الكرتونة التي تركتها على الأرض بجانب الثلاجة وتكسرها الواحدة تلو الأخرى. كانت هي أيضاً مستغرقة ومهتمَّة بعملها التخريبي الصغير، وهي تتحسَّس صفار البيض اللزج. لم أحاول منعها حتى يتسنَّى لي الاستماع والإصغاء بدون انقطاع، فعندما أكون على فراش الموت لن أفكِّر في الفوضى التي أحدثتها اثنتا عشرة بيضة مكسورة، وإنما بالحوار الموسيقي الراقي بين كولترين وتاينر في تلك المعزوفة. بدا لي صوت الساكسفون وكأنه رجل ينهض من كرسيه ليأخذ بيد امرأة ويقول لها: «أريد أن أقول لكِ شيئاً لا أستطيع التعبير عنه بالكلمات». تسلّل عزفهم إلى أعماق روحي، شعرتُ بأن عقول هؤلاء الموسيقيين وأرواحهم معلَّقة بآلاتهم وموسيقاهم، حيث يعزف كلٌّ منهم منفرداً، ومع بعضهم البعض في الوقت نفسه، مندمجين في إيقاع واحد. أصغيتُ وأصغيتُ، وكان كلُّ رجل منهم غارقاً في إبداعه الذاتي، وفي الاستماع إلى ما سيبدعه الثلاثة الآخرون، الجميع يعزفون معاً بطريقة إعجازية. مِن غير المعقول فَهْمُ كيف يمكن لأربعة عازفين أن يعزفوا منفردين، ومعاً في الوقت نفسه! استمعتُ في ذلك اليوم عشرين

مرَّة إلى مقطوعة "أشيائي المفضلة"، وعندما شعرتُ بأنني هادئة، وكاملة، ومشبعة، رفعتُ الإبرة وأعدتُ الإسطوانة إلى مكانها، وشعرتُ بأننا كنا جميعاً بخير. طلبتُ من الصبيَّينِ ارتداء معاطفهما وأحذيتهما المطَّاطية، وقمتُ بتنظيف الفوضى اللزجة التي سبَّبها البيض، كما نظَّفتُ بيا الصغيرة، وخرجنا للمشي. كان الضوء ساحراً، وبدت مصانع الصلب مهيبة، دسَّ الطفلان أيديهما الصغيرة في يديَّ. لم أكن وحيدة بوجود كولترين وتاينر في داخلي. فكَّرتُ في أنَّ هذه الموسيقى هي ما يجب أن يكون عليه الزواج، معزوفات منفردة تبدأ في الوقت نفسه، وتنتهي معاً.

مهسا

عندما بدأتْ عمليَّات الخطف في مدينة مونتريال، ألصقتُ على طاولة غرفتي العبارة التالية: "القلق هو دوَّار الحرية"، لكنني كنت معتادة على عنف المدينة. كان الجميع هنا مصدومين بمشهد الدبَّابات في الشوارع. وفي بعض الأحيان، بدت لي مونتريال أكثر خطورة من كراتشي. كانت هناك نقاط تفتيش على الجسور وقنابل مدسوسة في صناديق البريد. كما تبنَّت خليَّة إرهابية قصف مقرِّ البورصة. كنتُ أتمنى ألا يغلقوا "ماكجيل"، وخاصَّة بعد أن بقي جان حتَّى آخر الدرس ولم يخرج من أوَّله كما حدث في المرَّة الأولى. كنتُ دائماً أعزف مقاييس الراجا سماعياً، وأصبح في وسعي كتابتها. بدأت علامات الراجا الموسيقية تظهر في ارتجالي، وشعرتُ وكأنها همس يعبِّر عن صوتي الخاص حيث أنها لم تكن موجودة في أيِّ تقليد آخر أعرفه، وذلك أسعدني كثيراً. كتب لي العمُّ يخبرني بأنه قد قرأ عن جبهة تحرير كيبيك، وقال إنَّ العمَّة سألتْ عمَّا إذا كنتُ في أمان، وإنها أرادتْ إعلامي بأن الناس في كراتشي يردِّدون بأنهم يريدون الغذاء والكساء والمأوى، وإنَّ حزب الشعب لن يتخلَّى عن السلطة. أزعجتني رسائله، فقد كنتُ أريد من العمَّة أن تكتب رسائلها الخاصَّة، ولكنها كانت تستصعب الكتابة، ومن ثمَّ أنَّى لها أن تأتي بالطوابع؟ كنتُ أرى أحياناً فتيات أخريات منغمسات في قراءة رسائل من الوطن، يبتسمن كما لو كان

الشخص هناك أمامهنَّ فعلاً. أما أنا فقد كنتُ أرمي برسائل العمِّ جانباً. حتى خطُّه كان قاسياً. أرادت مني مونيك أن أذهب إلى جامعة كيبيك للاحتجاج، ولكنني فضَّلتُ التمرُّن على البيانو، ففي السابق لم يكن في مقدوري التمرُّن بالقدْر الذي أشاء. شاهدتُ على شاشة التلفزيون مراسلاً يطلب من رئيس الوزراء مناقشة مواضيع الاختطاف، وفوجئت أنهم تركوا المراسل في حال سبيله دون أن يتهجَّم عليه جنود يحملون البنادق. سأل رئيسُ الوزراء المراسل: «ماذا كنت لتفعل؟».

أمَّا أنا فقد كنتُ أدرس معزوفة كولترين "أشيائي المفضَّلة"، وأستمع إلى مكوي تاينر وهو يعزف منفرداً. كنتُ أحبُّ إيقاعاتهم. وفي خضمِّ فوضى تلك الأيَّام، عثروا على جثَّة رجل مخنوق موضوعة في صندوق سيَّارة. انتقد الناس الشرطة. كم هم عنيدون هؤلاء الكنديون في سعيهم لنيل حرِّيتهم! كنتُ أعزف في غرفة التمرين الصغيرة، حيث أصعد إليها مروراً بالتمثال الكبير للملكة فيكتوريا، قائلة: «صباح الخير أيتها الملكة»، وأحبس نفسي في تلك الغرفة لمدَّة أربع ساعات على الأقلِّ يومياً. كنتُ أكتشف أشياء ونغمات مدفونة داخل قلبي. في ذلك الوقت، ضرب إعصار بهولا باكستان، وظهرت على شاشات التلفزيون صور حزينة لجثث غارقة في المياه وقرى مدمَّرة وصفوف طويلة لأشخاص يسيرون بحثاً عن مأوى. رأيتُ كلَّ هذه الصور وسمعت كلَّ تلك القصص الحزينة دون أن أشعر للحظة بأنَّ هؤلاء الأشخاص هم شعبي. شعرتُ بأنني بعيدة، مع أنني لم أكن قد غبتُ سوى بضعة أشهر. وفي الأثناء عثرت الشرطة على الإرهابيين في الطرف الشمالي من مونتريال، ولكنهم لم يطلقوا النار على الجناة أو يرموهم في السجون، وإنما قاموا بنفيهم إلى كوبا كما وعدوا. لو حدث نفس الأمر في بلدي لكانوا قتلوهم وشنَّعوا بهم.

كنتُ مستغرقة في موسيقاي، أراقب من منظور مختلف العنف في العالم من حولي.

أمَّا مونيك، فقد كانت تستمتع بالاستلقاء على سريري، وتدخين الماريوانا وهي تقرأ لي مقاطع من كتابات سيمون دي بوفوار. تحدَّثنا بالفرنسية لأنني أردت أن أتعلَّمها، وقالت لي بالفرنسية: «قرار جيِّد، سوف تحتاجين إلى اللغة الفرنسية إذا أردتِ البقاء هنا». كانت تتولَّى في تلك الفترة إخراج مسرحية "مدرسة الزوجات" لموليير، وتكتبُ مسرحيَّاتها الخاصَّة المناصرة للمرأة. قالت لي:

- «اسمعي هذا، تقول سيمون إنَّ مصالح المرأة الحيوية مقسَّمة».

* «ماذا؟».

- «مصالحها الحيوية. تقول سيمون إنَّ المرأة تخاف من خسارة قدرها كامرأة إذا وهبت نفسها كلِّياً لأشياء محدَّدة».

* «وما هو قدرها؟».

- «لا بدّ من أنها تعني الأطفال. لم يكن لدى سيمون أطفال. فقد أحبَّت جان بول سارتر، وكان لكلٍّ منهما عشَّاقٌ آخرون».

* «أعتقدُ بأنها محقَّة فيما تقول».

- «هل تعتقدين ذلك حقَّاً؟».

* «حسناً، هل تعتقدين بأنَّ جان بول كان ليغيِّر حفاضات الطفل؟».

- «بالتأكيد لا!».

دخل علينا آخر عشَّاق مونيك دون أن يرتدي قميصاً، وضحكنا عليه. كانت العمَّة لتحسدني على حرِّيتي. أمَّا راحة بال العم، فقد كانت لتُدمَّر كلِّياً بمجرَّد معرفته بوجود الفتيان في غرفنا، والواقي الذكري وحبوب منع

الحمل في درج الملابس الداخلية لكلٍّ فتاة، وعزفي البيانو في صالات الفنادق. كما أنني قد أدركتُ إمكانية جديدة: قدرتي على تلبية احتياجاتي الخاصة، خارج إطار الزواج والتقاليد، اعتماداً على قراري أنا، مثل بقيَّة الفتيات هنا.

قالت مونيك: «دعينا ننتقل من السكن الجامعي، فقد وجدتُ شقَّة ملائمة لنا».

كانت الشقَّة قريبة من الحرم الجامعي، على الطريق إلى أعلى الجبل، وهو مكان قديم ذو سقف مرتفع مع سُلَّم حديدي يؤدي إلى الباب الأمامي. لم يكن لديَّ الكثير من الأشياء لأنقلها، فقط الحقيبة التي أتيتُ بها. وعندما أعادت إليَّ إدارة السكن الجامعيِّ المال الذي دفعه العمُّ مقدَّماً، كان لديَّ ما يكفي لأدفع الإيجار لمدَّة عامين تقريباً. جلسنا على الشرفة، نتأمَّل الأشجار، ونتناول الكعك الذي أحضرته مونيك من فندق ريتز، وقلتُ: «لا أعرف ما الذي سيحدث لو اكتشف العمُّ الأمر».

* «أنتِ تبالغين في التفكير وتقلقين كثيراً. هل تريدين رؤية قمصان نوم جدَّتي؟ أعطتني إياها العام الماضي قبل وفاتها».

تناثرت في غرفة نوم مونيك صناديق وأكياس عديدة. أخرجت من إحداها قميص نوم من التول الحريري الطويل، وآخر أقصر من حرير الأورجانزا الأسود المزركش. ارتدت الأسود منها فوق كنزتها القطنية والجينز، وقالت: «أتمنى لو أعرف متى ارتدت جدَّتي هذه القمصان. كانت قد أخبرتني بأنها حملت من المرَّة الأولى التي مارست فيها الجنس عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها. ولكنَّ قمصان النوم هذه لا تليق بامرأة أنجبت سبعة أطفال. أرادت أن تأخذ هذه القمصان إلى المستشفى عندما كانت على فراش الموت، ولكنَّ والدتي لم تسمح لها. ولذلك فقد

أعطتني إياها. أعتقد بأنها أقامت علاقات غرامية. وأنها أرادت مني أن أعرف شيئاً عن ذلك».

تفحَّصتُ الحرير، وعقدتُ فوراً مقارنة بينه وبين الحرير الباكستاني. ثمَّ تأمَّلتُ الصورة التي وضعتها مونيك على طاولتها لجدَّتها الفرنسية-الكندية ذات التفاصيل الناعمة، وتخيَّلتها وهي ترتدي قمصان النوم هذه. بدأت مونيك بالتخطيط لحفلة انتقالنا إلى الشقَّة الجديدة.

كتبتُ إلى العمِّ بأنني في حاجة إلى البقاء والدراسة خلال فصل الصيف، وبعدم ضرورة تجديد الإقامة في السكن الجامعي لأنني سوف أقيم مع صديقة لي، ويبدو أنه تصوَّر أنني سأنتقل للعيش مع صديقتي في منزل عائلتها، ولذلك ردَّ علي قائلاً: «أرجو أن تشكري والد صديقتك. لقد بدأت بالتفكير في مستقبلك».

خلال هذه الفترة المتَّسمة بالقلق، كنتُ أستيقظ في الظلام وأفكِّر في الوطن. عندما أكون نصف صاحية، كنتُ أرى في بعض الأحيان وجه مور المبتسم، والحنون والقلق، وأشتاق إليها، إلا أنني لم أعد في حاجة إليها. تلك كانت بداية فهمي للكيفية التي نحزن فيها على فراق من نُحبُّ بطرق مختلفة على امتداد حياتنا.

كان الثلج فضِّياً، وعند نهاية آخر صفٍّ دراسيٍّ قبل العطلات لحقتُ بالأستاذ ماكلينان إلى مكتبه لأجلس ضمن عتمة شتوية تعبق برائحة القرفة، ولأعطيه وظيفة كلَّفنا بها، وتعبِّر للمرَّة الأولى عن رأيي الشخصي في مسألة ما. كان المطلوب أن نكتب عن قصَّة كندية معروفة، اخترتُ واحدة تُسمَّى "بنين وبنات". كنت قلقة ومتوتِّرة، وسألني: «ما الذي يدعو إلى القلق حول فكرتك؟».

* «كتبتُ بأن الفتاة أحبَّت والدها أكثر من والدتها حتى عندما كان

يسلخ الثعالب، وبأنها كان تدعو والدتها بالعدو على الرغم من أنها اعتمدت عليها، وهذا يشبه تماماً حالة عمَّتي، أنا أؤمن بأنَّ الفتيات يعشن عزلات منفصلات. وفي الحقيقة، لم يسبق لي أن كتبتُ أفكاري الخاصَّة أبداً، وهي تبدو لي الآن فوضوية وغير مترابطة».

هزَّ رأسه بشكل جدِّي، ولكنه ابتسم أيضاً وقال: «لا تقلقي. لقد بذلتِ الكثير من الجهد، وقدراً كبيراً من التفكير في هذه الوظيفة. هل لديك مكان خاصٌّ تذهبين إليه في العطلة؟».

لم أكن أريد أن أقول له إنني سأذهب لوحدي إلى نيويورك. ولذلك كذبت عليه وقلتُ: «سأعود إلى وطني، هناك حفلة راقصة بمناسبة عيد الميلاد في فندق "بيتش لاكشري" ويمكن لأيٍّ شخص الحضور، حتى من غير المسيحيين».

كان وجهه متعباً و يداه تبدوان مجعَّدتين تحت ضوء المصباح الأخضر على مكتبه. وسألني: «أليس هناك شاب ينتظرك هناك؟».

* «أنا أفضِّل أن أكون هنا يا سيِّدي».

- «لماذا؟».

* «لأنَّ الرجل الذي أحبُّه بعيدٌ جدّاً، وتعارض عائلتي رؤيتي له».

تطلَّع عبر النافذة، ونهض ببطء. سحب من مكتبته نسخة من رواية "مدل مارش" من تأليف جورج إليوت. فتح الكتاب إلى الصفحة الأخيرة وقرأ: "لا يوجد مخلوق تكون داخليته من القوَّة بحيث لا يتأثَّر إلى حدٍّ كبير بما يكمن خارجها". نظر إليَّ وقال: «هاكِ، إنها هدية عيد الميلاد».

* «أعتقد بأنَّ الراهبات في وطني يقتنين كتبه. شكراً لكَ».

- «الكاتب هو امرأة وليس رجلاً، كان جورج إليوت هو اسمها المستعار. هي نفسها وجدت الحبَّ مع رجل متزوِّج».

قلَّبتُ الصفحات متجاوزة المقدَّمة، وفتحتُ الفصل الأوَّل وبدأتُ بقراءة بداية العبارة المقتبسة واستغرقت فيها إلى أن قاطعني قائلاً: «أخشى بأنه لديَّ ارتباطات هذا المساء يا آنسة ويفر. استمتعي بقراءة الكتاب. وأياً كان الرب الذي تصلِّي له، عليكِ بالصلاة ألا تكوني يوماً دون حب».

كاثرين

كانت بيا الصغيرة تزحف على كوعيها نحو شقيقيها، حين كان مارتن لوثر كينغ يوجِّه خطابه إلى الناس في جميع أنحاء أمريكا، قائلاً: «لا يمكن لنا أن نسير منفردين. ومع مسيرنا، لا بدَّ لنا من أن نقطع عهداً على أنفسنا بأن نسير دوماً إلى الأمام». وقف تحت نصب لنكولن التذكاري، وانبسطت أمامه جموع تصل إلى نحو ربع مليون شخص، تمنَّيتُ لو كنتُ هناك مع أطفالي الثلاثة بدلاً من مشاهدة التلفاز في شقَّة خانقة. غنَّى في ذلك الحدث الجلل كلٌّ من مهاليا جاكسون، وماريان أندرسون، وجوان بايز، وبوب ديلان، وكان صوت مارتن لوثر كينغ يصدح أمام هؤلاء الناس وهو يقول: «قصدنا هذه البقعة المعظَّمة لنُذكِّر أمريكا بإلحاح اللحظة الآنية».

كان أولادي يلعبون على الأريكة لعبة سيَّارات مصنوعة من علب الثقاب. وكنتُ قد قابلتُ مو صدفة في شارع كينغ، أفلتتْ من لسانه بضع تلميحات إلى أنَّ تي كان يقابل نساء أخريات، وأنَّ إحداهنَّ كانت حاملاً. كنت أواجه صعوبة في تجاوز أكبر علاقة حبٍّ في حياتي، وكان مارتن لوثر كينغ يتحدَّث عن الإلحاح والزوابع وقوَّة الروح، ويستمع الناس إليه معاً في صمت غريب. فكّرتُ في الطريقة التي كان الناس في الشارع ينظرون فيها إليَّ وإلى تي وأطفالنا. وفي كلام كينغ بأنَّ المعاناة نتيجة الظلم هي طريق الخلاص، ولم أكن مستعدَّة لقبول هذه الفكرة.

فمعاناة تي نتيجة الظلم لن تكون طريقه للخلاص. وكذلك الحال بالنسبة إلى معاناة والدتي. يتعلَّم الناس أن يتعايشوا مع الأمور التي لا يمكن لهم تغييرها، أو أنهم يموتون بسببها، ولكنها لا تمهِّد الطريق أمامهم للتغيير والخلاص. كنتُ أشاهد وأفكِّر في ذلك الخطاب وسمعتُ جيمي يصيح في وجهي: «أمِّي، انظري إلى بيا».

كانت بيا الصغيرة ترفع نفسها على الأريكة. وأصابع قدميها منبسطة لتحقق التوازن، وقد تحوَّلت ابتسامتها إلى حالة من التركيز. شعرتُ بسعادة غامرة في أن أرى طفلتي الثالثة وهي تكتشف كيفية اتخاذ خطواتها الأولى، وتمنَّيتُ لو أنني أشاهد ذلك بحضور تي.

بعد نوم الأطفال في تلك الليلة، جلستُ بجوار النافذة لأستريح من حبِّهم الدؤوب. هذا هو الوقت الوحيد الذي يتسنَّى فيها للمرء أن يكون لوحده عندما يكون مسؤولاً بالكامل عن الأطفال. التقطتُ لعبة جيمي التي تطلق حبوب البازلاء المجففة وأطلقتها بأقصى طاقتي. في المرَّة الأولى سقطت حبَّة البازلاء على الرصيف. تابعت نفخ البازلاء إلى أن تعلَّمت نفخ خدودي، وضخَّ الكثير من الهواء، لأرمي الحبَّات أعلى وأبعد. كنتُ أحاول استهداف النصب التذكاري لشهدائنا الأبرار. كان بعيداً وعالياً ولم تكن لديَّ أية فرصة في الوصول إليه. دفعتُ كامل جسدي تقريباً إلى خارج النافذة وفكَّرتُ في أنه من الأفضل لي ألا أسقط. فمن سيعتني بالأطفال بعد ذلك؟ تمكنت من رؤية نادي دايموند جيم ومسرح بالاس والكابيتول. وكذلك بيركس وبرج الساعة على الجانب الجنوبي، وفي أسفل الشارع، رأيتُ فندق "رويال كونوت".

تدحرجت إحدى حبات البازلاء على طول الطريق. وكانت والدتي تغادر ورديتها الليلية في الفندق، لوَّحت لي وقالت: «لا بدَّ من أنك تشعرين بالملل!».

ذهبتُ لأجلس على درج المنزل معها. كانت تدخِّن وتتحدَّث، وقالت إنَّ قدمي بيا كانتا تشبهان قدميَّ، وإنَّ جيمي كان مشغولاً جدَّاً دائماً، أما دكستر فهو جاد مثل رجل أعمال، ثمَّ سألتني: «كيف الحال مع عزفكِ في الكنائس؟».

من الواضح أنها كانت وحيدة، مثلي. قلتُ لها: «إنني أتدبَّر دفع الإيجار من خلاله. ولكنني مللتُ من العزف في الكنائس والمدارس وصالات الرياضة. أريد أن أكون جزءاً من عالم الجاز مرة أخرى».

نظرتْ عبر غوربارك، وتمثال الملكة فيكتوريا، وقالت: «لا تتذمَّري يا كاتي، لقد كانت لكِ أيَّامكِ التي عشتِها متجاوزة كلَّ الحدود».

في الأثناء، كان الناس يتقاطرون من مسرح بالاس بعد العرض الأخير الذي حمل عنوان "زنابق الحقل"، خرج الجمهور الراضي والمستمتع إلى الشارع تحت أضواء لافتة المسرح. اخترقت كلمات والدتي قلبي مثل نصل رقيق. فقد كانت لديَّ موهبة تدرُّ عليَّ المال، ولم يسلبني أحد أطفالي بعيداً عني، وليس لديَّ حبيب في الصين. ومع ذلك فقد شعرتُ بأنني مخلوق محتجز في قفص.

وقالت: «هل سمعت بخبر عدم ترشُّح إلين فيرغلوف مرة أخرى؟».

* «مَن هي؟».

- «إنها أول وزيرة في مجلس الوزراء».

* «أمِّي، نيويورك هي المكان الذي يحتضن موسيقى الجاز. لا بدَّ لي من الذهاب إلى هناك».

أطفأت سيجارتها وقالت: «لديكِ ثلاثة أطفال. لن تكوني قادرة أبداً على القيام بذلك الآن».

تحمَّلت البقاء في هاملتون لستِّ سنوات أخرى. وعندما كانت تُتاح

لي الفرصة للحصول على جليسة أطفال، كنتُ أستقلُّ الحافلة إلى تورونتو وأمشي إلى يوركفيل لأتفقَّد حال الموسيقيين والعازفين في "ريفربوت" و"ذا بربل أونيون" و"نايت أول". وجَّهت الصحف الاتهام إلى ذلك الشارع على أنه بلاء أصاب المدينة، وبأنَّ الشباب قد ابتعدوا عن المسيحية وجميع قيم الحياة ذات المعنى. كما أقام كلايتون روبي وبول غودمان عيادة قانونية مجانية أسموها "ذا فيلج بار" لمساعدة الهيبيين على إقامة الاعتصامات. كنا أنا وأمِّي نرى بأنَّ ذلك مضحك حقَّاً. ساعد صديقي القديم روني في تأسيس الفرق الموسيقية وتأمين الحفلات لها. حيث نصَّبه الهيبيون بمثابة رئيس البلدية الفخري، أمَّا هو فقد قال إنه لم يكن في حاجة إلى مناصب فخرية، بل هو في حاجة إلى المزيد من الفتيات، وسألته: «ما قصة أولئك الفتيات في "مينا بيرد"؟». وقال: «هناك شيء غريب في الرجال، فهم يحبُّون الفتيات الموضوعات ضمن أقفاص». لم يكن يتوفَّر لديه أي عمل يلائمني، ولذلك توجَّهتُ إلى جورج جاز روم حيث كان دوغ رايلي يعزف الأرغن، عندما أخذ استراحة، نهضتُ وعزفتُ. اعترض دوغ على ذلك لاحقاً.

قال رجل من الجمهور: «أعجبني عزفكِ. تعالي إلى موتيل راونتاونر في روتشستر في عطلة الأسبوع القادمة. فأنا أساعد ماريان ماكبارتلاند على إقامة شركة تسجيلات خاصة بها. وسوف أعرِّفك عليها».

كنتُ أفكِّر في أولادي وكيف بحقِّ الجحيم سوف أصل إلى روتشستر، ولكنني قلتُ له بكلِّ الأحوال إنني سوف أحضر. كان عليَّ الركض مثل المجنونة لألحق بالحافلة الأخيرة إلى هاملتون، وخلال بضع ساعات سأندفع خارج المنزل للعزف في الكنيسة المعمدانية خلال صلوات يوم الأحد. استمتع دكستر بالذهاب إلى الكنيسة. فهو يحبُّ أي مكان يمكن

أن يتعلَّم فيه شيئاً جديداً. سألني كيف استطاع القدِّيس توما أن يضع أصابعه في جرح يدي رجل ميت، وأراد مناقشة الله، ولماذا علينا أن نصدِّق ما لا نستطيع أن نراه. قلتُ له إنَّ هناك الكثير من الأشياء التي لا يمكن له أن يراها ولكن عليه أن يؤمن بها. كنتُ أفكِّر في ذلك الموضوع وأنا في حافلة غريهاوند، وأفكِّر أيضاً في أنني إذا لم أتمكَّن من الذهاب إلى روتشستر والاجتماع مع أولئك الأشخاص واغتنام تلك الفرصة، فسأكون نكرة وأشعر بالمرارة طوال عمري.

في ليلة السبت التالية، لم تكن والدتي قادرة على رعاية الأولاد، ولم أتمكَّن من تدبُّر جليسة أطفال لهم. قرَّرتُ أن يكون دكستر هو المسؤول عن رعاية إخوته. قلت له إنني سأعود نحو الساعة الرابعة فجراً وإنَّ عليه البقاء في السرير وأن يتأكَّد من بقاء إخوته في السرير كذلك. كان عمره تسع سنوات، وشعرتُ بالسوء حيال ذلك. فتلك هي المرَّة الأولى التي أتركه فيها في حياتي.

استعرتُ سيارة هارولد، وهي كبيرة من نوع ستوديبيكر. لم أكن أحمل رخصة قيادة ولكن تي علَّمني القيادة عندما كان يأخذ سيَّارة الفرقة. كان موتيل راونتاونر في ضاحية هنريتا، وهو يقع إلى جانب وكالات السيَّارات ومراكز التسوُّق. دخلتُ إلى مونتايسلو روم نحو الساعة الحادية عشرة وكان كلُّ شيء قيد الإعداد. كانت ماريان ماكبارتلاند تنهي فقرتها مع مجموعتها الثلاثية المؤلَّفة من عازف الدرامز والذي كان قد عزف مع ثيلونيوس مونك، وبن رايلي وعازف الغيتار مايكل مور. تتحدَّث ماريان بطريقة مميَّزة تدمج بين اللغة الإنكليزية ومصطلحات الجاز. كان وجهها متطاولاً وأنفها بارزاً وذات خصل شقراء وعيون خجولة متأمِّلة، ولم يكن يصعب عليها أن تعزف أيَّ شيء. كانت ترتجل الإيقاعات والألحان، وفي

تلك الليلة جاء أليك وايلدر وأعطاها ورقة موسيقية مكتوب عليها قطعة أَلَّفها خصِّيصى لها، حملت عنوان "فالس الجاز إلى صديقة". استمعتْ إلى عزفي، وأعجبها أسلوبي. وقالت لي: «غادرتُ إنكلترا مع جيمي وكنا نرفِّه عن القوَّات في أثناء الحرب. لكن عند مغادرتي المنزل قالت لي أمِّي إنَّ الأمر سينتهي بي في سقيفة باردة». ضحكتْ وأضافت: «كانت أمِّي على حق».

كان جيمي يشرب كثيراً، طلَّقته ماريان، وبدأت الأمور تنهار عندما تخلَّت عنها شركة التسجيلات التي كانت تتعامل معها.

كان الجميع يستمعون إلى موسيقى الروك أند رول، وكانت موسيقى الجاز تفقد حضورها على الساحة الفنِّية، كما أنَّ النساء مهمَّشات أكثر في الموسيقى. كتب الصحفيون في ذلك الوقت أنَّ المرأة غير قادرة على نفخ وقرع وعزف الآلات مثل الرجل، وأنَّ موسيقى الجاز كانت في حاجة إلى يد قوية، صلبة وعدائية، وليس إلى يد تهدهد المهد. ولكنَّ ماريان لم تكن لتضعف أو تتراخى أمام مثل هذا الهراء. فهي تحمل في داخلها مخزونها الإبداعي، ولديها معارف كثيرون. لم تكن تهتمُّ فيما إذا كنت رجلاً أم امرأة، أسود أم أبيض أو أي شيء آخر. كانت تهتمُّ فقط بكيفية عزفك ومدى براعتك.

قالت لي: «أنا أعمل على إنشاء شركة تسجيلات جديدة وسأسمِّيها "هالسيون". إنه اسم تلك الطيور التي تتحدَّى البحار وتضع بيضها على أعشاش عائمة. أليس هذا جميلاً؟ قدَّم لي شيرمان فيرتشايلد المال والاستوديو».

* «أريد أن أسجِّل معك».

- «لمَ لا؟ تعالي إلى نيويورك. وعندما أؤسِّس شركتي، يمكنني أن

أسجِّل لكِ ما تريدين. بعض النساء يهتممن بشراء القبَّعات. بينما أنا أهتمُّ ببناء شركة تسجيلات».

كانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحاً. شاهدتُ شروق الشمس في طريق عودتي إلى المنزل وأعدتُ السيَّارة إلى فندق "رويال كونوت". كان وجه دكستر الصغير ظاهراً من وراء النافذة وهو يبحث عني. شعرتُ بالسوء، بدا صغيراً وخائفاً. وعندما دخلتُ من الباب سألني بجدِّية: «هل تمكَّنتِ من العزف؟».

* «أجل».

- «كانت تلك هي مرَّتي الأولى».

* «مرَّتكِ الأولى بخصوص ماذا تحديداً؟».

- «رعايتي لكِ».

اضطررتُ إلى أن أشيح بنظري حتى لا يرى دفق دموع الإرهاق والحبِّ والحزن للأمومة المنقوصة إلى الأبد. أوَّل شيء فعلته في صباح يوم الاثنين هو التوجُّه إلى فندق "رويال كونوت" للتحدُّث إلى هارولد.

قال لي: «مرحباً، سيِّدة غودناو. أنتِ نشيطة منذ الصباح الباكر».

* «سأنتقل إلى نيويورك يا هارولد. حان الوقتُ لوضع الأمور في نصابها الصحيح. أريد أن أذهب إلى هناك في أقرب وقت ممكن».

- «كاتي، ليس في مقدوري أن أتدبَّر لك حجزاً في حفلات الجاز هناك».

* «أنا لا أطلب منك القيام بذلك. كل ما أريده هو توصيلة».

- «هل ستتركين والدتكِ وأطفالكِ؟».

* «سآخذ أطفالي معي. أمَّا أمِّي، فلديها حياتها الخاصَّة».

- «لقد أعرتكِ سيَّارتي للتو».

* «هيَّا، هارولد، كلُّ ما أطلبه منك هو يومان، يوم للذهاب، ويوم للعودة. وسائق ومقطورة صغيرة».

وقف واستدار متظاهراً بالانشغال ببعض الأوراق ولكنني كنتُ أعرف أنه كان يفكِّر. عندما شعرتُ بأنه سوف يتهرَّب من الموضوع، بدأتُ بالإلحاح عليه مرَّة أخرى قائلة: «من فضلك، هارولد، ساعدني في الوصول إلى هناك. لدى روني مليون سيَّارة، يمكنك استعارة واحدة منه. أنا ذاهبة لأسجِّل أسطوانة. وعدتني شركة إنتاج بذلك».

* «لماذا تريدين الانتقال إلى هناك؟ كل ما عليكِ القيام به هو تسجيل الأسطوانة والعودة مجدَّداً إلى هنا».

- «ومن سيعتني بأطفالي خلال هذه الفترة، هل ستتكفَّل أنتَ بالانتقال إلى منزلي ورعايتهم؟».

* «هل حصلتِ على عقد؟ ثمَّ ما الذي يجعلك تعتقدين بأنه سيتذكَّركِ عندما تصلين إلى هناك؟ ربَّما كان فقط يعدكِ بذلك ليمارس الجنس معكِ».

* «المنتج هو امرأة. وبكلِّ الأحوال، انسَ الموضوع، لستُ في حاجة إلى مساعدتك اللعينة. وسوف أصطحب الأطفال معي على متن الحافلة».

مهسا

- «ماذا تفعلين في خزانة ملابسي؟».

كانت مونيك تحمل حذاء من خزانتي، وهو المكان الذي أخبِّئ فيه أموالي. وقالت: «أنتِ في حاجة إلى حساب مصرفي».

- «ولكن لِمَ كنتِ هناك؟».

* «كنتُ أبحث عن زوج من الأحذية لأستعيره. لا يمكنكِ ترك أموالك بهذا الشكل. يمكن لشخص مثلي أن يسرقه، وعلاوة على ذلك يمكنكِ الحصول على فائدة على هذا المبلغ».

- «ما هي الفائدة؟».

أخذت يدي وسحبتني من غرفة النوم. ارتدت سترتها وهي ما تزال تحمل حذائي، وركضت إلى الخارج قائلة: «عليكِ بأن تمسكي بي!». قمتُ بمطاردتها على طول الطريق إلى شيربروك وكنا نضحك نحن الاثنتان، توقَّفت أخيراً عند زاوية يوجد فيها ثلاثة بنوك وسألتني: «أيَّ واحد تختارين؟».

كان مبنى "رويال بنك" يضمُّ تماثيل منحوتة في الحجر لأسودٍ جذَّابة تقف على أرجلها الخلفية. أشرتْ إلى ذلك البنك، وقالت لي مونيك: «اختيار جيِّد. هذا بنكي أيضاً». اندفعتْ إلى الداخل ووضعتْ حذائي على

طاولة الصرَّاف وقالت باللغة الفرنسية: «هذه الفتاة في حاجة إلى حساب مصرفي».

قال الصرَّاف: «تحتاج إلى توقيع والدها».

«إنها من باكستان ووالدها متوفَّى. عمُّها يدفع تكاليف كلَّ شيء. أريدُ التحدُّث إلى المدير».

نظر الصرَّاف إليَّ وقال: «لماذا لا تتكلَّمين؟».

ردَّت عليه مونيك: «لغتها الفرنسية سيِّئة».

ثمَّ أفرغت أمامه محتويات حذائي وكان مليئاً بالعملة من الفئات الصغيرة والفكَّة، وقالت: «تحتاج إلى حساب شيكات، فهي ستبقى هنا لمدَّة أربع سنوات».

جاء المدير للتحدُّث إلى مونيك، فقد كانت صاخبة ولفتت أنظار جميع الزبائن، وقال: «إذا أرادت فتح حساب، فيجب أن يوقِّع والدها نيابة عنها».

أجابته مونيك: «مسيو، إنها من باكستان ووالدها قد مات. إذا لم تقبل بأخذ نقودها فسنأخذ حذاءها إلى البنك المجاور لكم».

زمَّ شفتيه كما لو كان يتألَّم، ثمَّ تنهَّد بطريقة درامية وأومأ إلى الصرَّاف.

لم أكن قبل الآن قد كتبت أيَّ شيك في حياتي. لم نستطع أن نقاوم أنا ومونيك موجة الضحك التي اجتاحتنا عندما شرع الموظَّفون بهزِّ الحذاء للتأكُّد من عدم وجود أية فكَّة عالقة فيه، وبدأوا بعدِّ أموالي.

سألتها عندما أصبحنا على الرصيف: «لماذا فعلتِ ذلك؟».

* «هذه هي الطريقة الوحيدة لنحصل على حسابٍ بنكيٍّ خاصٍّ بكِ. وفي كلِّ الأحوال كان عليَّ القيام بذلك بهذه الطريقة. فهو أمر ممتع».

كانت طريقة التفكير هذه جديدة بالنسبة إليَّ.

كان نادي روكهيدز باراديز يضمُّ أطول بار رأيته في حياتي، فيه ثُريَّات ضخمة والتي كانت لتجعل البار يبدو أنيقاً لولا روائح دخان السجائر الكريهة والجعة المسكوبة وعرق الرجال والنساء. كانت فنادق الضاحية تبدو مثل تلك الموجودة في كراتشي، ولكنَّ هذا المكان ينتمي إلى حي ليتل برغاندي. ويقع عند زاوية مونتاني وسانت انطوان، بالقرب من محطَّة السكَّة الحديدية. ذهبتُ إليه فقط لأنني سمعت بأنَّ بول بلي سيعزف هناك.

اقتربتُ منه بعد العرض وسألته: «كيف تمكَّنت من تدبُّر العزف هنا؟».

* «هل تعزفين؟».

- «أجل».

* «هيَّا، أسمعيني عزفكِ».

جلستُ إلى البيانو وعزفتُ، كنتُ معتادة على ضوضاء قرع الكؤوس وثرثرة الحضور، ولذلك فقد عزفتُ بحماس أكبر. كما أنني تعلَّمتُ بعض الحيل مثل الانحناء أكثر نحو مفاتيح البيانو بحيث يسقط شعري إلى الأمام ويتكشَّف ظهري، فقد أخبرتني مونيك بأنَّ ذلك يبدو مثيراً جدَّاً. كنت أعزف بعزم وحماس، وارتحت كثيراً عندما بدأت حدَّة الثرثرة تخْفُتُ وبدأ الحشد بالإصغاء. طلب مني أحدهم أن أعزف أغنية "أنت لا تعرف معنى الحب" وعزفتها فوراً.

عندما انتهيت، قال لي بول بلي: «إن كنتِ في حاجة إلى كسب النقود، فيمكنكِ عزف حفلتين في كلِّ ليلة في هذا الشارع. يمكنني أن أدلَّك على بار "بلاك بوتوم" في نهاية الشارع. وكافيه "سانت ميشيل" التي تقع قبالتنا».

كنتُ قد قرأتُ عن "روكهيدز"، وعن كلِّ العظماء الذين عزفوا هناك. قدِم المدير إلينا وسأل بول: «من هي هذه الفتاة؟».

أجبته: «أنا أبحث عن عمل».

كان ضخماً مفتول العضلات ويمكنه أن يقضي على مجموعة من الرجال إن أراد ذلك. شعرتُ وكأني دمية ورقة بجانبه. عدَّلت من وقفتي وقلتُ: «أنا أعزف في فندق "ريتز"».

ضحك وقال: «حسناً أيَّتها الآنسة القادمة من فندق "ريتز". لقد أعجبني عزفكِ على أية حال».

شعرتُ بشيء من عدم الأمان هناك، ولكنني لم أكن أعرف تماماً لماذا، ومع ذلك فقد أردتُ أن أعزف. بدا الحي حول "روكهيدز" قديماً. واعتادت البارات في هذا الشارع على استضافة عمالقة الجاز من أمثال ارمسترونغ وهوليداي. ولكنَّ ذلك كان منذ زمن طويل مضى وولَّى. حصلتُ على بقشيش جيِّد في "روكهيدز". فقد كان الحضور من الرجال يحبُّون مشاهدة امرأة شابَّة ترتدي لباس الساري وتكشف عن بطنها العاري. كنتُ غريبة وساحرة. ولم أكن قادرة دوماً على فهم ما تقوله الفتيات اللواتي تعملن هناك، فقد كنَّ يتحدَّثن بالفرنسية، ولكننا كنا ودوداتٍ مع بعضنا البعض لأننا كنا جميعاً نفعل الشيء نفسه؛ نكسب المال، ونخدم الرجال، وننسى أنفسنا مع ظلمة الليل. تعلَّمتُ الإيقاعات المظلمة لتلك الأماكن. حيث يذهب معظم الرجال إلى هناك للشرب وممارسة الجنس إن استطاعوا. كنتُ ملفتة للنظر، وكان عليَّ أن أتعلَّم كيف أكون واعية لطريقة نظر الرجال إليَّ. في نهاية ليلتي الأولى، جمعت بقشيشي وارتديتُ معطفي، وتوجَّهت إلى الباب لأغادر، لكنَّ الحارس أمسك بيدي. أفلتُّ منه وضربتُ يده على عضادة الباب.

قالي لي: «رويدك، أنا لا أحاول أن أسيء لكِ، ولكنني لن أدعكِ تمشين إلى البيت وحدكِ».

* «إنه ليس ببعيد».

خرج من الباب الأمامي، صفَّر لسيَّارة أجرة، وقال لي: «اصعدي».

ودفع للسائق أجرته. وعلمتُ بأنَّ كلَّ ما سأجنيه في الساعة الأولى سوف أدفعه كأجرة للتكسي، وعندما تذمَّرت من هذه القصَّة أمام مونيك قالت لي: «هذه نفقات لا بدَّ منها، فقد أصبحت محترفة الآن».

كانت ترى أنني شجاعة لأنني أعمل في شارع سانت انطوان. وقالت لي: «بدأت لغتك الفرنسية تتحسَّن».

* «وعزفي كذلك. يمكنني الآن أن أعزف لمدَّة ساعة كاملة دون تكرار أية أغنية».

عندما أصل إلى المنزل، عادة ما تكون مع أصدقائها الممثِّلين. وتشير إليَّ قائلة: «إليكم مهسا، إنها تعرف كلَّ بار لعراة الصدور في مونتريال»، وأردُّ عليها أنا: «إنها ليست بارات لعراة الصدور. إنها بارات لموسيقى الجاز». لم أكن أشعر بالخجل، بالعكس كنتُ أستمتع بذلك وأحبُّه. وفي فجر أحد الأيَّام، كانت مونيك تعدُّ طبق الكريب مع الجبنة ومربَّى الفراولة، بينما يتحدَّث الجميع عن موطنهم والمكان الذي أتوا منهم، وعن عمل آبائهم، ومصانع الورق، والطرف الشمالي من مونتريال وتجارة الخرق وشيربروك والأعمال.

- «ماذا عنكِ مهسا. من أين أنتِ؟».

* «أوه، أنت لن تعرف كراتشي، إنها مدينة بحرية».

- «إنها قريبة من أفغانستان، صحيح؟ وماذا عن والديكِ؟».

* «لقد تُوفِّيا بحادث سيَّارة. كان والدي مهندس مياه».

كيف يمكن لهم أن يفهموا؟ كان الجميع إما منتشين أو مخمورين. وكانت أفغانستان درب الهبيين. لم يكن أحد يعرف عن باكستان الشرقية

أو الشعب الذي سيُطلق عليه بعد ذلك اسم المهاجرين. تحدّث الجميع عن الحركات النسوية والحقوق المدنية وفيتنام. سمع بعضهم عن بوتو. وكل ما عناه لهم الإسلام هو محمد علي كلاي والقوَّة السوداء والقبضة. لم يكونوا يعرفون شيئاً عن قبائل أمِّي أو الشرف أو الضيافة. لم أقل لهم إنَّ والدي كان أمريكياً. تحدَّثوا أحياناً عن كيبيك والانفصاليين، وعن من كان كندياً فرنسياً خالصاً ومن لم يكن، كما لو أنهم لا يلاحظون أنني كنتُ هناك بينهم. في معظم الأوقات، لم يخطر في بالي أنني مختلفة لأنَّ الموضوع لم يكن يهمُّني ببساطة. كان هؤلاء الأشخاص أصدقائي وكنّا نتشارك كلَّ شيء ونتحدَّث ويطول بنا الحديث عن كلِّ المواضيع، كما أنهم معجبون بموسيقاي، وكنتُ أكسب المال من العزف وهو أمر جيِّد بما فيه الكفاية بالنسبة إليَّ. وفي كلِّ الأحوال فلطالما كنتُ مختلفة.

كاثرين

أرسل إليَّ هارولد سيَّارة ومقطورة صغيرة وصديقه المفضَّل المسؤول عن تنظيم أمور الفرق خلال الجولات، بيل كارلينج، صاحب الصوت العذب. قمتُ بتحميل أربع فرشات وطاولة مطبخ وخمسة كراسي وعلبة من الأواني الفخارية وأربعة صناديق كبيرة تحوي ملابسنا والتلفاز والفونوغراف. كان أثقل صندوق هو الذي يضمُّ أسطوانات الموسيقى. حمل جيمي قاذفة البازلاء لأنَّ والدتي كانت قد أخبرته بأنَّ مدينة نيويورك خطرة. لم يتذمَّر بيل كارلينج ولم يعترض على مساعدتي في نقل الصناديق. بل قال: «لنعتبر أنها مجرَّد ترتيبات لحفلة أخرى»، وهذا جعلني أشعر بالارتياح. سألتني بيا الصغيرة: «هل نحن ذاهبون لحضور حفلة؟». كانت تركض هي وجيمي ذهاباً وإياباً وهما يحاولان مساعدتنا مثل المجانين، ويغنون "نيويورك، نيويورك"، دكستر فقط هو الوحيد الذي كان مكتئباً. لم يكن يريد أن يترك مدرسته، ومعلِّمته المفضَّلة التي أخبرته بأنه يجب أن يصبح محامياً. حاولت إقناعه بأننا سنصبح أقرب إلى أبيه وأنَّ في إمكانه الدراسة وأن يصبح محامياً في نيويورك، كما حاولتُ أن أغريه بركوب سيارة الكاديلاك الحمراء الكبيرة والضخمة. عرَّجتْ والدتي علينا في طريقها إلى البيت من العمل. طلبت من دكستر مساعدة إخوته، وأمرت جيمي بأن يحسن التصرُّف، وطلبت من بيا أن تبقى لطيفة. لم تقل

لي الكثير، ولكنها أعطتني مغلفاً لم أفتحه. كنا قد اعتدنا على إغاظة بعضنا البعض، والتحدُّث معاً كلَّ يوم، وها أنا الآن سأترك كلَّ ذلك وأغادر. كنتُ أسعى إلى الحصول على حرِّيتي. قلتُ لها: «وداعاً أمِّي، سأعود مع الأطفال لزيارتك في فصل الصيف». عانقتها، وقلتُ لها: «سأدعمك دائماً».

* «وأنا سأدعمك دائماً كاتي».

كنتُ خائفة حتَّى الموت من هذه المغامرة، ولكنَّ الأوان قد فات للتراجع الآن. صعدنا جميعنا إلى السيَّارة واستمتعنا بملمس الجلد الأبيض. تساءلتُ كم من المعجبات قد وهبن أجسادهن للموسيقيين في ذلك المقعد الخلفي.

مع توجُّهنا نحو جسر لويستون - كوينزتون، قلتُ للأطفال: «لوِّحوا لمصانع الصُّلْب». قطعنا سيراكيوز ووصلنا إلى هوارد جونسون ذي السطح الأحمر واللافتة التي تقول "28 نكهة".

قال بيل: «حان الوقت لإطعام هؤلاء الأطفال».

* «بيل، قمتُ مسبقاً بإعداد الغداء، وأحضرته معي، كما أنني لا أملك المال لتناول الطعام في المطاعم».

- «لا تقلقي، أحدهم ترك لنا بعض المال في هذه السيارة».

بدأتُ بالاسترخاء والاستمتاع بإحساس المشاهير الذين يركبون السيارات الفارهة ويملكون المال لتناول الطعام في المطاعم. وأعتقد بأننا كنا مشهداً ملفتاً للنظر، فمن جهة شعري الأسود المموج، ومن جهة أخرى أطفالي الثلاثة ذوي العيون البُنِّية وبيل العجوز. تناول الأطفال الهامبرغر، بينما تناولتُ أنا أول طبق محار مقليٍّ في حياتي. ثمَّ أمضينا وقتاً طويلاً ونحن نختار النكهات المتعدِّدة من البوظة؛ اختار ديسكتر نكهة المعكرون، وهنَّأه بيل على شجاعته، واختار جيمي البودنغ المجمَّدة، أما

بيا فقد اختارت نكهة الفراولة، وحاول الصبيَّان إقناعها باختيار شيء آخر كون هذه النكهة متوفِّرة في كلِّ مكان، لكنها قالت إنها تريد تناول شيء تعرف بأنها تحبُّه.

وبينما ننتظر أن ينتهي الأطفال من تناول البوظة، قدَّم بيل لي سيجارة، وأشعلها على الرغم من أنني لم أكن أدخِّن. وهكذا أمضيتُ النصف الأخير من الرحلة، وأنا أدخِّن سجائر بيل في السيَّارة المكشوفة: كنا نغنِّي ونقرأ بصوت عال العلامات الطرقية الأميركية وننظر إلى المتاجر الأمريكية التي تبيع الخمور، مروراً بماونت بوكونو، ستراودسبورغ، ذا أورانجز، جيرسي سيتي، وهوبوكين. كنتُ أفكِّر: «ما هذا الذي أفعله؟ وكيف سأتدبَّر أموري في مدينة نيويورك مع ثلاثة أطفال، هل أنا مجنونة؟». قلتُ لبيل: «لديَّ شعور غريب في معدتي، أشعر بالخوف. قل لي كيف هي نيويورك؟».

توقَّفنا للاستراحة مرَّة أخرى، وفيما كان الأطفال في الحمَّام، أعطاني بيل سيجارة أخرى. وقال لي: «ستجري الأمور كما هو مقدَّر لها، لا تقلقي، ستكونين بخير».

بعد ذلك، رأينا مباني إمباير ستيت، ولوورث، ووالدورف أستوريا. كنتُ أشعر بأنني أكثر حرِّية وأخفُّ وزناً وأكثر سعادةً ممَّا كنت عليه منذ ولادة دكستر. وعندما أصبحنا على جسر بروكلين، سألني بيل: «أين هي وجهتنا يا سيِّدتي؟ ما رأيك بفندق "بلازا"؟ سمعتُ أنَّ فيه موسيقى جاز جيِّدة، ما رأيك؟».

* «ليس لديَّ أدنى فكرة».

-- «حول ماذا؟».

* «حول وجهتنا التالية».

عندما أنزلنا بيل في فندق "واي" في التايمز سكوير، كان قد دفع النقود

لرجل لكي يهتمّ بالسيَّارة والمقطورة الصغيرة، وقال لي: «السيَّارة هي الشيء الوحيد الذي يستحقُّ السرقة».

قلت له: «هل يمكنك رعاية الأطفال بينما أذهب وأعثر لنا على شقَّة؟».

هزَّ رأسه وابتسم بالطريقة اللطيفة نفسها التي كان يبتسم بها طوال الطريق، كنتُ أعرف بأنه يحبُّنا. ولا بدَّ من القول إنَّ الكثير من الناس قد أحبُّوني أنا وأطفالي معاً. أدركتُ أنه يريد العودة إلى هاملتون، إلا أنني كنتُ أستفيد من حسن نيَّته ومن المال الذي دفعه له هارولد.

في ذلك الوقت، كانت نيويورك في حالة يُرثى لها، فقد كانت مدينة مفلسة مليئة بالعاهرات وصالونات الجنس والمسارح الإباحية في تايمز سكوير. أمرتُ الأطفال بأن يشيحوا بأنظارهم بعيداً كلَّما رأينا شيئاً من هذا القبيل. أردتُ العيش في منطقة ذا فيليج حيث تتواجد نوادي الجاز، والإيجار لا يزال رخيصاً.

عثرتُ على شقَّة بغرفتَيْ نوم، فوق بار سيرف ميد في حي وايت راشان. فتحتُ محفظتي لأعدَّ ما لديَّ من نقود. واستنتجتُ أنَّ لدينا ما يكفينا لمدَّة ثلاثة أشهر. وفي الأثناء عثرتُ على قصاصة الورق التي دوَّنت عليها ممرِّضة أمِّي في هاملتون رقم هاتف عيادة عامة، كنتُ قد احتفظت بها طوال كلِّ تلك السنين، واليوم لم أعد في حاجة إليها، رميتها في أحد مجاري مدينة نيويورك.

كانت الشقَّة صغيرة وتحتاج إلى دهان والكثير من التصليحات، ولكنني قبلتُ بها مع ذلك. عدتُ إلى فندق "واي" في التايمز سكوير وأحضرتُ بيل والأطفال والمقطورة الصغيرة، فتحنا الباب وشعرتُ بعيون الأطفال وهي تتأمَّل السقف العالي، وتفاصيل المكان، ويسألون أنفسهم، هل هذا هو المنزل؟ كان حقيراً وقذراً ولكنني أمتلك الآن على الأقل مفتاحاً يتلاءم

مع قفل لمنزل في مدينة نيويورك. وفي نهاية المطاف، لم يكن الوضع هنا أسوأ من الوضع في هاملتون. كان هناك جزء مني يدفعني إلى الجلوس في الزاوية والبكاء، ولكن أمامي طريق طويل لأقطعه قبل أن أتمكَّن من القيام بذلك، فقلتُ لهم بمرح: «هذا يبدو مثيراً جدّاً».

شعرتُ بتردُّد دكستر، وكنتُ أتمنَّى أن يتفاعل معي، لأن أخويه كانا دائماً يتأثَّران به. وأخيراً ابتسم وتبعه أخواه، وبدأوا بالمزاح والضحك وتفقُّد المنزل.

ضحك بيل عليهم، وقال: «أتمنَّى لو أنَّ في إمكاني البقاء والمساعدة».

قلتُ له: «وأنا أيضاً. ولكن قبل أن تذهب، أرجوكَ أن تجلس معنا حول طاولة المطبخ لتشاركنا أوَّل وجبة طعام لنا هنا».

جلس بيل على الكرسي الخامس، ونزلتُ إلى مطعم المأكولات الجاهزة الذي كان يديره رجل روسي اسمه ايغور، قلتُ له إنني جارته وإنه سيراني كثيراً، واكتشفتُ أنه من محبِّي موسيقى الجاز، وقال: «أهلاً بكم في حيِّنا».

أخرجتُ المغلَّف الذي أعطتني إياه والدتي وفتحته. كانت قد وضعت فيه مئة دولار أميركي، دون أن تكتب أية ملاحظة. في ذلك الوقت، كان ذلك المبلغ بمثابة ثروة صغيرة، تكفي لبضعة أشهر إضافية، أعدتُ المبلغ إلى المغلَّف مرة أخرى. راقبني ايغور باهتمام. اشتريتُ أوَّل علبة لي من القهوة السريعة التحضير، وعلبة حليب. كنتُ سعيدة بالعودة إلى شقَّتي الخاصة وقدَّمت للأطفال حبوب الكاكاو بمناسبة أوَّل عشاء لهم في نيويورك على طاولة مطبخنا، وهو أفضل مكان تجتمع الأسرة حوله.

في اليوم الثاني، سجَّلت الأطفال في المدرسة الرسمية رقم 41، على بعد شارعين من المنزل، كنا نمشي إلى المدرسة ذهاباً وإياباً إلى أن حفظوا

الطريق. أعطيت كلاً منهم بضعة دولارات من المال الذي أعطتني إيَّاه أمي. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي تحصل فيها بيا على نقودها الخاصَّة، تفحَّص الأطفال صور الرؤساء الأميركيين وقلتُ لهم: "إنَّ عملتهم ليست ملوَّنة مثل عملتنا الكندية. عليكم التأكُّد فيما إذا كنتم قد حصلتم على ورقة من فئة الدولار أو العشرين دولاراً". كان الأطفال متحمِّسين، وكنا نتوقَّف عند واجهات المحلات التجارية على طول الطريق لشراء الأشياء، عرَّفتهم إلى ايغور وتحدَّثنا إلى أصحاب المتاجر والمطاعم الأخرى وحفظتُ أسماءهم. كانت هناك جو مرح من النكات والمزاح، وكنتُ أحاول كسب بعض الصداقات في الحيِّ كي لا نكون وحيدين.

في الليلة الثالثة، وبعد تنظيف كامل الشقَّة باستعمال أقوى مواد التنظيف في محاولة للقضاء على الصراصير، قمتُ بإعداد العشاء وقراءة قصَّة لبيا الصغيرة، ومن ثمَّ قلتُ لدكستر: «لا بدَّ لي من العثور على عمل، سأذهب لأتفقَّد الأمور في بار سيرف ميد في الطابق السفلي، أنا أعوِّل عليكَ لتهتمَّ بالأمور هنا. قم بقفل الأبواب ولا تسمح لأي شخص بالدخول».

* «حتى أبي؟».

- «من المؤكِّد أنه لن يظهر هذه الليلة. فهو لا يعرف مكاننا حتى الآن. سوف أخبره بعنواننا غداً».

نزلتُ إلى الطابق السفلي لرؤية فرقة "آرت بلاكيز جاز مسنجرز". كانت يداي محمرَّتين من الغسل والتنظيف. لم يكن هناك من يعزف البيانو، توجَّهت مباشرة إلى المنصَّة وجلستُ إلى البيانو وبدأتُ العزف. لم أكن في حاجة إلى قبعة باندينو بعد الآن.

كنتُ في الثلاثين من عمري، وكنتُ أشعر بأنني متقدِّمة في العمر. قال لي آرت بلاكي: «ماذا تظنين بأنكِ فاعلة؟».

* «حضرتُ للاستماع إلى البيانو، ولم يكن هناك من يعزف، فرأيتُ بأنه من الأفضل أن أعزف القليل بنفسي. أنا أسجِّل حالياً مع شركة ماريان ماكبارتلاند الجديدة للتسجيلات».

كنتُ واثقة من قدرتي على العزف. ومن المعروف أنَّ آرت بلاكي كان مهتمَّاً بالعمل مع الموسيقيين الجيِّدين، ولكنه لم يتعامل مع امرأة أبداً.

قال لي: «سنعزف هنا لمدَّة عشر ليال. لا أستطيع أن أدفع لكِ النقود لأنك لستِ جزءاً من العقد الأساسي المبرم. ولكنني سأعطيكِ كامل البقشيش».

كانت تلك بداية مُرضية بالنسبة إليَّ. فقد أصبحتُ عازفة جاز. ولم أعد أمّاً وحيدة، أو فتاة نصف صينية من هاملتون.

سألتُ أحد الموسيقيين لماذا ينادون آرت بلاكي باسم بو، ضحك الرجل وقال: «ذلك مأخوذ من اسم بحينة، وهو اسمه كمسلم. جميع عشَّاق الجاز يعرفون ذلك».

كانت ماريان ماكبارتلاند تعزف في فندق "كارلايل". ذهبتُ إلى هناك وتحدَّثتُ معها. أخبرتني بأنه لا يمكنها القيام بأيِّ شيء بشكل فوري، وطلبت مني القدوم لرؤية الاستوديو الخاص بها في شارع 65.

عندما وصلتُ إلى الاستوديو سألتني: «هل تريدين سماع أول تسجيل قامت به الشركة؟».

كان التسجيل لعزف ماريان بالطبع. وبعد أن استمعنا إلى التسجيل سألتني: «هل ذهبتِ إلى مطعم "ذا كوكري"؟ ماري لو وليامز تعزف هناك».

لم تكن الأمور سهلة أبداً. كنتُ أبحث عن الخضروات المرمية بعد إقفال المحال وأصنع طبق خضار. وأُعدُّ عصيدة من دقيق الذرة. أحياناً كنتُ أضيف القرفة إلى الخبز القديم لتحسين طعمه. وأقنعت الأطفال

بأن تسلية الملوك المفضَّلة هي الفشار. كنتُ أتدبَّر أموري بشقِّ الأنفس. علَّمتُ دكستر كيفية تسخين المعكرونة، وجيمي كيفية إعداد وجبات الغداء والتنظيف. تولَّى الأطفال في صباح يوم السبت أمور الغسيل في المغسلة الآلية في الحي، ومن ثمَّ أدعوهم لتناول الغداء في المطعم الهنغاري، حيث تكلِّفني أطباق الحساء والخبز البولندي خمسة وعشرين سنتاً. كان تاماس، مالك المطعم الهنغاري، يضع أحياناً بضع قطع من لحم البقر على طاولتهم أيضاً. ذهبتُ إلى نادي فانغارد، وحلمتُ بأن أسجِّل معزوفاتي ضمن ذلك الفضاء الجميل المثلثي الشكل والمؤثَّث بالخشب. كما قصدتُ مكاتب شركة "كولومبيا"، وحاولت لقاء منتج التسجيلات هناك ولكن سكرتيرته قالت لي: «هل تعزفين الجاز؟ لمَ لا تتركين نموذجاً من أعمالكِ؟». لم يكن لديَّ نموذج من أعمالي. في المساء، كان الأطفال يجلسون حول طاولة المطبخ، وينجزون واجباتهم المنزلية معاً، كما اعتدت أن أفعل مع والدتي، وكانوا يقرأون لبعضهم البعض من كتابهم المفضَّل "كتاب الأحداث الغريبة".

سأل جيمي: «ما هي فرصة إصابتكَ نتيجة سقوط ضفدع من السماء؟».

أجاب دكستر المنطقي: «صفر».

- «خطأ! يقول هذا الكتاب إنَّ النسبة هي خمسة في المئة».

ضحكوا لأنه لا بدَّ من أنَّ هناك في مكان ما بعض الضفادع التي تسقط من السماء وتصيب أحد الأشخاص ولو كان ذلك بنسبة خمسة في المئة. أحبَّت بيا صورة رجل يسحب سيارة إطفاء مستخدماً أسنانه. وقامت بربط رباط إلى الكرسي، وحاولت سحب إخوتها بأسنانها، كما كانت تطلب مني دائماً أن أحضر لها جرواً. على مدار الأسبوع، كان جيمي ودكستر يتبادلان مهام الأعمال المنزلية، أما بيا فلم يكن يُسمح لها باستخدام

الموقد، على الرغم من أنها كانت تفعل ذلك عندما كانت تظن بأنه ليس هناك أحد ليراها.

كنا نذهب في أيام الآحاد إلى سنترال بارك بغض النظر عن الطقس. أراد دكستر أن يعرف أين يذهب البطُّ في فصل الشتاء. وقلتُ له إنه يذهب إلى الجنوب مثل البطِّ في هاملتون. ولكنَّ جيمي قال له بلهجته النيويوركية المكتسبة حديثاً: «لا تقلق، لقد ذهب إلى حظيرة البطِّ في حديقة الحيوان. حيث يُعامل البطُّ بطريقة جيِّدة في هذه المدينة».

أرهقني موضوع الحصول على ما يكفي من المال لتلبية احتياجاتنا الأساسية من الطعام والملابس. لم أكن قادرة على الخروج والاسترخاء بالقدر الذي كنتُ في حاجة إليه، ومرَّت عليَّ ليال أشعر فيها بأنني أريد تحطيم جميع الأطباق في المنزل، كنتُ محبطة جدَّاً. في تلك الليالي كنتُ أتأكَّد من نوم الأطفال، وأضع أمامي الأوراق الموسيقية وأبدأ التأليف مرَّة أخرى. تدبَّرت وجود جليسة أطفال دائمة في ليالي الأحد، وذلك كي يتسنَّى لي الاستمتاع بقضاء ليلة لوحدي. حيث أذهب دائماً إلى نادي "تين بالاس" الذي يديره صديقي بول باينز في شارع باوري، وأستمع إلى عزف هنري جيمس ثريدجيل وجميس بلود أولمار. كنتُ أتمنَّى أن أعزف هناك أيضاً، وأحياناً كنت أقطع الشارع لأنخرط مع الحشد في بار "فرانسيس هاينز". كان صديقي بول باينز يعيش في كوخ مهلهل على سطح مبنى على الجادة الثانية. أخذني لرؤيته في إحدى المرَّات، بعد أن تفقَّدتُ المكان قلتُ له: «أنت أكثر فقراً مني». وسألته: «هل تعرف أي شخص في فانغارد؟».

* «بالطبع».

- «أريد أن أسجِّل هناك».

مهسا

خلال الأيَّام الدافئة، تُضاء ظلمة هذا المكان الشمالي بتساقط الثلوج، وفي الأيَّام القارسة بأعمدة العادم البيضاء التي تجمَّدت في الهواء، وتزيِّن الأضواء الملونة صناديق البريد والمباني. كنتُ أشعر بالوحدة وأنا أراقب الطلاب الآخرين يذهبون إلى منازلهم في عيد الميلاد.انتشرت الزينة في كلِّ مكان، مع بابا نويل أحمر اللون وغزلان تسحب مزلقة وهمية. كان هناك واحد ذو أنف أحمر محبَّب خاصة بالنسبة إلى الأطفال. يا لها من فكرة غريبة ومخيفة! تلك المتعلِّقة برجل سمين يتسلَّق إلى منزلك ويدخله عن طريق مدخنة طويلة قذرة، ومع ذلك فقد أحبَّ الأطفال تلك الفكرة. أحضر الناس أشجاراً حقيقية كاملة إلى بيوتهم. كنتُ قد قرأت عن هذا الموضوع مع الراهبات عندما كنا ندرس كتباً بريطانية. وفي إحدى الليالي، بعد أن أنهينا عملنا، ذهبتُ أنا ومونيك لشراء أصغر شجرة أمكن لنا إيجادها، أخذناها إلى غرفتي ووضعناها بجانب الجدار، أخرجت مونيك شريط إضاءة من حقيبتها، وزيَّنت به الشجرة، وهتفت قائلة: «فويلا! ها هي أول شجرة عيد ميلاد خاصَّة بكِ!». أعطتني قبعة حمراء لأرتديها، وقالت: «ابحثي عن ساري يطابق هذا اللون عندما تعزفين في المرَّة القادمة. يشرب الناس الكثير من الكحول في عيد الميلاد. وسوف تجنين الكثير من البقشيش. هل تعرفين أيَّة أغانٍ للميلاد؟».

امتلأت أماكن التسوُّق والكنائس أكثر من المعتاد، وأقام الناس الحفلات وتناولوا الجبن والخبز المحمَّص والعديد من الحلوى في كلِّ مكان.

شعرتُ بأنني غريبة، وتذكَّرتُ أبو وبيتش لاكشري في عيد الميلاد، والموسيقى التي علَّمني إياها عن الملوك والرُّضَّع. كنتُ أحبُّ بشكل خاص أغنية عن ولد فقير كان عازف درامز. فكَّرت أيضاً في مور والعيد في قريتها، حيث تمسك بيد والدتها وتشاهد دماء الماعز وهي تنساب على الأرض، وتفرح بالملابس الجديدة التي اشترتها من أجل العيد. عندما استفسرت من أمِّها عن سبب تقديم الأضحية أمام الجميع في وسط القرية، ضغطت والدتها على يدها بقوَّة، وقالت: «اسكتي!».

* «ولكن لماذا هنا؟».

همست والدتها بلغة الباشتو: «كوني هادئة! جدُّك الأكبر ذبح ابنته المولودة حديثاً في هذه البقعة بالذات لأنه لم يرد أن تكون وريثته أنثى. هذا هو السبب وراء إقامة كلِّ طقوس الذبح في القرية هنا».

اشتريتُ تذكرة حافلة إلى مدينة نيويورك بحيث يكون لديَّ أنا أيضاً مكان أذهب إليه، ولأنني كنتُ أريد دائماً الاستماع إلى موسيقى الجاز الأميركية.

مشيتُ من التايمز سكوير إلى فيليج غيت في شارع بليكر. كان جميع المشاهير يعزفون هناك، من أمثال إيرل هاينز ونينا سيمون وبيل إيفانز. كان المكان خالياً ولكنني صعدتُ إلى الطابق العلوي على أيِّ حال. قابلتُ رجلاً ملتحياً يرتدي نظَّارات ويتحدَّث إلى بعض الأشخاص الذين كانوا يرتِّبون الطاولات في المكان. قال: «المكان مغلق الآن».

* «هل أنت آرت دلوغوف؟».

- «هو بعينه».

* «هل يمكنني العزف هنا؟».

ألقى نظرة متفحِّصة وتأمَّل ملامح وجهي، وحقيبتي. ثمَّ أومأ لي لأذهب إلى البيانو، توجَّهتُ إليه، جلستُ وأخذتُ نفساً عميقاً وبدأتُ العزف. سرعان ما أضفت المزيد من الزخم إلى عزفي، فقد كان لا بدَّ لي من لفت انتباهه. بعد أن انتهيت سألني: «إلى متى ستبقين في المدينة؟».

* «بضعة أسابيع».

- «هل لديكِ مدير أعمال؟».

* «لا».

وبذلك حصلتُ على أوَّل حفلة لي في نيويورك. سُمح لي، على مدى ثلاث ليال، بالعزف إلى أن يحين موعد عزف لاري كوريل. وفي وقت لاحق، اعترف لي بأنه كان يسمح لي بالعزف لأنني فاجأته. في تلك الأيَّام، حصلت معي الكثير من الأمور بمحض الصدفة. وكان الجميع يتعاونون مع بعضهم البعض، ويسود جوٌّ حميميٌّ جدّاً. حيث يعزف الجميع موسيقى بعضهم البعض وهذا ما فعلته أيضاً. اعتاد أبو على القول: «بوركيوباين، أفضل الموسيقيين دائماً ما يسرقون موسيقى أولئك الذين يعزفون بطريقة أفضل».

سألت آرت: «هل قمت بتأليف أغنية "مدينة كانساس"؟».

* «أنا لا أؤلِّف الأغنيات. حصلتُ على تلك الأغنية من ليتل ويلي ليتلفيلد. ويمكنك عزفها».

كنت أستطيع سماع أبو يقول لي: «ذلك عظيم، أليس كذلك؟ أن تعزف فتاة مغرمة بموسيقى الجاز والبهادا، قادمة من كراتشي وذات أصول

أفغانية - أمريكية، أغنية "مدينة كانساس" وكأنها تملكها. أليس هذا عالماً رائعاً لتعيشي فيه يا بوركيوباين؟ عليكِ القيام بذلك».

***

في أول ليلة عزفتُ بها في "فيليج غيت" ارتديتُ لباس الساري مثلما كنتُ أفعل في "روكهيدز"، ولكن كان هناك خطب ما. كان الجميع يثرثرون ويقرعون كؤوسهم، ولم أظن أنَّ هناك شخصاً واحداً يستمع إلى عزفي، ببساطة لم أكن قادرة على لفت انتباههم. اقترب آرت مني عندما أنهيت عزفي وقال: «رائع!». أظن أنَّ بعض الأكاذيب هي مثل الدواء، يُقصد منها تضميد الجراح. كان لزاماً عليَّ أن أبقى لأثبت نفسي وأنجح. ذهبتُ إلى الحمَّام وبدَّلت ملابسي وارتديتُ بنطال الجينز، استمعتُ إلى كوريل، وبعد ذلك نزلتُ لسماع آرت بلاكيز جاز مسنجرز.

كانت تلك هي الليلة التي التقيتُ فيها كاثرين.

كانت ترتدي قبعة سوداء ويداها ضخمتان مثل يدي الرجال، وطويلة القامة. عندما جلستْ إلى البيانو بدت مثل علامة استفهام. كانت تتماهى مع الدرامز وتمتلك إيقاعاً مثالياً، وقد ألهمني الاستماع إلى عزفها مع الفرقة الكثير من الأفكار. كنتُ في حاجة إلى أن أتوقَّف عن الاختباء وراء دور الفتاة الغريبة من باكستان. وعندما توقَّفت الفرقة لأخذ قسط من الراحة، صعدتُ إليها وقلتُ لها إنني أحببتُ عزفها وإنني كنتُ أعزف في الطابق العلوي لبضع ليال. وأضفتُ: «لقد استمعتُ إلى تسجيل لكِ مع فرقة مو بيلسن».

استغرقت عيناها الجدِّيتان في تأمُّل عينيَّ. وقالت: «عيناكِ رماديتان».

أومأت برأسي موافقة. سألتني: «كيف تمكنتِ من العزف هناك؟».

* «قمتُ بسؤال آرت إذا كان من الممكن لي أن أقوم بذلك».

تقدَّم منها رجل طويل القامة يحمل حقيبة ساكسفون، قالت لي: «أراكِ لاحقاً»، وغادرت النادي معه. عدتُ بمفردي إلى غرفتي في فندق "واي"، وشعرتُ بضجيج المدينة في الخارج. سهرتُ على إعداد مجموعة جديدة من الأغاني، فقد كان جمهور "كوريل" يحبُّ الفنِّيات وكلَّ ما هو معقَّد. قرَّرتُ أن أعزف أعمال تشارلز مينغوس وباد باول. استلقيتُ في السرير وتمنَّيتُ أن أقع في صدع مظلم. ماذا لو كنتُ نكرة في نيويورك؟ ما الذي كنت أصلح للقيام به؟ العزف لمدمني الحشيش في شارع سانت أنطوان! وفي تلك الليلة اكتشفتُ سبب تسكُّع الرجال حول التايمز سكوير، فقد كانوا وحيدين حتى الموت.

في الليلة التالية ذهبتُ إلى "فيليج غيت" وارتديت الجينز وبروتيلاً ضيِّقاً، وتركتُ شعري مرخياً مثل كاثرين، وارتديتُ أقراطاً مثلها. عزفتُ بحماس، وبدأت حدَّة الثرثرة تخفُّ وبدأ الناس بالاستماع، تماماً مثل السحر.

قال لي آرت: «لقد أسرتِهم هذه الليلة».

في ليلة الأحد، رأيتُ كاثرين وهي تستمع إلى عزفي من المدخل. ومع اقتراب نهاية فقرتي، وقفتُ وقلتُ للحشد: «هل تصدِّقون ذلك؟ كاثرين غودناو حاضرة هنا معنا. أرجو أن تتفضَّلي وتعزفي لنا».

توقف الجميع عن الكلام ونظروا حولهم، وهم يخشون أن تفوتهم رؤية أحد المشاهير على الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون من تكون. كانت كاثرين مؤدِّية موسيقية حقيقية. أزالت من عينيها ملامح المفاجأة وصعدت مباشرة وكأنها نجمة. أفسحتُ لها المجال لتجلس إلى البيانو بجانبي وبدأتُ بعزف أغنية "أوراق الخريف"، نشرت يديها الكبيرتين على مفاتيح البيانو وبدأت مشاركتي بالعزف، كنا نستمع إلى بعضنا البعض مثل

المجانين وبدأت كلُّ واحدة منا تتفاخر بمهاراتها الخاصة. كانت أيدينا تتصادم أحياناً، وكل واحدة منا في حاجة إلى بيانو خاص بها، أدهشنا الجمهور في تلك الليلة، والذي كان مأخوذاً بنا حقّاً.

قال آرت: «أحبَّ الحضور أداءكما أنتما الاثنتين. هل تودَّان العزف في الأسبوع المقبل؟».

بالطبع كنا نودُّ ذلك.

قالت لي كاثرين لي: «هل لديكِ بعض الوقت لتناول القهوة؟».

من المؤكِّد بأنه كان لدي وقت لكلِّ شيء، فسريري في فندق "واي" يمكنه الانتظار، وهو المكان الأخير الذي أردتُ أن أكون فيه.

مشينا إلى "سيرف ميد"، واستمعنا إلى من كان يعزف هناك لبعض الوقت، ثمَّ قالت: «دعينا نذهب إلى منزلي، أطفالي هناك. هيَّا، إنه في الطابق العلوي».

كانت شقَّتها عبارة عن طاولة المطبخ. ألقت قبَّعتها باستهتار، وتسلَّلت إلى غرفة نوم الأطفال. عندما خرجت سألتني عن المكان الذي قدمتُ منه.

قامت بإعداد القهوة السريعة التحضير، وتحدَّثنا عن الموسيقى وهاملتون ومونتريال. لم يكن قد مضى على وجودها في نيويورك سوى بضعة أشهر. قالت لي: «أنا أعزف في أيِّ مكان يوفِّر لي النقود. أين سمعتِ تسجيل فرقة مو بيلسن؟».

* «في المكتبة في جامعة "ماكجيل". كنتِ تعزفين مع عازف ساكسفون. كان أداؤكما عظيماً».

- «لم أفكِّر في تلك الذكريات منذ سنوات».

* «لم أسمع تلك القطعة من قبل. ما اسمها؟».

- «قمتُ أنا بتأليفها. اسمها "اكذبي كذبة امرأة حقيقية". أمَّا عازف الساكسفون فهو والد أطفالي».

* «كان لي حبيب في كراتشي».

- «حسناً، لا يكون العشَّاق قريبين منا دائماً».

وضعت معزوفة "هلال" لكولترين بصوت منخفض جدَّاً. لم أكن قد سمعتُ تلك المعزوفة من قبل، وفي تلك الليلة أدركتُ كم الحياة جميلة وكم أريد العيش فيها! أودُّ أن ألتقي الموسيقيين، وأن أؤلِّف الأغاني، وأن أسهر طوال الليل مع غرباء وأستمع إلى الموسيقى وأكسب لقمة عيشي من الموسيقى. كما أودُّ أن أكون جزءاً من جمال العالم. نظرتُ عبر النافذة إلى ألوان "فيليج غيت" الزرقاء والسوداء وضوء النيون الساطع خارجاً، ويداي ملفوفتان حول فنجان ملوَّن مليء بالقهوة السريعة التحضير. كانت الساعة الثالثة فجراً، وقالت كاثرين: «لا بدَّ من أن أنام قليلاً. يمكنكِ البقاء هنا إذا كنتِ لا تريدين السير إلى فندق "واي"».

أرتني سريرها المزدوج القابع وراء ستارة في غرفة المعيشة. وقالت: «هل تريدين كنزة قطنية مريحة للنوم؟». وأعطتني واحدة من سلة الغسيل الموجودة في زاوية الغرفة.

قالت: «أحياناً في فصل الشتاء، وأحيانا في فصل الخريف، أنام بين الأغطية دون ارتداء أي شيء على الإطلاق».

تناولتُ الكنزة منها بارتباك. وقالتْ: «اعتادت أمِّي أن تنشد لي هذه الكلمات بينما أرتدي ملابس النوم».

نظّفتُ أسناني بإصبعي، بينما اطمأنت هي مرة أخرى على أطفالها النائمين، ومن ثمَّ اندسَّت في السرير إلى جانبي. استدارت لجهتي، وقالت: «علينا أن نعزف معاً مرة أخرى». بدأت أنفاسها تطول وغرقت في

النوم. تلك كانت الطريقة التي تنام فيها كاثرين. مثل فلس يغرق في نافورة.

خلال تلك الأسابيع الباردة في نيويورك. كنتُ أتجوَّل في حي ذا فيليج. وسنترال بارك. وأخرج كلَّ ليلة للاستماع إلى الموسيقى. سألتني كاثرين: «هل لديكِ أيُّ مكان محدَّد تقصدينه لقضاء عيد الميلاد؟». ودعتني للانضمام إليهم.

اشتريتُ لعبة تُسمَّى مونوبولي، لأنَّ العامل في المتجر أخبرني بأنَّ الأطفال هنا يحبونها. كما اشتريتُ البرتقال والشوكولاتة لأنني رأيتُ في مترو الأنفاق صوراً لهذه الأشياء موضوعة ضمن سلة عيد الميلاد. عندما وصلتُ، كانت كاثرين قد زيَّنت شجرة صغيرة في شقَّتهم، لكن جيمي قد أوقعها، ولكونها صغيرة فقد قمنا بإصلاحها بسرعة. ساعدتها على إعداد العشاء، المكون من الحبش مع الخبز والزبدة وفي داخله الكرفس والتفَّاح. قالت كاثرين: «كلَّفني هذا الطائر ثروة، والشكر للربِّ لأنك أحضرتِ الحلوى معكِ». دخل تي، وسُعِد الأطفال بوجوده هناك وتنافسوا حول من سيجلس بجانبه. اقترب من كاثرين ووقف وراء ظهرها ولفَّها بذراعيه وقال: «عيد ميلاد سعيد، حبيبتي». ذكَّرني المشهد بمور وأبو، فقد كانا يبدوان وكأنهما لوحدهما مهما كان المكان يعج بالأشخاص. شاهدتُ الأطفال وهم يراقبون والديهما، وكنتُ أعرف تماماً ما هو شعورهم. قلتُ لهم: «أعطوني أيديكم، وسوف أعلِّمكم رقصة حبٍّ من كراتشي، عقدنا حلقة حول كاثرين وتي وركضنا حولهم بينما كنتُ أغني أغنية "البيتلز" "الحب، الحب، الحب". لعبنا بعد العشاء لعبة المونوبولي. وفي نهاية الليلة، قال الجميع إنهم محظوظون لأنني شاركتهم في أوَّل عيد ميلاد لهم في مدينة نيويورك، أخبرتهم إنني محظوظة كذلك لكوني معهم في أوَّل عيد ميلاد في حياتي. في اليوم التالي، طلبتُ من آرت تخصيص حفلة

لي ولكاثرين في شهر شباط. وسألته: «هل يمكنكَ تدبُّر وجود بيانو لكلِّ واحدة منا؟».

* «لا أستطيع إحضار بيانو آخر إلى هنا».

-- «إذاً سوف أحضر شيئاً بنفسي».

* «قومي بما ترينه ملائماً».

قالت كاثرين: «عظيم. من الجيِّد أن أعزف معكِ وأكسب بعض المال. فأنا في حاجة إلى شراء حذاء باليه جديد من أجل بيا، فقد تلف حذاؤها القديم. كم سيدفع لي آرت؟ يمكنكِ البقاء هنا إذا كنتِ لا تمانعين النوم على الأرض».

كانت بالفعل تتدبَّر كلَّ الأمور.

عند عودتي إلى مونتريال، عزفتُ أمام جان مستخدمة بعض التقنيات الجديدة التي تعلَّمتها من كاثرين. غمزني وقال: «يبدو أنكِ استفدت من زيارتكِ إلى نيويورك، أليس كذلك؟».

كان شعره قد أصبح أطول ومربوطاً إلى الخلف الآن. وأضاف: «قمتُ بالترتيب لنعزف في نادي "إسكوير" في ليالي الاثنين».

* «لا أستطيع أن أفعل ذلك. فقد عزفتُ في "فيليج غيت" في نيويورك، ولديَّ حفلة أخرى هناك الشهر المقبل».

توقف عن غمزه الساحر. وقال: «تعالي لتناول القهوة، أريد أن أسمع كلَّ شيء عن ذلك الموضوع».

حصلتُ على أولى آلات المينيموغ دي[1] لأنه كان من السهل حملها. كنا نقيم أنا ومونيك الحفلات، ونعدُّ الحساء الرخيص والبرياني مع الخضار

---

1 - جهاز مزج تناظري أحادي الصوت يشبه الأورغ.

والزعفران. ثم يأتي جان دائماً مع الكونتراباس ويبقى حتى النهاية ويدخِّن ويشرب كثيراً، ونعزف معاً. في إحدى الليالي، حاول أحد الممثِّلين من أصدقاء مونيك البقاء والنوم عندنا. قال لي: «أعتقد بأنني واقع في الحب». فقلتُ له: «أنت منتشٍ وسكران فقط. ساعدني على التنظيف».

أعطيته مكنسة. وبدأتُ بجمع الأطباق والزجاجات الفارغة. كان منزلنا ينضح برائحة البيرة المسكوبة والدخان، وكان جان يجلس في المطبخ ويحتسي الشاي في محاولة للبقاء مستيقظاً. قلتُ له أن يذهب إلى المنزل أيضاً، لكنه قال: «لن أترككِ وحدكِ مع هذا الرجل». بعد أن انتهيتُ من غسل الأطباق كان الممثِّل يجول في الردهة، ثمَّ نام في سريري، نظرتُ إليه وفكَّرتُ في أنني لا أستطيع تحريكه، لذلك عدتُ لأنام على الأريكة ولكن جان كان نائماً هناك. وضعتُ معطفاً فوقه، تقلَّب وأمسك بيدي، قائلاً: «مهسا، تعالي إلى هنا». قلتُ له: «عُد إلى النوم. فأنت أستاذي». ظننتُ بأنه لن يتذكَّر ما حدث في الصباح. وكنتُ قد سمعتُ بأنه ينام مع الكثير من الطالبات، ولكنني لن أكون سوى الطالبة التي يعزف معها حفلات منتظمة. كان الشبَّان هنا ينجذبون إليَّ، فقد كنتُ بالنسبة إليهم مثيرة وغريبة. في ذلك الوقت، كان الجميع يجرِّبون ويكتشفون مع بعضهم البعض ولم يكن هناك أحد ليردعني، وفي نهاية المطاف أسعدني أن أكون مرغوبة إلى هذه الدرجة. عندما يغازلني الشبَّان، كنتُ أفكر دائماً في كمال. وددتُ لو أستطيع زيارة كراتشي، والبقاء لمدَّة ساعة أو نحو ذلك، ثمَّ أعود. عملت مونيك في مسرح "سنتور"، وكتبت مسرحيَّتها الخاصَّة، بعنوان "سيمون وجان بول"، لصالح مسرح "ريدو فير". تبدأ مسرحيَّتها التي عُرضت، مع سيمون دي بوفوار وهي تنال المركز الثاني في امتحان الفلسفة الشامل لأنَّ اللجنة قد قرَّرت سِرَّاً منح الجائزة الأولى إلى سارتر. حجَّتهم في ذلك

أن الرجل في حاجة إلى هذه الجائزة أكثر من أجل مهنته. تمشي سيمون باتجاه الجمهور وتهمس على خشبة المسرح: «الرجال محكوم عليهم بالحرِّية، والنساء محكوم عليهنَّ بالمركز الثاني. الزواج هو نظام قمعي ذكوري بال. ومؤسسة محكوم عليها بالفشل».

لم أكن أرى أية دقَّة في كلام مونيك، ولكنها قالت إنه ليس الوقت الملائم للدقَّة. وعلى أية حال فإنَّ النساء الحاضرات بين الجمهور كنَّ يضحكن ويتغامزن. قالت لي مونيك: «عليكِ تأليف موسيقى مسرحيَّتي القادمة»، وبذلك بدأتُ بتأليف الموسيقى المسرحيَّة. تعلَّمت ما الذي يمكن لآلة مينيموغ دي أن تفعله، وكنتُ أعزف وأقرأ الشعر العربي خلال حفلاتنا التي نقيمها في المنزل بينما يدخِّن الجميع الحشيش. قال جان بحماس: «أصبحت الآن أفهم اللغة الفارسية!». ورقص مستخدماً وشاح أحدهم. تدبَّر أمر تسجيل حفلة لنا مع شركة ميتاميوزيك. حيث كان يعزف وينتج العمل في الوقت نفسه. كان هذا أوَّل تسجيل لي منذ ذلك التسجيل الذي قمتُ به مع أبو عندما كنتُ لا أزال طفلة. افتتحنا التسجيل بصوتي وأنا أتلو شعر علية بنت المهدي[1]، التي نهاها أخوها عن ذكر أسماء عشاقها من الرقيق في أغانيها. حيث تقول:

كتمتُ اسْمَ الحبيبِ عَنِ العبادِ ورَدَّدتُ الصَّبابةَ في فؤادي
فوا شوقي إلى بلدٍ خَلِيٍّ لَعَلِّي باسْمِ مَنْ أهوى أُنادي

طلبنا مئة شريط كاسيت لذلك التسجيل، أهدينا بعضها إلى الأصدقاء، وتركنا بعضها في متاجر التسجيلات، وأرسلناها إلى محطَّات الراديو. كما أرسلتُ واحداً إلى كاثرين. التي أرسلت إليَّ بالمقابل قائمة جديدة لما سنعزفه في فصل الصيف. أخبرتني بأنها تتدبَّر مهامها الكثيرة بشكل جيِّد،

---

1 - شقيقة الخليفة العباسي هارون الرشيد، تعرف بلقب العباسية. (م).

وبأنني يجب أن أقرأ الشعر في نيويورك أيضاً، وقَّعت رسالتها بعبارة "سلام، حبيبتي". كنتُ أعزف مع كاثرين مرَّة في كلِّ شهر عند "فيليج غيت"، وأنام في منزلها على الأرض. بدأ جيمي بإحداث المشاكل في المدرسة، حيث يجري طرده إلى البيت. وفي إحدى المرَّات، حطَّمت كاثرين كوباً في حوض المطبخ وجلست لتبكي. نظرتُ إلى أطفالها ونظروا هم إليَّ وأخيراً قالت كاثرين: «جيمي، ماذا نحن فاعلون بحق الجحيم؟». كان متوتِّراً ومرتبكاً جدَّاً ولم يستطع الرد، ثمَّ رفعت كاثرين رأسها وكأنَّ شيئاً لم يحدث، وقالت: «دعونا نعلِّم مهسا كيف تتزلَّج على الجليد!».

وبذلك ذهبنا إلى سنترال بارك، واستأجرنا أحذية التزلُّج، واختبرت ذلك لأوَّل مرَّة في حياتي. أمسكني كلٌّ من دكستر وبيا فيما كنتُ أحاول التوازن على هذه الشفرات السخيفة الصغيرة. وكان جيمي متجهِّماً وهو يجلس على المقعد. قالت كاثرين: «لا أعرف ماذا يصيبه أحياناً. منذ أن انتقلنا. أعتقد بأنه كان يظنُّ بأن تي سيعيش معنا. عليَّ دائماً أن أحاول إبعاده عن ارتكاب الأمور السيِّئة».

سمحتُ لجيمي بالعزف على المينيموغ الخاص بي وبدأنا بالارتجال. كان لديه إحساس كبير بالإيقاع، مثل كاثرين. لاحقاً، قمتُ بقصِّ شعري بنفسي وسمحت لجيمي بأن يحمل لي المرآة. قصصته مثل شعر ميك جاغر ولكنني تركته طويلاً بما يكفي لأكون قادرة على رفعه عندما أرتدي الساري. أصبح لديَّ الآن مظهران مختلفان. كنت أستمتع بقضاء عطل نهاية الأسبوع في نيويورك، وأحبُّ لحظة وصولي إلى محطة الحافلات ورائحة الخبز والعادم. قالت لي كاثرين: "سوف أتدبَّر تسجيل حفلة لنا تعزف كلٌّ واحدة منا فيها على بيانو خاصٍّ بها. سوف أرسل إليك ما سنعزفه».

كاثرين

طرح جيمي سؤالاً: «هل هناك سحرة يتحكَّمون بالثعابين؟».

ركله دكستر وقال: «إنهم موجودون في الهند».

قالة مهسا ضاحكة: «رأيت سحرة ثعابين على الشاطئ في وطني. وهم يضعونها في سلال كبيرة».

كنتُ قد وصلتُ للتوِّ من العزف في دروس الباليه، وكان دكستر يساعد مهسا في طبخ الأرزِّ والدجاج مع الكزبرة التي كانت تزرعها في منزلها وأحضرتها معها.

سأل جيمي: «هل الأفاعي سامَّة؟».

ردَّ دكستر: «إنها أفاعي كوبرا، أيُّها الغبيُّ، وهي سامَّة بالطبع».

- «ولكن هل يقومون حقّاً بتنويمها مغناطيسياً؟».

قالت مهسا: «أخبرني عمِّي إنهم يخيطون فمها بشكل شبه كامل بحيث يسمحون للسانها فقط بالخروج. فالسم يأتي من فكيها فقط. وبذلك يعتقد الناس بأنها خطرة ولكنها في الحقيقة ليست كذلك».

قالت بيا: «هل حقّاً يخيطون أفواهها؟».

* «أجل، إن ذلك قاسٍ للغاية».

شعرنا جميعنا بالرضى لحصولنا على هذه المعلومات الغريبة. كنتُ

أحبُّ تلك السنوات التي أمضتها مهسا معنا، حيث كانت تزورنا في عطلة نهاية الأسبوع. وكان حضورها لا يشبه أيَّ شيء اعتدتُ عليه، فمنذ طفولتي كان معظم الأطفال في حيِّي من الصِّبْية، كما كنتُ أعزف دوماً مع الرجال ضمن الفرق الموسيقية. ثمَّ جاءت مهسا، ذات الموهبة المتميِّزة، وأحبَّت أطفالي ومدَّت لي يد المساعدة. كانت تحترمني. وكنت على طبيعتي أمامها. لم أحظَ طوال حياتي بصديقة مقرَّبة، إلى أن وجدتُ مهسا.

كنا نذهب مع الأطفال للاستماع إلى جورج هاريسون ورافي شانكار في حفل بنغلاديش الذي كان يُقام في "ماديسون سكوير غاردن". وعندما أخذتُ الأولاد لزيارة هاملتون لمدَّة أسبوع حلَّت مهسا محلِّي للعزف ضمن ثلاثي موسيقي. قلتُ لها: «لا تسرقي حفلتي مني». ضحكت عندما سمعت ذلك. كانت تدرس على طاولة المطبخ، وكنت فضولية لمعرفة كتبها وما تدرسه. أطلعتني على مواد دراستها والتي تشمل تاريخ الموسيقى، والتناغم، والتأليف. تمنَّيتُ لو أنني درستُ أنا كذلك، لكنها قالت لتجعلني أشعر بحال أفضل: «يمكنكِ أن تدرسي هذه المعلومات».

وعندما ينام الأطفال، كنا نجلس ونتحدَّث طوال الليل.

- «لماذا انفصلتِ عن تي؟».

* «لم تنجح علاقتنا بعمله مع الفرقة وذهابه في جولات موسيقية، وبقائي أنا في المنزل. قمتُ مرَّة برمي ملابسه من النافذة في كيس من الورق. وجُنَّ جنونه».

- «هل تشتاقين إليه؟».

* «أراه بما فيه الكفاية. فهو لا يزال والد الأطفال وأنا ما زلتُ أحبُّه. نحن مثل البطِّ الغواص الذي ينفصل عن شريكه في فصل الشتاء ويعود في كلِّ عام إلى بحيرة التعشيش نفسها، وإذا ظهر الشريك فإنها يعودان إلى

بعضهما البعض مرَّة أخرى. هذا هي حالنا أنا وتي، فنحن نخوض غمار الحياة منفردين. ماذا عنكِ؟».

- «وقعتُ في الحبِّ في كراتشي، ولكنني كنتُ صغيرة جداً، وأردتُ أن أكون حرَّة. ولكن ما هو البط الغواص؟».

كنتُ أحبُّ تلك الأيام والليالي مع مهسا. وأستمتع بشتَّى أنواع المأكولات التي تجيد طبخها.

كان موضوع تسجيل أسطوانة موسيقية يشغل بالي. فهو السبب وراء انتقالي إلى هنا. كنتُ لحوحة، ولم أملَّ من ترك رسائل لماريان، والتصرُّف مثل الأطفال. اتصلت بي في أحد الأيَّام لتقول: «اسمعي، لديَّ أربعة موسيقيين، ماري أوزبورن، في ريد، لين ميلانو، ودوتي دودجيون. حصلتُ على آلتي بيانو. تعالي لحضور البروفة غداً، إذا جرت الأمور على ما يرام سنسجِّل في الأسبوع المقبل».

أنزلتُ سمَّاعة الهاتف من يدي،كنت مصدومة. تأمَّلت الغرفة من حولي ورأيتها أكثر إشراقاً. سمعتُ صفارات الإنذار في الشارع. من المؤكِّد أنها تنقل مصاباً أو جثَّة، ولكنني كنتُ في عالم آخر. فأنا سأعزف مع ماري أوزبورن، عازفة الجيتار الموهوبة التي انتقلت إلى بيكرسفيلد حيث يعمل زوجها. وسأعزف مع عازفة الساكسفون في ريد، التي عزفت لعشرة أسابيع في "روني سكوت" في لندن، ولم تظهر أمام الجمهور منذ عشر سنوات. وسأكون كذلك مع دوتي دودجيون، عازفة الدرامز الأسطورية. بدا لي كل شيء في أحسن حال، لم تعد تقلقني وظائف جيمي المدرسية المنسية والمرمية على الأرض، فأموره ستكون على ما يرام. بيا في حاجة إلى ثوب رقص جديد، لكنني سأتدبَّر وسيلة لأدفع ثمنه. وكلُّ ما لديَّ في المطبخ هو علبة معكرونة ونصف علبة من الحبوب وأربع حبَّات موز وثلاث تفاحات

وكيس بطاطا وبصل، ولكنَّ كلَّ شيء سيكون في أحسن حال. نظرتُ من النافذة وكانت نيويورك أفضل مكان في العالم للعيش فيه، هنا والآن. إنه أوَّل تسجيل لي. لقد حان دوري. لم تعد تهمُّني الأطباق المتَّسخة، وسخام المدينة على النوافذ. أنا متحمِّسة جدَّاً لدرجة لا أستطيع معها أن أتنفَّس، إلى من سأنقل هذا الخبر؟

كان تي في المدينة بالطبع. فقد كان الجميع يعزفون في نيويورك. وهو يعزف في "استوديو ريفبيا". وبشكل ما فقد كنتُ أغار من ذلك. كما كان يعزف كذلك في "ستانلي" و"أنيكس". كان جزءاً من المشهد الموسيقي والموسيقيين الذين يعزفون طوال الليل ويدخِّنون ويبدعون، في ذلك الوقت كانت الموسيقى حرَّة جدَّاً. سمعتُ الكثير عنه. لقد أثبت نفسه بجدارة وعرضت عليه تسجيلات "إي أس بي" توقيع عقد معهم. كان لديه طفل آخر في مكان ما. وفي إحدى الليالي، بينما كنتُ أعزف في "سيرف ميد" لصالح فرقة كان عازف البيانو فيها ملقى في السجن، رفعتُ نظري ورأيتُ تي يقف في عتمة المدخل. شعرتُ بشعور غريب يتراكم داخلي وقلتُ لنفسي: «اللعنة!»، عندما انتهيتُ من عزف مجموعتي، رفعتُ نظري مرَّة أخرى وكان قد ذهب. كان يعزف في ليالي الأحد في تين بالاس. ذهبتُ إلى هناك واستمعتُ إلى عزفه، قلتُ له بعد أن أنهى عرضه: «دعنا نحل هذه المسألة. فقد اشتاق الأطفال إليك».

* «أية مسألة؟».

توقَّفتُ عن الحديث في الأمور التي لن يتحدَّث عنها واصطحبته معي إلى المنزل. أخذته إلى سريري ومارسنا الحب. وفي الحقيقة فقد اشتقتُ إليه وإلى الجنس. دخَّنا السجائر، ونمنا. بعد مضيٍّ ساعة، ومع طلوع الفجر، أدرك الأطفال حضوره واستيقظوا، وقفزوا عليه، وهم يضحكون.

لم يرغبوا في الذهاب إلى المدرسة في ذلك اليوم لكنه قال: «عليكم أن تذهبوا، سوف أسير معكم إلى المدرسة وألاقيكم بعد انتهائها». بقي جيمي في المدرسة في ذلك اليوم، وجاء تي إلى المنزل لملاقاتي وبدا ذلك جيِّداً.

مارسنا الحب، ونمنا واستيقظنا في أحضان بعضنا البعض طوال الصباح. كنتُ أحبُّ رائحته التي تعبق بالملح والدخان، وملمس بشرته على جسدي، وتأمَّلت اختلاف ألواننا، وفكَّرتُ: فيمَ يهمُّ ذلك بحق الجحيم؟ شردتُ بالتفكير في حبيبتي بيا الصغيرة، التي قالت لي إنها تمضي الكثير من الوقت وحيدة في المدرسة، وتذكرتُ جوابها عندما سألتها عن السبب: «جيمي ودكستر لهما لونهما أفتح مني، ولذلك فمن الأسهل لهم أن يحصلوا على الأصدقاء». كثيراً ما فاجأني أطفالي، وأحياناً كانوا يفاجئونني بمثل هذه القصص الحزينة. شعرتُ بحال أفضل إذ أشارك تي بكلِّ هذه التفاصيل.

أخبرته بأنني شعرتُ بأنَّ العالم يتداعى عندما لم يكن هناك، والذي كان صحيحاً في تلك اللحظة ولكن ليس في غيرها، وقال لي: «عالمي هنا معكِ يا حبيبتي»، وكان ذلك حقيقياً أيضاً في تلك اللحظة ولكن ليس في غيرها.

خرج واشترى لنا الطعام الجاهز ولم يكن منتشياً عندما عاد. فكَّرتُ في مدى سهولة حياتي لو لم يكن يترتَّب عليَّ القيام بكلِّ شيء بنفسي.

قلتُ له: «رأيتكَ في مدخل "سيرف ميد"». ضحك وقال: «لا يفوتكِ أيُّ شيءٍ حبيبتي». أشعل سيجارته ورفع حاجباً واحداً بالطريقة التي يعرف أنها تضحكني، وقال: «تعزف المرأة أفضل عندما تنال بعض الجنس والمتعة. أردتُ معرفة مدى حاجتك إليَّ».

* «حسناً، بحسب ما أسمع فإنك تحصل على الكثير من هذه الأمور».

قال ضاحكاً مرة أخرى: «أحياناً أعزف تعبيراً عن الأمور التي أريدها ولا أحصل عليها. ودائماً ما يكون الموضوع هو أنتِ».

مارستُ الحب مع تي عشرة آلاف مرَّة. ولكن ذلك اليوم كان من المرَّات الخاصة. فقلت له: «من الصعب أن أنساك، فأنت لست واحداً من أولئك الرجال الذين يمكن تجاوزهم بسهولة».

قال وهو يضع يده الضخمة على فخذي، وذبتُ في عينيه اللتين أعشقهما: «حبيبتي، لم نكن أبداً مثل غيرنا من الناس».

* «جيمي يحتاجكَ. لمَ لا تبقى لفترة من الوقت؟ لقد حصلتُ على أوَّل تسجيل لي. والأطفال في حاجة إليك هنا معهم».

لكنه غادر مرَّة أخرى في الليلة التالية. أحدث غيابه أثراً كبيراً واشتاق الأطفال إليه كثيراً، ولكنني قلتُ لهم: «لا تقلقوا، ذهب بابا في جولة على الطريق وسيعود». حدّثتُ نفسي بأنَّ حبَّنا فريد من نوعه، وكان كذلك في الحقيقة. وعليَّ أن أفكِّر الآن فيما هو أهم، بكيفية كسب لقمة العيش، وبحفلتي المقبلة، والحفاظ على رفاهية الأطفال. كنتُ أؤلِّف الأغنيات. ولكن هناك أحاسيس في داخلي لم أجد الكلمات للتعبير عنها. كان عليَّ أن أعزف، وأن أفصح عمَّا أشعر به وأن أستمرَّ في الحياة.

كانت علاقتي مع تي مثل الغرفة رقم 9 في الموتيل، لا يوجد أيُّ شيء مستقرٍّ فيها. ولكنني كنتُ أحبُّ شعوري عندما أكون معه. لا يهمُّني إن لم يكن ذلك منطقياً أو أنه يقارب حدَّ الهوس. وعندما أتقدَّم في العمر، ويصيبني الخرف والنسيان، أريد أن يكون حبِّي له هو آخر شيء يبقى في ذاكرتي، فهو بدايتي ونهايتي الحلوة، والجميلة، والمعقَّدة.

بقيتُ أتذكَّر ذلك اليوم الذي قضيته مع تي في السرير، ولكنني سمحتُ له بالذهاب. كان حبُّه لي موجوداً في مكان ما في قلبه. ولكن لم يكن في

إمكانه أن يبقى ولم أكن أريد أن أقف في طريقه، كان ذلك منطقياً وملائماً بالنسبة إليَّ، على الأقلِّ في معظم الوقت.

ماري أوزبورن هي الوحيدة التي بدت غير تقليدية وهي ترتدي سروالاً واسعاً مع ورود وردية ضخمة عليه. الأخريات كنَّ ترتدين سراويل وثياباً مصمَّمة للمناسبة. مشيتُ بجانبهنَّ تماماً بينما هنَّ واقفات على الرصيف خارج الاستوديو. كانت شعورهنَّ قصيرةً ومرتَّبة، ومظهرهنَّ مثل مظهر ربَّات البيوت العاديات الذاهبات إلى التسوُّق.

سلَّمتنا ماريان النوتات الموسيقية، قلقتُ قليلاً بشأن مظهري، وشعري المجعَّد وسروال الجينز الأسود والقميص الأبيض القطني. كنتُ أرتدي هذه الملابس مع أقراط كبيرة في كلِّ مكان أعزف فيه، وكان ذلك مناسباً بما فيه الكفاية لقضاء واجباتي اليومية في حال رفعت شعري وخلعتُ الأقراط. لم يكن لديَّ أبداً الوقت للعودة إلى المنزل وتبديل ملابسي. لم تحاول هؤلاء النسوة القيام بأيِّ جهد إضافي لتظهرن بمظهر المشاهير. ولكن بمجرَّد وضعهنَّ شفاههنَّ على الميكروفونات، وأصابعهن على الأوتار، وأيديهنَّ على عصا الدرامز، كنَّ من أفضل العازفات في جيلهنَّ. أغمضت عينيَّ، واستمعتُ بكلِّ تركيز لأحاول مجاراتهنَّ.سحرني صوت الدرامز الذي تعزفه دوتي وأخذني إلى مكان غريب ومشوِّق، قلتُ لها عند الاستراحة: «كان ذلك عظيماً. لقد ملكتني هناك».

ضحكتْ وقالت: «لقد عزفتُ بشدَّة لدرجة أن يديَّ تورَّمتا».

كنتُ أحبُّ حضور دوتي، بحجمها الصغير وسمنتها وبهائها وراء الدرامز، وتلك التعابير التي تقطر من وجهها الجميل كسيِّدة في منتصف العمر. قالت: «لا تتعلَّق المسألة بمقدار الطاقة التي تملكين. وإنما في كيفية استغلالك لتلك الطاقة والهدف الذي تسخِّرينها من أجله».

كنَّ يدركن مدى الإرهاق الذي يصاحب العزف لأربع أو خمس ساعات كلَّ ليلة، في مكان مختلف كلَّ مرَّة خلال جولاتهنَّ الموسيقية. فقد اعتدن القيام بذلك كثيراً خلال الحرب. لكنَّ الأمور تغيَّرت بعد انتصار الحلفاء في الحرب. لم يتكبَّد أصحاب النوادي عناء الاعتذار منهنَّ، عندما عاد الرجال من الحرب للمطالبة بمكانهم على المسرح، ورموا بآلاتهنَّ على الأرض وجلسوا على كراسيهنَّ.

كان مالكو النوادي يقولون: «أيَّتها السيِّدات، لقد عادت فرق العازفين من الرجال، وكنا قد وعدناهم بتأمين عمل لهم هنا عند عودتهم إلى بلادهم من الحرب».

* «ألا نحصل على فترة وجيزة نتدبَّر فيها أمورنا؟».

- «لا نستطيع. الرجال يريدون العزف».

* «وماذا عن أجرنا؟».

- «هيا، أنتنَّ تتفهَّمن الوضع. لقد عاد الرجال من الحرب».

واجهن الصعوبات في كلِّ مكان. وكان الناس يحاولون التعافي من صدمة الأحداث الفظيعة. وشاركت النساء في ذلك أيضاً وساعدن في إعادة البناء والمضيِّ قدماً. ربما كان ينبغي لهنَّ أن يدافعن أكثر عن إنجازاتهنَّ، لكنني كنتُ أدرك صعوبة ما مررن به.

سألتني ماري: «ما هي الأماكن التي ذهبتِ إليها في جولاتكِ الموسيقية؟».

* «فقط في أونتاريو. كنتُ أستمتع بذلك، ولكنني أصبحت حاملاً واضطررت إلى التوقُّف».

ضحكن جميعهنَّ كما لو كانت تلك أطرف نكتة روتها امرأة منذ الأزل.

خرجت ماريان لتحضر لنا بعض الطعام وقالت إحداهنَّ: «هل لا تزال على علاقة بموريلو؟».

ردَّت أخرى: «لا، إنها لا تواعد الآن أيّاً منهما. لكنها لا تزال تقابل جيمي وتتحدَّث مع جو على الهاتف لساعات».

نظرن إليَّ، وقالت دوتي: «وقعت ماريان في حبِّ رجلين منذ عشر سنوات. وفجأة طلَّقت زوجها وقطعت علاقتها بعشيقها. ما رأيك بهذا الحب؟».

قلتُ: «يبدو ذلك فكرة أغنية».

ضحكن جميعاً. كنَّ حازمات ومحترفات وتعلَّمتُ الكثير خلال تلك الجلسات، فقد كنتُ أستلهم منهنَّ وأظهر موهبتي عندما يحين دوري.

خرجنا لتناول المشروبات قبل عودتهنَّ إلى منازلهنَّ في روتشستر وكاليفورنيا وأوهايو. وأعدتُ في ذهني ترديد ذلك التسجيل مراراً وتكراراً، وتدرَّبت على تقنياتهنَّ وفكَّرت في قصص حياتهنَّ الشخصية وأزواجهنَّ وعشاقهن. سألتهنَّ عندما جلسنا إلى الطاولة: «ما هو الشيء الأكثر أهمية؟».

أجابت ماريان: «الرغبة الجامحة بلا عقلانية».

قلتُ: «أقصد بسؤالي ما هو الشيء الأكثر أهمية لضمان حصولي على حفلات؟».

ضحكت وقالت: «حسناً، حضورك الدائم في الوسط الفني. التعرُّف إلى الناس. والتمسُّك بأيِّ فرصة تُتاح لكِ لتقديم حفلة ولو كان ذلك على جثَّتكِ. المرَّة الوحيدة التي أضعتُ فيها فرصة إقامة حفلة كانت من أجل رجل».

قالت دوتي: «من أجل موريليو».

لم يكن من المفترض لأحد أن يقول اسم عشيقها. انزعجت ماريان، وقالت: «عندما كنتُ معه، كنتُ أعزف بحرِّية وطلاقة أكثر، كنتُ على طبيعتي أكثر. أنا سعيدة لأنني كسرت القاعدة».

التفتت إليَّ وقالت بجدِّية وهمية: «إيَّاكِ أن تقعي في حب رجلين. إذا حصل ذلك، فلن يكون في مقدورك القيام بأيِّ شيء لتفاديه».

تساءلتُ بيني وبين نفسي فيما إذا كانت ماريان ستسجِّل أسطوانة خاصة بي. كنتُ مستعدة لذلك. فها هو الاستوديو مجهَّز بآلتي بيانو وينتظرنني أنا ومهسا. في طريقي إلى المنزل، كنتُ أفكِّر في هؤلاء النسوة اللواتي يعزفن جيِّداً، ويثرثرن، وتصيبهنَّ الغيرة، ويقاومن ما كان يقاومهن. كنَّ نساء جبَّارات بحق. وقد سمحن لي بأن أكون جزءاً من عالمهن.

مررتُ بأحد الأسواق، وكان أحدهم قد رمى بكمِّية من الطماطم شبه التالفة التي أخذتها أنا. شاهدني بائع جبن وصاح بي: «ماذا تفعلين؟».

* «إنني آخذ الطماطم من أجل عشاء أطفالي. لقد قمتُ للتوِّ بأوَّل تسجيل لي».

- «وماذا تعزفين؟».

* «البيانو».

- «هذا جيِّد. ماذا ستطبخين؟».

* «معكرونة بالبولونيز».

- «انتظري دقيقة».

مدَّ يده ورمى لي بعلبة جبنة قائلاً: «هذه لأطفالكِ. قد تحتاجين إلى بعض البارميزان».

كان ذلك يوماً مثالياً بحق.

مهسا

غمرت مياه ذوبان الثلوج الكريستالية الشوارع مثل ثُريًّا سائلة، أمَّا أنا فقد تغيَّبت عن الدروس وصعدتُ إلى الجبل لأتأمَّل مشهد المدينة المائية، كان كلُّ شيء يعبق برائحة الضباب والأرض. مضى على غيابي عن كراتشي قرابة العامين، وكان ذلك ثاني ربيع لي هنا في مونتريال. كنتُ أخطِّط للانتقال والعيش مع كاثرين في شارع فيليج خلال فصل الصيف، فقد حصلت على الكثير من الحفلات المتتالية. كما عرض عليَّ جان أول وظيفة كمدرِّسة. حيث قال: «أريد لكِ أن تدرِّسي هنا. عليكِ إنهاء دراستك الجامعية ومتابعة دراساتك العليا. فكِّري في الموضوع وفيما إذا كان ذلك يلائمكِ».

كنا نقيم حفلات منتظمة في إسكوير ونعزف في المنزل دائماً. اعتاد جان أن يدخِّن الحشيش قبل العزف فهو يعتقد بأن ذلك يساعده على سماع النغمات المنخفضة بشكل أفضل، وكثيراً ما طلب مني العودة إلى المنزل معه ولكنني كنتُ أمازحه دوماً قائلة: «أنتَ لا تزال أستاذي، وأنا على علاقة بشخص آخر».

أخذ يدي وقال: «لن أكون أستاذكِ إلى الأبد. وعليكِ هجر ذلك الرجل الآخر».

انتقل صديق مونيك للعيش معنا، وسألتها: «هل تريدين مني أن أترك المنزل وأبحث عن مكان آخر؟».

* «لا، إطلاقاً. فأنا أفضِّل العيش معكِ. وبهذه الطريقة أستطيع العيش معكما معاً».

كنتُ أحبُّ غرابة الحيوانات البرِّية التي تعيش حرَّةً وطليقةً بيننا في مونتريال وبخاصَّة السناجب والراكون. كما تعيش في الجبل ثعالب الماء الصغيرة والمنك أحياناً. في إحدى المرَّات، رأيتُ غزالاً يعطِّل حركة المرور على الطريق. أمَّا في بلدي، فلم تكن توجد أية حيوانات طليقة، وإنما مأسورة ومستغَلَّة دوماً. كتب لي العمُّ رسالة بأن العمَّة قد اشتاقت إليَّ، واقترح أن أعود لزيارة كراتشي في شهر تمُّوز، فمن المؤكِّد أنني في حاجة إلى الاستراحة من دراستي، وأرفق لي تذكرة سفر.

قلتُ لنفسي لمَ لا؟ بقيتُ أفكر في كراتشي على مدى ثلاثة أسابيع. أردتُ أن أشتمَّ رائحتها مرَّة أخرى، والسير على شواطئها، ورؤية أزهار القمر تحت نافذة غرفة نومي القديمة. وكنتُ أفكِّر في كمال. كتبتُ رسالة إلى كاثرين أعلمها فيها بأنني ذاهبة إلى كراتشي وبأنني سأتوجَّه إلى نيويورك في آب بمجرَّد عودتي. عثرتُ على لباسي الباكستاني التقليدي أسفل حقيبة سفري، واشتريت هدايا للعمَّة والعم. أغلقتُ حقيبتي وكنتُ مستعدَّة للذهاب إلى الوطن. وبقي موضوع رؤية كمال هاجساً لي في تلك الفترة.

اتصلت كاثرين لتقول: «مهسا، لقد وعدتُ بإقامة عدَّة حفلات في شهر تمُّوز معكِ. كما رتَّبتُ مع شركة ماريان لتسجيل ألبوم لنا. وتدبَّرتُ وجود آلتي بيانو. وهو أمر صعب».

* «أعرف. ولكن كاثرين، لم أزر بلدي منذ سنتين. ألا يمكننا القيام بذلك في شهر آب؟».

- «مهسا، أنت وافقتِ على ذلك. ويكاد يكون من المستحيل أن نسجِّل ألبوماً لآلتَي بيانو. سوف يكون عليَّ أن أقوم بذلك لوحدي. ألا تستوعبين ذلك؟».

* «سيغضب العمُّ إن لم آتِ. لن يستغرق سفري سوى بضعة أسابيع. أستطيع بعدها أن أحضر مباشرة إلى نيويورك عندما أعود».

كنتُ متهورة وطائشة. وقالت كاثرين: «أنتِ على الطريق لتحقيق النجاح. لا تفسدي الأمر».

* «يمكنكِ إقناعهم بتغيير الموعد إلى شهر آب».

ظننت أنني أملك كلَّ الوقت في العالم.

كانت الأيَّام الأولى من وصولي إلى كراتشي لطيفة وجميلة، حيث جلُّ ما أقوم به هو الاسترخاء، وتناول الوجبات اللذيذة، والاستمتاع بالترف غير المعلن للحياة بوجود خدم.

قالت العمَّة إنها علمت بأن والد كمال قد أرسله للعمل في أفغانستان. كنتُ قد كتبتُ له ولم أتلقَّ منه رداً، وتساءلتُ فيما إذا كان غاضباً لأنني لم أراسله إلا قليلاً جدَّاً. كان الفصل الأكثر حرَّاً في السنة على الأبواب، وجميع صديقات المدرسة إما متزوَّجات أو خارج البلاد، انزعجت لأنني رضختُ لأوامر العمِّ وعدتُ. رُفعت الأحكام العرفية في شهر نيسان، وكانت اتفاقية سيملا على وشك الإبرام، وامتلأت الشوارع بالاحتجاجات. بدت لي العمَّة متقزِّمة، وكانت عطورها الثقيلة تخنقني، ولاحظتُ بأنها تتفادى النظر إلى عينيَّ مباشرة.

في اليوم الثالث، طلب العمُّ مني الحضور إلى غرفة الجلوس ورأيتُ العمَّة هناك أيضاً. قلتُ في نفسي إنه لا بدَّ من وقوع مصيبة ما. قال العم: «نحن قلقون من غربتكِ وبقائكِ وحيدة. ونعتقد بأن الوقت قد حان

لتتزوَّجي، وقد وجدنا لكِ بالفعل الشخص الذي نعتقد بأنه سيسعدكِ. وهو نجل أقدم صديق لي».

كنتُ أفكِّر في شقتي مع مونيك، وروكهيدز، ودراساتي، "ذا سيرف ميد"، ومحطَّة الحافلات، والجبل.

قالت العمَّة: «والده يسعى إلى توسيع أعماله إلى مونتريال. وسوف تكونين قادرة على مواصلة دراستكِ».

* «أنا لا أريد الزواج».

- «مهسا، إننا نقترحه فقط. وفي الواقع فقد زارنا أخوالك مرَّة أخرى. وهم يعتقدون بأنه من المخلِّ بالشرف أن تكوني لوحدك في الغرب. الشرف يشبه الحليب، وأقل غباز يلوِّثه. إننا فقط أوصياء عليكِ. وقد تحدَّثوا عن أخذكِ معهم والعيش لديهم».

* «إذا كنتُ في خطر لماذا كنتما تُصرَّان على إعادتي إلى هنا مرة أخرى؟ سأعود إلى مونتريال غداً».

- «مهسا، تذكري الملاكين على يمينك ويسارك، واللذين يسجِّلان كل ما ترتكبه يداكِ. الأشياء تتكشَّف يا مهسا».

فكَّرتُ في ماهيَّة هذه الأشياء؛ حسابي المصرفي؟ كمال؟ ماذا؟ ماذا؟ عار على الملاكين إذاً. ومن الأفضل أن أعيش في ضائقة وعسر من أن ينتهي بي الأمر كفتاة تَجلد بالسياط.

قالت العمة: «كانت أمكِ لتوافق على هذا الزواج».

* «تزوجت مور لأنها وقعت في الحب. وفعلتْ ما أرادت فعله».

نظر العمُّ إلى وجهي كما لو أنه ينظر إلى شخص غريب. نهض بتثاقل ليغادر، وقال: «البنتُ سرُّ أمها. لم تحاولي حتى أن تطرحي أيَّ سؤال حول الشاب».

ركضتُ إلى غرفتي لأتفقَّد جواز سفري، ولكن الخادمة كانت قد أخذته بينما كنا نتحدَّث.

على مدى الأسابيع التالية كنتُ أبكي وأنتحب وأصمت. ومع غضب العم، وزيارات العمَّة إلى غرفتي وتنهداتها، وتجدُّد الصراخ والنحيب من جديد، كنا عبارة عن فيلم بوليوودي سيِّئ للغاية. كنت قد عشت الكثير من الحرِّيات، والتي لم يكن في مقدور العمِّ أن يتصوَّرها.

قال لي مهدِّداً بحبسي إلى الأبد: «من تظنِّين نفسكِ؟».

تذّكرت كلام مور وهي تصف لقاءها الأوَّل بأبو: «عندما التقت عينانا للمرَّة الأولى، شعرتُ بالقوَّة والحنان والحب».

لماذا عدتُ؟ كيف نسيتُ حقيقة الحياة هنا بهذه السرعة؟

في أحر أيَّام شهر تمُّوز، أُصيبت العمَّة بنوبة قلبيَّة. وقال لي العمُّ عند سريرها في المستشفى: «أنتِ تسرقين حياة عمَّتكِ. إنكِ تهينينني أمام أصدقائي. لقد قمنا برعايتك واحتضانكِ».

دائماً كنتُ اليتيمة التي تجلب العار. تخيَّلتُ مونيك وقدميها مرفوعتين على الشرفة، وهي تدخِّن، وتتحدث معي. تخيَّلتها تقول لي: «عليكِ أن تدفعي فواتيركِ. فأنت تكسبين المال من عملك في نيويورك!».

وضع العمُّ قفلاً على باب غرفة نومي. وعندما كان يقفله ليلاً بيأس كنت أشعر بيأس لم أكن قد شعرت به منذ مقتل مور وأبو. كان وجه العمِّ قاسياً دون أية ملامح للتعاطف. لكم من الوقت سيكون قادراً على حبسي؟

بعد يوم من خروج العمَّة من المستشفى، وُجِّهت الدعوة إلى عائلة علي لزيارتنا. يا له من لقاء أوَّل مؤثِّر حقّاً! كانت القريبة اليتيمة المخلصة تعتني بالعمَّة الوصية. رحَّبت العمَّة بضيوفها في الديوان، بينما طبخت الخادمة الطعام وأعدَّت الشاي، وقمتُ أنا بتقديم الحلويات التقليدية.

استرقت النظر لأرى كيف هو شكل علي، وأنا أصرخ بصمت «ما هذا الذي أفعله؟ كل ذلك من أجل الحصول على جواز سفر؟».

كان علي يكبرني باثنتين وعشرين سنة، بدا قوياً ووسيماً بالنسبة إلى رجل في الرابعة والأربعين من عمره. لم يكن كما تخيَّلته، بل كان رياضياً، يلعب الاسكواش وذا بشرة مشدودة وشعر خفيف قليلاً في مقدَّم رأسه. كان محامياً تلقَّى تعليمه في بريطانيا. و أراد والداه الآن تزويجه وإنشاء فرع آخر للشركة في كندا. نظرتُ إليه، وفكَّرتُ: «أنت طريقي للعودة إلى كندا».

هل كانت كاثرين في سنترال بارك مع أولادها؟ هل كان جان يعزف بجنون في مهرجانات الهواء الطلق؟ هل امتلأ الجبل بالعشَّاق بعد يوم القدِّيس جان باتيست؟ من هم الأشخاص الذين تدعوهم مونيك إلى شقَّتنا؟ ما هي المسرحية التي كانت تخرجها؟ أين تعزف كاثرين؟ وماذا أفعل أنا هنا؟ كيف يمكنني أن أهرب من هنا؟

اصطحبني علي إلى نادي "مسلم جيمخانا" الذي يملكه والداه، وهو مكان لم أزره في حياتي قط. جلسنا مقابل بعضنا البعض على طاولة صغيرة وسألني: «ماذا تفعلين للتسلية والمتعة في مونتريال؟».

فكَّرتُ، أنا أعزف في البارات في شارع سانت انطوان، واستقل الحافلة إلى نيويورك، وأُبعد عني السكارى في عروض البيانو.

أجبته: «أذهب للتنزُّه».

- «لا تقلقي. لقد عشتُ في لندن لسنوات. وأنا أعلم أن الحياة هناك مختلفة».

قال متبرّماً كما لو أنه يتحدَّث إلى نفسه: «كنتُ أرغب في العودة إلى إنكلترا. لكن العائلة تصرُّ على مونتريال، لذلك فأنا مضطرٌّ إلى مجاراتهم».

رفعِ نظره إليَّ مرَّة أخرى وقال: «هل كندا جميلة ومسلِّية؟ سمعتُ بأنها مملّة جدّاً».

هو أيضاً لا يريد هذا الزواج. كان سعيداً بالعيش في الخارج. هل هناك أمل؟ لماذا لمْ يتزوَّج قبل الآن؟ قال: «مهسا، تقول عائلتي إنكِ تجيدين اللغات وتتأقلمين بسهولة، وإنكِ سوف تكونين مفيدة في التعامل مع عملائنا. أنا معجب بكِ جداً. هل تعتقدين بأنه يمكننا أن نبني شيئاً ما معاً؟».

بدا لي هذا القياس والاستجواب غريباً عليَّ. هل أصبحتُ غريبَّة الطباع؟ كنتُ أرغب فقط في الهروب. ولذلك قلتُ: «نعم، أعتقد بأنه يمكننا القيام بذلك».

* «مهسا، هناك شيء لا بدَّ لي من قوله لكِ. يجب علينا أن نبدأ حياتنا معاً بمنتهى الصدق. لقد كان لديَّ عشيقة في لندن، امرأة بريطانية. لم توافق أسرتانا على علاقتنا. فلم يريدوا لها أن تكون معي. كما هدَّد والدي بحرماني من أمواله. كان هناك الكثير من التشويش والاضطراب ولكنني انتهيتُ من كل ذلك».

مدَّ يده، ولمس كوعي، كانت تلك أول لمسة بيننا، وسألني: «هل يمكنكِ أن تغفري لي؟ وسوف نجد الحب معاً».

لم يسألني فيما إذا كان لي ماض مع أي رجل. وفكَّرتُ في أنه لا بدَّ لي من إنجاح الأمر لكي أستطيع العودة إلى مونتريال. حتى أنني شعرتُ بالقليل من الليونة والرقة نحوه. وأظن بأنه قد فسَّر صمتي على أنه بمثابة القبول، لأنه سحب يده وطلب الفاتورة.

في موعدنا الثاني، حدَّثني علي عن قضية قانونية وقعت في الشمال، وكان قد عاد للتو من التحقيق فيها لصالح قاضٍ من أقربائه. تدور القضية حول شقيقين سرقا المال من ابن عمِّهما. واتُّهمت إحدى زوجاتهما

بالسرقة، وتم رشُّها بالبنزين وحرقها. سألته: «ماذا تقصد بأنها اتُّهمت، ألم يتم التحقيق في الموضوع؟».

* «كانت الأسرة في حاجة إلى كبش فداء. تحمّلت هي اللوم ونجا الرجلان من العقاب».

- «ولكن هل أخبرتَ القاضي بذلك؟».

قال علي مستهجناً: «لا، كان مرتشياً، وكان حضوري شكلياً فقط».

لم يكن في إمكاني أن أنسى ردَّه ذلك أبداً.

قالت لي العمَّة في المنزل إنَّ والدة علي قد زارتها لتسألها عن خبرتي في الخارج. وقالت العمة: «قلتُ لها إنكِ جيِّدة. احرصي على إخفاء عيوبك».

* «قولي لها ما تشائين، المهمُّ أن أعود إلى مونتريال».

بدأت الأيام الثلاثة المرهقة لحفل زفافنا بعد أسبوعين. وقد أرادت الأسرتان تأجيل موضوع العرس إلى ما قبل شهر رمضان في تشرين الأول، ولكنني كنتُ أصرُّ على الزواج فوراً حتى أتمكَّن من العودة إلى الجامعة. وكان ذلك الطلب الوحيد الذي تحقَّق. كان الطقس حارّاً ولا يطاق. وقمتُ بالتسوُّق برفقة أُختَيْ علي المتزوِّجتَين. شربنا الشاي. وتحدَّثنا عن أحدث الأفلام الهندية.

- «لماذا سيسمح لك عمُّكِ بالعودة إلى مونتريال قبل علي؟».

* «عليَّ متابعة الدراسة، وسيستغرق علي بعض الوقت لتنظيم العمل قبل أن ينضم إليَّ».

- «لن يكون عليكِ متابعة دراستكِ بما أنكِ ستتزوَّجين».

* «ولكنني أريد ذلك. وسوف أقوم بالتدريس في خريف هذا العام».

- «بمجرَّد وجود الأطفال، لن يكون لديكِ الوقت للقيام بذلك».

* «الأطفال؟».

ضحكتا، وقالتا: «هل يمكنكِ أن ترسلي إلينا بعض سراويل الجينز؟».

أرسلتْ إليَّ مونيك بطاقة بريدية تحمل صورة مونتريال ليلاً مع الصليب المضاء في أعلى الجبل. بدت الصورة غريبة هنا. كتبت قائلة: «تهانيَّ! حقّاً؟ غادر جان كلود الشقَّة بعد سفركِ. هناك شقَّة فارغة في الطابق العلوي، يمكنني أن أستأجرها!».

قرأ العمُّ البطاقة، وقال: «ألا تعيشين مع أسرتها؟».

كذبتُ قائلة: «لا بدَّ من أنها تفكِّر في استئجار شقة لنا أنا وعلي في البناء نفسه. وهي فكرة جيِّدة. فالمبنى قريب من المكان الذي سيقيم فيه مكتبه».

كان حفل عقد القران الذي أقامته العمَّة لي صغيراً وعلى عجل، حيث اقتصر الحضور على أخوات علي ووالدته التي كانت تعشق ابنها الوحيد، وجيران العمَّة. كنتُ خجلة من هذا الزواج. ارتديتُ فستاناً أخضر اللون وأطعمتني الأخوات والجيران الحلويات وفقاً للتقاليد، ورسمن الحنَّة على يديَّ وقدميَّ. روت النساء قصصاً مضحكة عن الأزواج والزواج وكل ما يجب على المرأة أن تحتمله. وقالت إحدى الجارات التي اعتاد زوجها ضربها مازحة: «الزواج في بدايته نعيم ومن ثمَّ يتحوَّل إلى عذاب، إلا أن الطلاق هو الجحيم الأكبر». قاطعت العمَّة أحاديثهنَّ وقالت: «سأشغِّل الموسيقى».

كانت فرقة "دهولكي" أفضل جزء من الأمسية. غنَّت الموسيقيات الثلاث أغاني تقليدية عن المرأة والحب وعزفن وسخرن من الحموات. فكرتُ في أنني إذا بقيتُ في باكستان ولم أتمكَّن من العودة إلى مونتريال فسوف أهرب معهنّ. تسللت إلى الخادمة مينو في المطبخ وتوسَّلتُ إليها بأن تسرق جواز سفري ولكنها كانت خائفة وغطَّت وجهها بيديها.

في يوم الدخلة، حجز العمُّ والعمَّة صالة لإقامة حفل الزفاف في فندق "لاكشري بيتش"، زُيِّنت الصالة بطاولات طويلة من أجل الوليمة. ذهب الشيخ المشرف على حفل زفافنا إلى غرفة جانبية، وتم الاتفاق على مهر العروس، وحصل العمُّ على الكثير من الروبيات والدولارات الأمريكية من عائلة علي. يُقال إن الهدف من المهر هو إعطاء الحرية إلى العروس في زواجها، إلا أنني لم أسمع أبداً بعروس حصلت على مهرها. أما مهري فقد استُخدم لبدء الأعمال التجارية في كندا.

ألبستني أخوات علي ثوب غرارة[1] أرجوانياً ذا تطريز متقن بألوان الأحمر والأخضر والأصفر، وصفوف من الورود الصغيرة على طول حواف الوشاح الملقى على ثوبي. قرأ الشيخ خطبة الزواج والإيجاب والقبول. جلستُ في غرفة العروس، وجاء والد علي من غرفة جلوس الرجال، وقرأ لي عقد النكاح. كان عليَّ القبول من خلال قولي: «قبلتُ به»، ولكنني تلعثمت في لفظ الكلمات، تجهَّمت العمَّة، وانتبهتُ إلى أخت علي الصغرى وهي تتمالك نفسها لكي لا تنفجر من الضحك.

كنتُ غارقة في الماكياج، والحنَّة تغطِّي يديَّ وقدميَّ، وشعرت بالثوب المطرز رطباً وثقيلاً في الحرارة. أنزلن شالاً أخضر فوق رأسينا ووضعوا مرآة النكاح في يد علي. كنَّا وحدنا معاً، وكان لزاماً علينا أن نؤدي تقليداً قديماً تحت الشال الخانق، حيث أخلع حجابي وننظر إلى وجهَي بعضنا البعض في المرآة، كما لو كان ذلك للمرَّة الأولى. خلعتُ حجابي بسرعة في تلك الحرارة الخانقة. وكنت أريد أن ينتهي كلُّ شيء. بدت عيناه في المرآة متردِّدتان وحريصتان على الإرضاء لكن دون رغبة متَّقدة. نزعتُ المرآة من يده والتفتُّ إليه مباشرة. لم أرَ الرغبة أو الحب في عينيه، وكنتُ قد رأيت الحب في عيون الرجال من قبل. وأدركتُ أنه ليس منهم.

---

1 - لباس تقليدي في الهند وباكستان. (م).

أمسكتُ بيده الجافة التي لم تكن تضغط على يدي وهمستُ له: «دعنا نخرج من هنا»، وبدا لي بأنه ارتاح كثيراً بقراري هذا. دائماً ما كانت هناك امرأة تعدُّ له ترتيبات حياته نيابة عنه، بما في ذلك صديقته الإنكليزية وأمُّه وأخواته. وعندما نرفع الشال الأخضر سأكون أنا من يهتمُّ بشؤونه. فقد أصبح لديه الآن زوجة.

كانت حفلة الزفاف سهلة ومملَّة، وضمَّت كما هي العادة الموسيقى، والرقص، ونكات الزفاف البالية، والفتيات اللواتي يسرقن حذاء علي ويدفع لهنَّ المال لاستعادته، وبتلات الورد المرمية، والكثير من الطعام، والتظاهر بالسعادة. غادرنا أنا وعلي مبكراً في حين واصل العمُّ ووالد علي استضافة ضيوفهم من رجال الأعمال. أمضينا ليلتنا الأولى معاً في غرفة في فندق "بيتش لاكشري". وكانت هذه بداية حياتي المزدوجة؛ التظاهر بعدم الخبرة، والتظاهر بأنني سأقع في حبه.

لم أُرد أن أكون في الغرفة نفسها مع العمِّ والعمَّة عندما أخبرهما بأنني لن أعود أبداً، وبأنه ما كان ينبغي لهما أن يُجبراني على هذا الزواج. كتبتُ الرسالة من مونتريال وأرسلتها بالبريد في اليوم الأوَّل من عودتي إلى هناك.

تكرّمَت عليَّ العمَّة بكتابة رسالة واحدة فقط قالت فيها:

الحياة هي كيف تصنعينها. يأخذ الزواج أشكالاً عديدة. ومجرَّد التفكير فيكِ يمنحني الأمل.

كلمات حزينة، واستسلام وخضوع حزين. كان المغلَّف من فندق "بيتش لاكشري"، وتساءلتُ عمَّا إذا كانت قد تدبَّرت طريقة لمواصلة حرِّيتها في صباحات السبت بدوني.

كاثرين

اتَّفقت ماريان مع سيسيل وليامز، عازف الكونتراباس، على العزف في ألبومي الأوَّل الذي ستسجِّله شركتها "هالكيون" للتسجيلات. قالت ماريان: «سنقوم بالتسجيل في فانغارد، لنحصل على المكان والصوت الأفضل». كان سيسيل ينهي للتو منحته من جوليارد، وهو شاب يصغرني بعشر سنوات ويعزف بأسلوب عظيم. كان من الرائع والملهم أن أعزف مع رجل لم يكن يقاوم وجودي، مع شخص يثق بقدرتي وبأنني أدرك تماماً ما أقوم به. في اليوم الثالث لتسجيلنا، انغمسنا أكثر وأعمق في الموسيقى، وارتجلنا بطريقة مذهلة، وقد استمتع سيسيل بذلك وقال لي في النهاية: «أنت مذهلة، مذهلة جدّاً يا كات».

وأخيراً عادت مهسا من باكستان متأخرة عدَّة أسابيع. لقد تزوَّجت هناك. طلبتُ منها أن تأتي إلى نيويورك بسرعة لنسجِّل مقطوعة موسيقية ضمن ألبومي.

قالت: «سأستقلُّ الحافلة في الصباح. هل قمتِ بتسجيل "اخلع ملابسك" و"شاي من أجلي"؟». لقد كان تخمينها صائباً، فتلك كانت المقطوعات التي اخترت تسجيلها. كانت تعرف موسيقاي أفضل من أي شخص آخر.

بدتْ جميلة جداً في اليوم الذي وصلت فيه إلى فانغارد. كانت ترتدي جزمة جلدية عالية، وسترة مذهلة، وشعرها مرفوع إلى الخلف. فتحت ذراعيها لتحتضنني وبادرت بدوري إلى معانقتها. قلتُ لها: «مهسا، تبدين كفرنسية أكثر في كلِّ مرَّة أراكِ فيها. كيف هي حياتك كامرأة متزوِّجة الآن؟».

ضحكت وقالت: «لم يصل إلى هنا بعد. تمكَّنتُ أنا من العودة على الأقل».

وقبل أن أتمكَّن من سؤالها عن قصدها من هذا الكلام كانت قد خلعت سترتها وقالت: «هيا لنبدأ. سأعزف من أجل ألبومكِ الأوَّل حتى تنزف أصابعي».

قلتُ ممازحة: «أخشى ألا تتركي لي مجالاً للعزف».

- «أوه، سأفعل بالتأكيد».

بالنسبة إليَّ، كان التسجيل الذي يتضمَّن عزفنا لمقطوعة "أن تحب اثنين" من تسجيلاتي المفضّلة. لم أسمع أبداً بعازفي بيانو عزفا على نحو أفضل ممَّا فعلنا، والكثيرون قد حاولوا ذلك حقاً. كنا مثل يدين معقودتَين للصلاة.

في النهاية قلتُ: «لم لا تبقين لبضعة أيام».

* «عليّ أن أعود».

- «لماذا؟».

* «لأن علي قادم».

لم تُرد مهسا أن تتحدَّث عنه، وأنا لم أكن مهتمَّة بأمره كذلك. أذكر أنها قالت شيئاً عن ترتيب عمِّها لكلِّ الزواج. كانت تخشى من أن تفقد تأشيرتها

كطالبة كونها أصبحت الآن متزوِّجة. ولكنني كنت مشغولة بالاستماع إلى تسجيلاتي.

كان من المفترض أن يعزف تي قطعة ألَّفتها له بعنوان "الطريق الطويل". وعندما لم يحضر للتسجيل قلتُ لماريان: «أنا أعرف أنه يعزف الليلة في "فرانسيس هاينز". عليكِ بإرسال أحدهم ليسجِّل عزفنا تسجيلاً حياً ومباشراً».

قالت ماريان: «هذه فكرة سيِّئة». ولكنها فعلت ذلك على أي حال.

وصلتُ إلى "فرانسيس هاينز" مع مهندس التسجيل. كان تي منتشياً، قلتُ لعازف البيانو: «عفواً، هل يمكنني أن أعزف قليلاً؟». وافق بسرعة عندما شعر بإصراري على الموضوع، لكن تي لم يتزحزح. عندما رآني، ابتسم وغمزني وفكَّرتُ: «يا لك من تافه! لطالما كنت تحبُّ الدراما». عزفنا معاً وكان ذلك مثيراً للغاية. كنا غارقين ومنسجمين في تلك الليلة مثلما كنا في الماضي خلال جولاتنا الموسيقية، وتفاعل الجميع معنا. لم يكن التسجيل صافياً. ومن الممكن سماع الناس وهم يتحرَّكون ويتحدَّثون وأصوات قرع الكؤوس. يمكنك حتى أن تسمع صوت إشعال عود ثقاب في اللحظة التي عمَّ فيها الصمتُ القاعةَ وبدأ الجميع بالاستماع. عندما سمعت ماريان التسجيل قالت: «إنه ليس مثالياً، ولكن عزفكما عظيم. هل تريدين تضمينه في الألبوم؟».

* «نعم، أريد ذلك حتماً».

أما بقية الألبوم فقد كان لي أنا وسيسيل. شعرتُ بأنني منفتحة، وعلى طبيعتي. ومن الممكن سماع شيء من أنفاسي في بعض التسجيلات، ولكنني قررتُ أن أتركها كما هي. أحببتُ شعور العزف المباشر. ويعتبر المرء محظوظاً إذا استطاع الحصول على مثل هذا التسجيل. وهناك

بعض الأشخاص الذين يخجلون من تركِ الأمور على طبيعتها. منذ ذلك التسجيل الأوَّل، قمتُ بالعديد والعديد من التسجيلات في فانغارد ولكنه لا يزال مع ذلك المفضَّل لديّ.

أبقيتُ تسجيلي أنا ومهسا كما هو تقريباً ولم أغيِّر فيه الكثير. كانت في قمَّة حماسها للعزف في ذلك اليوم وجلسنا وعزفنا بأقصى طاقتنا. عندما انتهينا، جلسنا ونظرنا إلى بعضنا البعض.

- «من أين أتى كل هذا؟».

* «أنا حقاً أحبُّ العزف معكِ».

أسميتُ الألبوم "كاثرين غودناو: الثمينة". وحملت صورة الألبوم رسماً باهتاً لاسم مينغ بالأحرف الصينية، وصورة لي مع شعري المنسدل على طبيعته وأطفالي الواقفين في زقاق قرب شقّتنا. حيث ظهرت بيا ممسكة بكلب ضال كانت قد وجدته وقتها. استمتع الأطفال بكونهم جزءاً من العمل. وتضمَّن الغلاف كلمات ماريان عن الألبوم وشكري للأشخاص الذين ساعدوني بما في ذلك أمِّي. كنتُ قد عملتُ طوال حياتي اللعينة لأحصل على هذا الألبوم الأوَّل.

أخذتُ نسختين من الألبوم، واحدة لأمِّي، والأخرى لأرسلها بالبريد إلى مهسا، التي اتصلت بي بمجرَّد حصولها عليه، قائلة: «استمعتُ إليه على مدى ست ساعات. عزفك رائعٌ جداً».

* «أصبحنا نحن الاثنتان من عداد الموسيقيين الآن».

- «كان عليَّ أن أبقى لأسجِّل كامل الألبوم معكِ».

* «سنسجّل واحداً آخر في وقت لاحق، لا تقلقي».

نُشرت مقالتان نقديَّتان حول الألبوم، واحدة جيِّدة والأخرى تقول إن هناك صبغة أنثوية في موسيقى الجاز التي قدمناها. رميتُ الجريدة على

الأرض، والتقطها دكستر، قائلاً: «أماه، لقد أصبحتِ من المحترفين الآن. وعليكِ أن تتقبَّلي النقد».

* «أنا لم أتقبله طوال حياتي، ولن أبدأ الآن يا دكستر».

بعض الأشخاص يريدون لكَ أن تعاني. ولذلك كتبتُ إلى الناقد: «متى كانت آخر مرة قلتَ فيها إن الموسيقى تحمل صبغة ذكورية؟ لمَ لا تقوم بتسجيل ألبومكَ الخاص إن لم يعجبك ألبومي؟ أنا أعزف وفق أسلوبي الخاص».

***

بمجرَّد وصولي إلى هاملتون، طلبتُ من والدتي أن تستمع إلى الألبوم. تأملتُ يديها المنهكتين من العمل، وقد بدت عليهما علائم الشيخوخة. طوال عمري كنتُ أشاهدها وهي تضع الأسطوانات الواحدة تلو الأخرى، وها هي الآن تضع الآن أسطوانتي أنا. استمعنا معاً، وقالت: «كاتي، لقد نجحتِ في ذلك».

أريتها الشكر المطبوع على غلاف الألبوم وقلتُ: «دعينا نأخذ الأطفال غداً للنزهة على درب السكة الحديدية».

كان الأطفال يحبُّون الجولة التي تبدأ من وسط المدينة وتنتهي قرب جرف الشلالات. وقالت بيا: «أحبُّ أن أكون في براري كندا. وأتمنى لو كان لديَّ كلب».

قال والدتي: «هل تظنين أن هاملتون هي البراري؟ صغيرتي بيا، هذه مدينة الصلب. هيا سوف أستعير كلب جيراننا من أجلكِ».

كانت تستمتع بسرد القصص والتدخين والغناء. كنتُ أراقبها مع أطفالي وأفكِّر في تأليف مقطوعة موسيقية تخصُّها. أمضينا الوقت في لعب

الورق وغناء الأغاني نفسها التي غنَّتها لها والدتها، كانت تدقُّ على طاولة المطبخ القديمة وتغنِّي:

ما الذي يمكن أن تفعله عندما ينكسر السرير؟

جرَّبنا ذلك على الأريكة،

جرَّبنا ذلك على الكرسي،

جرَّبنا ذلك على النافذة،

كل ذلك بلا فائدة.

ما الذي يمكن أن تفعله عندما ينكسر السرير؟

قالت لي في إحدى الليالي، عندما ذهبتُ معها في نزهة: «كنتُ أتواصل مع بعض المحامين لكي أحصل على اعتذار من الحكومة على سجني في إصلاحية بلمونت».

* «لماذا تريدين نبش الماضي؟».

- «كاتي، لم يكن لديهم الحق في فعل ما فعلوه».

رمت بسيجارتها، وقالت: «سوف أحصل على اعتذار. سواء أردتِ ذلك أم لا».

أردتُ أن تعود معنا إلى نيويورك لقضاء بعض الوقت لكنها رفضت رفضاً قاطعاً. كنا نتغيَّر، أنا وهي، وكنتُ أعرف أنها كانت وحيدة، ولكنني لم أستطع أن أفعل أي شيء حيال ذلك، فقد كنت غارقة في دوَّامة رعاية الأطفال والاستمرار في العزف. عملت في المكان نفسه منذ ثلاثين عاماً ولم تكن لتتركه أبداً. كنتُ أشعر بأنها لا تزال تبحث عن شيء ولكنني لم أكن أعرف ما هو. ويراودني دائما شعور بأننا متصلتان مثل فروع متشعبة لقضيب الكهانة الذي يسحر تيارات ما تحت الأرض.

مهسا

علّقت مونيك علب صفيح وأحذية قديمة على باب شقتنا. كنتُ في حاجة إلى معانقتها بعد عودتي من نيويورك، سألتني: «يا إلهي! كيف تزوَّجتِ دون أن تدعيني لحضور الزفاف؟ لطالما أردتُ حضور حفل زفاف مسلمين!».

* «ولكن لمَ وضعت علب صفيح وأحذية قديمة؟».

- «إنها مزحة. يُقدَّم حذاء للعريس لإتمام اتفاق الزواج ويقوم العريس بنقر الحذاء على رأس عروسه ليظهر من هو الآمر الناهي. إنه أمر مثير للسخرية. أما علب الصفيح فهي لدرء الأرواح الشريرة. وعليَّ أن أضع بعضاً منها على بابي. فلديَّ الكثير من الأرواح الشريرة وأنا في حاجة إلى باب كامل من القصدير. ترك كلود المنزل، وسأحتفظ أنا بالشقّة، كما أنني سأفتتح مسرحية جديدة في الأسبوع المقبل. يتعيَّن عليكِ تأليف الموسيقى للمسرحية المقبلة. جاء جان الأسبوع الماضي ليسأل عنكِ. وهو يريد منا أن نقيم حفلة مثلما اعتدنا أن نفعل. لا أعتقد بأنه يعرف بأنك تزوَّجتِ، وأنا من جهتي لم أخبره. أخبريني عن علي».

- «إنه لطيف، وهو محامٍ».

* «ماذا؟ محام؟ يبدو لي وكأنكِ تتحدَّثين عن شخص غريب».

- «لا يهم. علينا أن نعتاد على بعضنا البعض».

دخلتُ إلى غرفة نومي القديمة ووجدتُ رسائل كمال في درج سفلي. قمتُ بتجميعها وإعطائها إلى مونيك قائلة: «احتفظي لي بهذه الرسائل لديكِ».

* «مهسا، هذا الزواج ليس صحيحاً. فأنتِ لستِ مغرمة به».

مونيك هي الشخص الوحيد الذي كانت لديه الجرأة لقول ذلك.

قلتُ: «يمكن للحبِّ أن يأتي ويكبر مع الوقت. هذا ما نؤمن به في بلدي».

دسَّت حزمة رسائلي في حقيبتها، وقالت: «الحبُّ هو الحب. ولا يهمُّ أين أنتِ».

في أوَّل صباح لعلي في مونتريال، نهض وتركني في السرير. بعد لحظات قليلة، نظر إليَّ من الباب، وقال: «ألم تعدِّي الشاي بعد؟».

توجَّه إلى المطبخ وأعدَّ الشاي. ثمَّ وضعه على طاولة السرير، وقال بابتسامة: «تفضَّلي الشاي!». ثم ذهب لقراءة الجرائد في غرفة الجلوس.

لم أفهم لمَ قام بذلك. هل كان يحاول أن يكون لطيفاً معي؟ ولكن لم يكن في ذلك أي شعور بالرفقة أو المشاركة. كنتُ أدركُ أن صوت أمِّه يرنّ في أذنه: «أنت أفضل». وأدركُ نظرته الدونية إلى النساء والخدم.

فيما مضى، كنتُ أُمضي أيام الآحاد الكسولة مع مونيك وأصدقائنا بعد عودتنا من شارع سانت أنطوان فجراً إلى منزلنا، حيث نحتسي القهوة، ونقرأ الصحف، ونضحك ونتبادل الأحاديث ونملأ أكواب بعضنا البعض. أما الآن فقد أصبحتُ وحيدة، متزوِّجة ووحيدة.

كان وجه علي وسيماً ولكنني لم أحبه. عندما ينام، كنتُ أتأمَّل التجعيدة

القلقة بين حاجبيه، وشفاهه الرقيقة تحت شاربه. كان وجهه أرق عندما كان نائماً. عندما نمارس الحب، لم أكن أشعر بأنه يسعى إلى اكتشاف حاجاتي بل يبحث عن سعادته الخاصَّة. وبالطبع فلم نكن قادرين على مناقشة مثل هذه المواضيع. تجاهلتُ الموضوع كما لو لم يكن يعنيني. كنا نتشارك السرير نفسه في كلِّ ليلة، وشعرتُ بأنني محاصرة ومكبَّلة بطريقة لا توصف.

كنتُ أدركُ أن على الزوجة أن تسعى إلى إرضاء زوجها. ولهذا فقد استسلمتُ لعلي، ظناً مني أنه سيبدأ في التفاعل معي. وعندما لم أكن مطيعة كان يقاومني بشراسة. وأعتقد بأن بداية أي زواج هي نوع من التمثيل، حيث تحاول أن تكون ما تعتقد بأنه يجب على الزوجة أو الزوج أن يكون. كنا منشغلين بالتجهيز لأعمال عائلته والحسابات المصرفية، واستئجار المكاتب، والتقدُّم بطلبات إلى الحكومة. كنتُ أساعده لأنني كنتُ أعرف المدينة جيِّداً وقد أصبحت لغتي الفرنسية جيِّدة الآن. كتبت لي والدة علي رسالة تخبرني فيها بأنني ما زلتُ زوجة تبعث على الرضى، على الرغم من كوني عنيدة أحياناً بعض الشيء، وكانت تقصد بقولها هذا أن تمتدحني. لم يكن علي فضولياً للتعرُّف على الجامعة، ولكنني اصطحبته إلى هناك على أي حال. عندما توقَّفنا عند التمثال الضخم للملكة فيكتوريا أمام مبنى الموسيقى قال لي: «هناك الكثير من الملكات في كندا». كان ذلك في شهر كانون الثاني وقد أزعجه البرد. أخذته في جولة في استوديو التدريب الخاص بي. وأخبرته بأنني كنتُ أعزف في فندق "الريتز" في أيام السبت، وبأنه لديَّ حفلة في نيويورك في نهاية هذا الشهر. قلتُ: «بعد تخرُّجي سأدرِّسُ بدوام جزئي وسأعمل في الطابق السفلي في هذا المبنى». ولكنه لم يرد عليَّ بشيء.

بعد فترة وجيزة، طلبتُ منه أن يتناول الغداء في فندق "الريتز" بينما أعزف. كنا نسير في البرد جنباً إلى جنب في شارع سانت كاترين، ورأيتُ زوجين فرنسيين وذراعهما ملفوفتان حول بعضهما البعض، دسستُ ذراعي حول خصر علي. حاول أن يضع ذراعه حول كتفي ولكن وركينا اصطدما ببعضهما البعض، شعرنا بالحرج وابتعدنا عن بعضنا. اهتم موظفو الفندق به كثيراً وأحضرتْ له مونيك جريدة "هيرالد تريبيون" وبدأ يقرأ. قلتُ له: «عليكَ أن تأتي إلى نيويورك وتتعرَّف إلى كاثرين».

* «ربما».

- «حسناً، سأذهب للاستعداد للعزف الآن. أركَ لاحقاً».

* «ماذا؟».

- «سأعزف الآن».

* «ماذا؟».

- «علي!».

* «أنتِ تعزفين هنا، وتقدمين الترفيه والتسلية للناس؟».

- «نعم فعلاً».

* «ولكنه فندق».

- «أخبرتُكَ بذلك سابقاً».

* «ولكن لماذا تريدين العزف هنا؟».

- «أنا أكسب المال، وأستمتع في الوقت نفسه».

* «ولكن لدينا الكثير من المال. وأنتِ لا تزالين طالبة».

- «أنا أحبُّ القيام بذلك. وأحبُّ أن تكون لديّ أموالي الخاصَّة».

* «ماذا؟».

- «علي، توقَّف عن قول: ماذا».

* «لن تعزفي في فندق».

- «علي، أنا أقوم بذلك بالفعل».

ذهبتُ لتبديل ملابسي. كان الساري الذي ارتديته بلا أكمام ويظهر بطني تحت شال من الشيفون الشفاف. وهو مخصَّص للحفلات. من السهل التلاعب بالساري، ولذلك رفعتُ التنُّورة وغطيت رأسي بطرف الساري لكي أدخل بطريقة أكثر درامية. ويمكنني بعد ذلك أن أدعه ينسدل. لم أكن في حاجة إلى أن أتوتر أو أقلق، علي لم يكن هناك عندما خرجت.

كنتُ غاضبة جداً لدرجة أنني عزفتُ فقرتي، وذهبتُ إلى مونيك ولم أعد إلى المنزل حتى وقت متأخر.

تقلَّب علي في السرير عندما اندسستُ فيه، ولم أمانع عندما خلع عني ملابس النوم. كنتُ أشعر بإلحاحه وبعدم الأمان معه. وفي الصباح لم نقل أي شيء قبل توجُّهه إلى العمل. وعلى العشاء قلتُ له: «علي، ينبغي أن نتحدَّث».

* «حول ماذا؟».

- «حول السبب في امتناعكَ عن الكلام معي».

* «لا يوجد شيء للحديث عنه».

- «حقاً؟».

* «هل ستتوقفين عن العزف في الأماكن العامة؟».

- «علي، أخبرتكَ منذ البداية بأنني أعزف هناك. ألم يخبركَ العمُّ بأنني اعتدتُ على العزف في فندق "بيتش لاكشري"؟».

* «بالطبع. ولكن ذلك أمر مختلف. كان هو يعمل هناك. بالمختصر، لا أريد أن تعزفي في الفنادق».

- «لمَ لا؟».

* «إنه عمل مهين».

- «علي، كنتَ تعيش في لندن! والكثير من النساء هناك يعزفن ويؤدِّين العروض».

* «ولكن عندما تقومين أنتِ بذلك، فإنه يجعلني أشعر بأنني لستُ زوجاً صالحاً. فهو ليس عملاً محترماً».

رفع يديه وحرَّك أصابعه في محاكاة ساخرة لعزف البيانو، وقال: «إنها موهوبة جداً لتكون زوجة صالحة فقط. وينبغي لها التباهي بنفسها».

- «علي، هذه أنا. يمكنني أن أعمل وأن أكون زوجة صالحة في الوقت نفسه، تماماً كما تفعل أنتَ».

اختفى الآن سحر نزهاتنا في كراتشي. لم أتمنّع مرة أخرى في تلك الليلة. وفي الصباح، غادرنا المنزل معاً.

عندما عاد مساءَ، كان يتحدَّث عن العملاء الجدد الذين التقاهم وعن الاختلافات بين لندن ومونتريال. كانت لندن أفضل من وجهة نظره. فهو يرى بأن لغته الفرنسية في حاجة إلى تحسين. دخل إلى المطبخ، ولفَّ ذراعيه حولي من الخلف. كنتُ أغسل الأطباق، وأراد أن يأخذني إلى السرير. لم أكن قد انتهيتُ بعد من غسل الأطباق، وكان عليَّ كتابة وظيفة للجامعة، لكنني انصعتُ له، متظاهرة بأنني أردتُ إرضاءه، بحيث تكون سعادتي هي في إسعاده، وأتمنى في الوقت نفسه أن تتغير مشاعري تجاهه. لم يكن هناك حنان أو عيون مُحبَّة. كنا مجرَّد غريبين في الفراش.

كتب العمُّ يقول: «يشكو علي من كونكِ عنيدة. حاولي أن تكوني زوجة صالحة ومُرضية».

لم يكن أي منهم يعرف عن حياتي هنا قبل علي، وقد ملأتني هذه الفكرة بفرح سرِّي.

عندما حملتُ لأوَّل مرة في كراتشي، أدركتُ ذلك ببطء، وقد انتابني حينها شعور بالخوف مع اكتشاف السبب وراء حساسية ثديي. في هذه المرة أدركتُ ذلك مباشرة. ولم أكن متأكِّدة من رغبتي في وجود هذا الطفل. فلم أكن قد تخرجتُ من الجامعة بعد. وكنتُ أرى صعوبة سفري إلى نيويورك مع الحمل. كانت مونيك قد أجهضت هنا من قبل. وكان ذلك في غرفة فندق. عندما سألتها لماذا فعلت ذلك، قالت مازحة: «ببساطة كان سيُجنُّ جنون والدتي، والكنيسة وكل مونتريال، وعلى أي حال فلم يكُن في إمكاني الاعتناء بطفل والعمل في المسرح».

اتصلت كاثرين. وقالت: «أوه بحق الجحيم يا مهسا! إذا كنتِ تريدين أطفالاً، فعلك القيام بذلك. ولهذا السبب تزوَّجتِ، أليس كذلك؟».

خجلتُ من أن أقول لها إنني قد تزوجت قسراً. ولكنها أعطتني فكرة، فأنا بالفعل أريد طفلاً. وعليَّ أن أحقق ذلك. كما يمكنني تدبر كل المهام الأخرى، تماماً كما فعلت هي.

عندما أخبرتُ علي بأنني حامل، قال: «دعينا نحتفل! إلى أين سنذهب؟».

* «دعنا نذهب إلى "أولد مونتريال". حيث تغني كريستين شاربونو».

كنتُ أحبُّ الأماكن المزدحمة، والمعتمة على ضوء الشموع، والكراسي القريبة من بعضها البعض وأيدي العشاق على سيقان بعضهم البعض تحت الطاولات الخشبية.

قال علي: «كنتُ أفكر في شيء لا ينسى مثل زيارة نادي "ألتيتيود 737"».

كان المطعم على قمة جبل، وقد شعرتُ بالدوار من النظر إلى أضواء المدينة في الأسفل. جلسنا قبالة بعضنا البعض، وكانت حافة مفرش المائدة ثقيلة على فخذي. شردتُ وأنا أفكِّر فيما إذا كنتُ سأشعر بالراحة مع زوجي يوماً ما. تناولتُ الحساء مع القليل من الخبز المحمص، وبدا علي نافد الصبر من تناولي مثل هذه المأكولات. في تلك الأيام كنتُ لا أزال أحاول إغاظته، وقلتُ: «بما أنني سأنجب طفلنا الآن، فعليك أن تكف عن الشكوى مني في رسائلك إلى أهلنا في باكستان».

لكنه رد عليَّ قائلاً: «أنا لا أشكو».

كنتُ مهتمة بحملي. بدا جسدي مسترخياً وشهوانياً، كنتُ أريد ممارسة الجنس، ولكن علي لم يعد مهتمّاً بذلك. ذهب في أوَّل رحلة له إلى لندن منذ زواجنا، وأدركتُ عندما عاد إلى المنزل بأنه قام في لندن بأكثر من الأعمال. لم أمانع ذلك كثيراً. فقد بدا بعيداً عني، مثل الأخ الأكبر، وكنتُ قانعة بأن يقوم بما يحلو له. حاولت إغاظته قائلة: «سوف آتي معكَ في المرة القادمة التي تذهب فيها إلى لندن».

لكنه لم يرد. ثم قال: «سمعتُ بأنكِ تعزفين في نادي "إسكوير"».

- «أجل، مع أستاذي، جان. اعتدتُ أن أعزف معه هناك».

* «لقد حذَّرني والدي».

- «ممَّ؟».

* «من أنكِ سوف تكونين عنيدة وقوية الإرادة، وأنه سيكون عليَّ أن أعالج الأمور بحزم».

- «وكيف ذلك يا عزيزي؟».

* «لقد قال لي والدي أن أجعلك تحملين بسرعة. وذلك لكي تهدئي وتستقري».

أذهلني بقوله هذا. وسألته: «هل من حكم أخرى تكرَّمت بها علينا عائلتك الكريمة؟».

لم يكن يعرف بأنه يهينني بكلامه هذا. فقد كان يعتقد بأنه على حق. حاولتُ التقرُّب منه في السرير في تلك الليلة لكنه ابتعد عني. وبعد بضعة أيام حاولت مجدَّداً، وأدركتُ، وأنا أشعر بخيانته، أن حياتنا العائلية كانت مجرَّد مظاهر بالنسبة إليه.

قال لي: «مهسا، أنا أعمل بجد لتسيير أعمالنا التجارية. وأحتاج أن تتفهَّمي هذا الموضوع».

وهكذا بدأت عادة الصمت بيننا. هناك قصة خيالية غربية عن امرأة أُجبرت على العيش مع وحش مرعب، وبعد أن تعلَّمت أن تحبه، تحوَّل إلى أمير جميل. ولكن الحب لا يُفرض، فهو ليس محكوماً بالإرادة أو القصص القديمة.

كاثرين

يوجد على مقربة من استوديوهات "دوغهاوس" في بروكلين متجر دونات مذهل. وكثيراً ما رأيت هناك زوجين عجوزين يحدّق كل واحد منهما في اتجاهات مختلفة. في إحدى المرَّات، نهض الرجل العجوز من مقعده وتوجَّه إلى الحمام وشاهدتُ المرأة العجوز وهي تتأمَّله. انتبهت لي واقتربت مني قائلة: «أمضينا معاً واحداً وستين عاماً. مع أن والدي قال إنَّ علاقتنا لن تنجح أبداً».

* «يبدو أنها نجحت».

- «أستحق في بعض الأيام الحصول على ميدالية لصبري. أصبحت ركبته سيئة مؤخَّراً».

قالت هذا بعينيها المشرقتين ورضا امرأة عاشقة تفترض وجود علاقة حميمة معي دون أي سبب سوى أنني امرأة. كانت لديها أسنان اصطناعية وتتحدث بلكنة بريطانية. أومأت لها بأن تجلس معي لكنها هزَّت رأسها، وقالت: «سوف يعود قريباً وعلينا أن نغادر».

* «من أين أنتِ؟».

- «هنا. ومن إنكلترا قبل ذلك».

كانت لديها سعلة حشرجة مثل والدتي. وقالت: «تزوَّجتُه، وبعد

أسبوعين انتقلتُ معه إلى هنا. كنتُ مربِّية في مدرسة أطفالي لأربعين عاماً. والآن فقد أصبح أحفادي هناك. ما هو مجال عملكِ؟».

* «أنا عازفة موسيقى. وأعمل في الحي».

- «ما نوع الموسيقى؟».

* «موسيقى الجاز».

- «لا أعرف الكثير عنها».

* «أشعر بأنني أريد تأليف أغنية عنكِ».

أعربت عن سرورها لقولي هذا، لكنها لم تكن متفاجئة. بدا لي أنها لطالما حصلت على أشياء جيِّدة وبسيطة. وقد بقيت خلال الحرب والأمراض إلى جانب الرجل الذي أحبَّها، وأعطاها كل ما لديه، ولم تطلب أكثر من ذلك.

* «كيف استطعتما البقاء معاً كل هذه الفترة؟».

يبدو أن هذا كان أمراً قد فكّرت هي به. ابتسمت مع أسنانها الاصطناعية النظيفة والكاملة، وقالت: «يسألني أطفالي هذا السؤال أيضاً، والجواب بسيط؛ كنا دائماً الشيء الأكثر أهمية في حياة بعضنا البعض».

كان الآخرون يملكون وظائف برَّاقة ويسافرون ويتحدَّثون اللغات، ويمتلكون أشياء ثمينة. أما هي فلم تكن كذلك، كلُّ ما لديها هو إيمان عميق وثقة في زواجها. كان حبُّهما عادياً وحقيقياً وخاصَّاً جدَّاً.

خرج يعرج، ووضع الذراع التي لم يكن يُمسك بها العصا حول كتفيها وشاهدتُ كيف مالت وأخذت مكانها الطبيعي هناك. كان كتفه مستقيماً، ولديه يدان كبيرتان وساعدان قويان لرجل كان يعمل طوال حياته. ذكرني ببيغ جوني زوج نان.

سألها: «جاهزة؟». أومأت برأسها والتقت عيناهما بطريقة مريحة. وهما يغادران، لفّت ذراعها حول خصره، وأنزل يده ليلف خصرها. استدارت لترى إذا ما كنتُ أراقبهما وابتسمت لي كفتاة صغيرة كما لو أنها تقول: «أرأيتِ؟». ثم تحرَّكت من تحت ذراعه وأمسكت يده بين يديها. استدارت وسألتني: «ماذا ستسمين أغنيتي؟ أريد أن أبحث عنها لاحقاً».

* «ما رأيكِ في عنوان "شيء جديد" أو "حب طويل"؟».

- «أفضِّل العنوان الأوَّل».

ولأنها اختارت ذلك العنوان فقد قرَّرتُ أن أكتب مأساة تراجيدية.

مهسا

دخل جان سانت جون فجأة إلى غرفة تدريبي، وهو يدخِّن سيجارة، جرّ كرسيه وقاطعني قائلاً: «ماذا حدث؟».

* «ماذا تعني بهذا؟».

- «عزفكِ. لقد تغيَّر فيه شيء منذ أن تزوَّجتِ. وبالمناسبة، كان في إمكانك أن تخبريني بذلك».

* «قمتُ بتسجيل مقطوعة مع كاثرين غودناو ضمن ألبومها الأوَّل».

- «برافو. ولكن هناك شيء آخر. أستطيع أن أشعر به».

* «أنا حامل».

- «تبّاً!».

* «جان، أنا سعيدة».

- «رائع. تهانينا! متى ستكفِّين عن العزف؟».

وقفتُ. فقال: «اجلسي. واعزفي مقطوعة لثيلونيوس مونك».

في إحدى المرّات، وصف كولترين شعوره عندما عزف مع مونك بأنه يشبه الدخول إلى حجرة مصعد فارغة. ولكي تعزف لمونك فعليك أن تكفَّ عن التفكير في أي شيء آخر وتركِّز على ذلك فقط. وهذا ما فعلته

تماماً. توقفت عن التفكير في جان والطفل وكل شيء ما عدا تلك القطعة الموسيقية.

عندما انتهيتُ، أوقع جان عقب سيجارته على الأرض، وأطفأه بحذائه. نهض وقال: «مهسا، أنتِ تملكين الموهبة. لا تضيعي ذلك. سوف يقول لكِ الناس إن عليك التوقف عن العزف. فهل تملكين الشجاعة لمجابهتهم؟».

* «لا تقلق، فأنا أعرف تماماً كيف أتعامل مع الوضع، وكما يقولون في بلدي "من يريد أن يتعامل مع الجِمال، فعليه أن يجعل باب بيته عالياً"».

فضحك ضحكته التي أحببتها. وقال: «يا إلهي، متى ستقيمين حفلة مع صديقتكِ الكوميدية مونيك؟ أريد أن أرقص رقصة الوشاح مرة أخرى».

لاحقاً، عندما أسررتُ إلى علي بأنني قلقة ومتوترة بشأن قدرتي على إنهاء دراستي والتدريس بعد الولادة، قال لي: «ليس لكِ أن تشتكي. فكل شخصٍ ينظر إلى همومه على أنها أكبر الهموم». وأصبح يضايقني ويصرُّ على بقائي في المنزل، وعلى أن أشرب الحليب كامل الدسم صباحاً ومساءً وهو ما كنتُ أكرهه بشدَّة. ولإرضائه كنتُ أشتري الحليب منزوع الدسم، ومع ذلك فقد ظلَّ يصرُّ على الموضوع.

- «علي كفاك إلحاحاً. سأتناول ما أريد».

* «تقول أمِّي إنَّ هذا أفضل للطفل».

كنتُ أرى إحباطه، الذي يشبه ما كنتُ أسبِّبه للعمِّ في كثير من الأحيان. في البداية كنتُ أريد أن أصدِّق بأن كل ذلك دليل على عاطفته وحبِّه لي، ولكنني استنتجتُ بأن الزوج ينظر إلى الزوجة على أنها إحدى ممتلكاته التي يريد المحافظة عليها.

كتبت والدة علي قائلة: «ضعي دراساتكِ الموسيقية جانباً، واستمتعي

برعاية طفلك». وقالت لي مونيك: «لم تحاولي أن تأخذي حبوب منع الحمل، لا بدَّ من أنكِ تريدين أن تصبحي أمّاً».

تأكيدات جان بأنني أملك الموهبة هي الشيء الوحيد الذي كان يمنحني الأمل في الداخل.

ولد ابننا في 7 حزيران 1973. أسميته آصف، حيث اعتادت مور أن تهمس لأبو قائلة: «أنتَ جانان آصف». أي المحبوب والنقي، واعتاد والدي بأن يجيب: «مثلما تريدين». ولكنه كان يحبُّ ذلك الاسم. اعتقد علي بأنني كنتُ أقصد الاسم العربي وقال: «نعم، آصف هو اسم جيِّد».

خلال الأشهر الأولى من ولادة آصف كنتُ أشعر بالوحدة وبثقل الأيام، كان علي يغادر المنزل مبكِّراً ويعود متأخِّراً. في تلك الأيام، كنتُ محرومة من النوم، ومنهمكة بإرضاع آصف ورعايته، وتمنَّيتُ وجود امرأة أخرى تشاركني طفلي. كنتُ أردِّد كلمات والدتي لتهدئة ابني الجديد:

رائحة طفلي مثل الخزامى.

هل كل الأطفال مثل طفلي، أولم تلد أي امرأة قبلي؟

اتصلتُ بكاثرين وقلتُ لها: «إنه جميل، ولكنني سأُجنُّ من الوحدة».

* «اعتدتُ الجلوس بجوار النافذة واللعب بقاذف البازلاء».

- «لم أعد أعرف نفسي».

* «ليس من المفترض بكِ أن تكوني على هذه الحال. اخرجي من المنزل. وتعرَّفي إلى بعض الأمَّهات الأخريات. والأفضل من ذلك، احصلي على جليسة أطفال».

لا يمكن التصفيق بيد واحدة. أصبح علي أكثر رقَّة تجاهي، فهو مسرور بوجود ابنه. تحدثتُ أمامه عن العودة إلى الجامعة، ولكن الأشهر حالت

إلى عام. كان هو يستمتع بنجاح عمله، واعتاد أن يُحضر العملاء إلى المنزل للاحتفاء بهم، كما كنا نذهب إلى المسجد الجديد في طريق لافال في فيل سان لوران، والذي لم يكن يضم سوى صفَّين من المصلِّين، وراقبتُ علي وهو ينضمُّ إلى هذا المجتمع الجديد، وكيف تتوقَّف سعادته على موافقتي على ألا أكون نفسي. والآن كان لزاماً عليَّ أن أكون الأم الجديدة والزوجة المضيفة الساحرة، أن أكون غير مرئية على مرأى من الجميع.

أصبحت حياتي الخفية أكثر تعقيداً. عندما ينام آصف، كنتُ أغتنم الفرصة للتمرُّن على البيانو. تدبَّرتُ وجود جليسة أطفال حتى أتمكَّن من العزف في الأندية مع جان. وعندما بلغ عمر آصف أربعة عشر شهراً، كنتُ حاملاً مرة أخرى. أخبرتُ جان بحملي الجديد، وقال: «هل جننتِ؟». عانقتني مونيك، وقالت: «فتاة، أريد فتاة، أيتها الحمقاء، لا أعرف لماذا تفعلين هذا، ولكن على الأقل يجب أن تكون فتاة!». وبالطبع فقد كانت فتاة، أسميتها ليلوما، وعاد كابوس الأشهر الأولى مرَّة أخرى، مع الليالي الطوال دون نوم والرضاعة وطفلين لرعايتهما وإطعامهما وتحميمهما والعناية بهما. زارت مونيك عالمي الحليبي، الأشعث واللزج، وقالت: «ألا يمكنكِ وضعهما في أسرَّتهما والخروج لتناول القهوة معي؟ ثم نذهب بعد ذلك إلى السينما. أنتِ في حاجة إلى استراحة من كل هذا الجنون». ضحكتُ وأعطيتها ليلوما لتحملها.

قالت: «لن أنجب أطفالاً. ولكنني سوف أكون خالة لطفليكِ».

أما كاثرين فقد قالت لي: «من الرائع وجود طفلة. تعالي برفقتها قريباً. وسنعزف سوية».

كنت أخدع نفسي بالمظاهر التي كنتُ أخلقها بنفسي. ذهب علي إلى لندن لقضاء بعض الأعمال وعاد منتعشاً. وقد كان غاضباً ومتوتراً في

المنزل طوال الوقت، فهو يعيش بشكل مضطرب بين تشابكات الطرق الغربية في العمل ومقاومة هذه الطرق معي ومع الطفلين. حاولتُ أن أكون غير مرئية، مثل الجن المختبئ تحت ألواح الأرضية. ولكنني قلتُ له في أحد الأيام وأنا منزعجة: «لا تزال على الأرجح واقعاً في حبِّ صديقتك اللندنية».

* «ليست مشكلتي في أنكِ كنتِ صغيرة جدّاً على الزواج».

- «في الحقيقة فقد كنتَ منشغلاً جداً بإخباري عن عشيقاتك لدرجة أنك لم تسألني فيها عن ماضيَّ».

كانت كلماتي صادمة، مثل تهشُّم الزجاج على الأرض بحيث لا يمكن إصلاحه.

وللمرَّة الثانية، لم يسألني عن شيء، ولكنه حمل هذا الموضوع ضدِّي. كان زواجنا مليئاً بالصمت. فقد كنا نختلف مع بعضنا ونزداد ابتعاداً عن بعضنا دون أن نعمل على حلِّ المسائل، وبهذه الطريقة فقد خلقنا حياة سطحية ضحلة. كنتُ أُرضع الطفلين وأعتني بهما وأحاول العزف، وكان هو يبني شركته ويحاول تشكيل مظاهر عائلتنا. ولم يكن مهتمّاً أبداً بالعمق الحقيقي لعائلتنا أو بي.

بعد فترة، بدأ بالحديث عن إعادتنا إلى كراتشي لرؤية والديه، وأخبرته بأنني لن أذهب، وبأنني لا أريد أن أرى العم.

وفي أحد الأيام، كانت مونيك تلعب مع آصف، وتكوِّم كتلاً صغيرة ليقوم هو بتحطيمها. كانت ترفع شعرها المجعَّد فوق رأسها ونظَّاراتها مرفوعة إلى الأعلى. جلستُ على الأرض قبالتها، وأنا أرضع ليلوما، وفمها الجميل يرضع بجوع وكأن حليبي دواء لها. قلتُ: «يريدني علي أن آخذهم في زيارة إلى باكستان. ولكنني لا أستطيع أن أعود».

* «لماذا؟».

- «أنا خائفة».

* «من ماذا؟».

أردتُ أن أقول لها عن والديَّ ولكنني لم أستطع. فقلت لها: «عمِّي أجبرني على الزواج. وأنا لا أريد أن أراه أبداً».

* «أجبركِ؟».

- «نعم، لقد تزوَّجتُ فقط حتى أتمكَّن من العودة إلى مونتريال».

لم أكن أريد لها أن تشعر بالأسف من أجلي، ولم أكن واثقة من أنها ستتفهَّم الموضوع. كنتُ أشعر بالعار والصمت. جعلتْ مونيك برج آصف أكثر ارتفاعاً. وحاولت يداه الصغيرتان أن توازن كتلة أخرى على القمة. وشاهدتُ شفتيه الصغيرتين المزمومتين وهو يحاول التركيز. ثم قالت: «هل أنتِ خائفة من أن يجبركِ على البقاء هناك؟».

هذه المرة، عندما سقط برج آصف، شرع في البكاء، وأقنعته مونيك بالمحاولة مرَّة أخرى. ساعدتُ ليلوما على التجشُّؤ وضممتها إلى صدري وشعرتُ بعضلاتها الصغيرة تسترخي ورأسها يتدلى في انحناءة سلسة وهي تغطّ في النوم. مدّدتُها على الأريكة، وأمسكتُ بآصف، وبضحكة خفيفة قلتُ: «حان وقت الغذاء في حديقة الحيوان. تعالي إلى المطبخ وأخبريني كل شيء عن مسرحيَّتكِ الجديدة».

* «مهسا، عليكِ بترك علي. فأنتِ لم تعودي المرأة نفسها التي أعرفها».

- «وإلى أين سأذهب؟».

فكرتُ بالكيفية التي سأتدبَّر فيها أموري، وماذا سيحلُّ بالطفلين.

في صباح اليوم التالي، أخذتهما لنزهة طويلة، ومررتُ بجانب البنك

القديم ذي الأسدين المنحوتين. كنتُ قد استأجرتُ صندوق ودائع آمن لجواز سفري. ثم ذهبتُ إلى عيادة الجامعة، وحصلت على حبوب منع الحمل. دفعت ثمنها نقداً، وخبّأتُ العلب في نسخة مفرَّغة لرواية "زولاز نانا" لأن علي لا يقرأ أبداً الروايات الفرنسية.

اتصلتُ بكاثرين لأخبرها بأنني كنت متعبة جدّاً ولم أكن قادرة على التمرُّن. وقالت: «ستبدئين من جديد. ما من داع للقلق، فهذا أمر طبيعي. أذكر أياماً مرَّت عليّ، لم يكن لديَّ الوقت لتأليف أي شيء. استمرِّي في السعي، فإذا سُرقت أحلامكِ، فقد سُرقت حياتكِ بأكملها».

كاثرين

كان تي يغار من حقيقة حصولي على أوَّل تسجيل لي. فقد سجَّل الكثير من التسجيلات بوصفه عازفاً، لكنه لم يؤلِّف قط. بالنسبة إليَّ، لم أكن أرى أيَّ سرٍّ في التأليف. فالناس يؤلِّفون لأنه ليس في وسعهم ألا يقوموا بذلك. والأمر نفسه ينطبق على العزف. ولم يكن تي قادراً على الامتناع عن العزف. وكان يجرِّب الماكروبيوتيك[1] والسيانتولوجيا[2] والمنشِّطات مثل الكثيرين من عازفي الجاز آنذاك. ثم انتقل غرباً عندما بدأت الأمور بالانهيار، وذلك عندما أصبح مدمناً على الهيروين. كان مشوَّشاً. وكانت تلك أوقاتاً عصيبة. عندما كنتُ أراه، كنا نمارس الحب كما لو أنه الشيء الملائم للقيام به، وقد كان كذلك بالفعل. ولكنني كنتُ غاضبة منه، لغيابه معظم الوقت خلال كل تلك السنوات.

قال لي: «كاتي، لا أريد للأطفال أن يروني على هذه الحالة، ولكنني أريد أن أراكِ».

---

1 - نظام غذائي طوّره الفيلسوف الياباني جورج أوشاوا، يقوم على تناول الأطعمة التي تحقق التناغم والتوزان وفقاً لمبادئ الطاوية والين واليانغ. (م).

2 - نظام ديني يقوم على السعي لمعرفة الذات والكمال الروحي من خلال دورات متدرجة من الدراسة والتدريب. أسسه كاتب الخيال العلمي الأميركي رون هوبارد في عام 1955. (م).

* «يمكنكَ أن تراني وأن ترى أطفالكَ».

- «كاتي، لا تكوني عنيدة وقاسية كعادتكِ».

* «أنا أعني ما أقول يا تي».

ولكنني كنت أسمح له دوماً بالدخول. كنا رفيقين في السرير. قلتُ: «ينبغي لكَ أن تصلح من أحوالكَ». حاولتُ بعد ذلك جذبه إليَّ أكثر، ولكنه بدأ بالحديث وكنتُ أعرف بأنه كان يخطِّط للأشياء التي كان يريد قولها. كان صوته ناعماً وليس نادماً. صوت رجل يكافح بشدة للتعبير عن أفكاره. قال: «عليَّ أن أغادر. ليس في وسعي أن أغيِّر من طبيعة الأشياء. وثمة أمور لا بدَّ لي من تعلُّمها».

* «أنا أعلم يا تي».

- «في كل مرَّة أراكِ...».

* «وأنا أيضاً».

- «عليكِ الاستمرار في التأليف».

* «ولكنني أريد أن أكون مثلكَ، منشغلة بكل تلك الجولات الموسيقية. ولكن لا بدَّ من وجود شخص ما ليربِّي أطفالنا».

- «أنقاد أحياناً وراء بعض الأشياء. ومنها ما هو ليس جيِّداً».

وضعنا الكلمات جانباً لنستمتع بلمسات عُرينا. كنتُ أودُّ أن أكون حرَّة بما فيه الكفاية لأنقاد وراء الأشياء مثله. استلقى فوقي، وكنا جسداً واحداً. وبطريقة أو بأخرى لطالما كنا جسداً واحداً، يعيش كل منا داخلَ الآخر.

لاحقاً، وبينما كنا نستريح سألته: «كيف حال أسرتكَ الأخرى؟».

ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «هل ستقومين برمي ملابسي من النافذة إذا قلتُ أي شيء؟».

* «يحبُّ الرجالُ النساءَ الغاضبات».

- «حبيبتي، دعينا نتحدث عن أنفسنا».

* «حسناً، ولكنني لن أضع ملابسكَ في كيس في المرة القادمة».

وجذبني أقرب إليه. كان الأطفال في حاجة إليه. كما أنني لم أتوقَّف يوماً عن الإحساس بذلك الشعور الغريب عندما أراه، ولذلك فقد قررتُ عدم دفن حبي له. توصلتُ إلى استنتاج مفاده بأنك إذا لم تكن قادراً على تخيُّل خيانة من تحب لك، والاستمرار على الرغم من ذلك في حبِّه، فإنك لم تقع في الحب بعد. كنتُ أريد أن أعزف، وأن أؤلِّف، وأريدُ أطفالي، وأريده هو.

مهسا

احتضنت كاثرين ليلوما الصغيرة بحنان، ووضعت يدها الضخمة تحت رأسها مثل قبعة، قائلة: «إنها مثالية».

اتصلتُ بعلي حالَ وصولي إلى بيتها، وتركت رسالة قائلة: «أنا في نيويورك. لا تغضب. كان عليَّ أن أذهب. سأعود في غضون أسبوع».

شعرت بأنني أنا نفسي مجدداً، وقرَّرتُ بألا أقلق حول مشاكلي بينما أنا هنا.

عزفنا في "سيرف ميد" على مدى ثلاث ليال. كنتُ أركض إلى الطابق العلوي لأرضع ليلوما بين الفقرات. وقالت كاثرين: «أنتِ تعزفين أفضل من ذي قبل. يبدو أن إنجاب الأطفال يلائم موهبتكِ».

كان من الجيِّد ألا أكون وحيدة. ذهبنا في آخر يوم لنا في المدينة في نزهة إلى حديقة سنترال بارك. استأجرت كاثرين صنارات صيد وأبقينا ليلوما على البطانية بيننا، بينما ذهب الأطفال إلى البحيرة. كان الجميع متكاسلين وراضين تحت شمس ما بعد الظهر الدافئة، تحدَّثتُ مع كاثرين عن الموسيقى وخططنا للذهاب إلى عدد من النوادي المعروفة. كنتُ أرضع وأغيِّر حفاضات ليلوما التي كانت تشاهد الضوء المنعكس على أوراق الشجر بعينيها الرماديتين اللتين تشبهان عينيَّ.

قلتُ لكاثرين: «ليتنا نعيش هكذا طوال الوقت». وقالت: «أجل، يا ليت».

فجأة ظهرت بيا تركض باتجاهنا وهي تصرخ: «لقد اختفى آصف. ولم نتمكّن من العثور عليه».

كنتُ أراقبه على شاطئ البحيرة. ثم انشغلتُ مع ليلوما والتحدُّث إلى كاثرين واختفى ولدي الصغير.

جلتُ بنظري في المكان وكان العالم يبدو لي فارغاً. كان سطح البحيرة مستقراً. هل غرق تحت الماء؟ هل هو ميتُ وعيناه مفتوحتان وجسده الصغير غارقٌ في الوحل؟ هل سيغطس الغواصون التابعون للشرطة ويخرجون جسد ابني الصغير؟ أم هل خطفه شخص شرير دنيء، وخبّأه في غرفة مقفلة في المدينة الرهيبة التي تخفق وراءنا، وقام بصباغ شعره، وتغيير اسمه، وإيذائه؟ هل سنجده بعد سنوات من الآن، ويقول لي بنبرة جافة، لماذا لم تجديني؟ ماذا سأقول لعلي؟ كيف يمكنني أن أعود إلى مونتريال على متن الحافلة وحدي دون آصف؟ ستكون تلك نهاية لا تغتفر لحياتي التي أعرفها، وبداية حياة لا يمكنني تصورها. ركضت كاثرين على طول الشاطئ في اتجاه وركضتُ أنا في الاتجاه الآخر. كم مضى من الوقت؟ ثلاث دقائق؟ عشر دقائق؟

وفي لحظة واحدة امتلأ فراغ العالم. كان هناك. طفلي الصغير يجلس بهدوء بالقرب من المياه، وهو منحنٍ يتأمَّل شيئاً على الشاطئ. كان يجلس القرفصاء تحت شجيرة صغيرة بعيداً عن الأنظار. مستغرقاً، يلمس الحصى والرمال والشاطئ الطيني. كان يتأمَّل عالمه الخاص، شفتاه مفتوحتان قليلاً وهو يتنفَّس من فمه متعجباً، وحاجباه مرفوعان تعبيراً عن الفضول. هرعتُ إليه، غمرته وضممته إليَّ وأنا أحمل ليلوما. نظر إليَّ بعينين متفاجئتين، فقد

قاطعتُ تركيزه بطريقة مفزعة وشرع في البكاء. لم أعرف لماذا لم أجلس القرفصاء إلى جانبه وأتأمَّل معه، وأحاول إقناعه بالابتعاد عن الشاطئ، ببساطة لم أقم بذلك. سحبته بعيداً، كما لو كانت أخطاري المتخيَّلة أكثر أهمِّية من تأمُّله لما كان حقيقياً. ناديتُ الآخرين، وأعدته إلى كاثرين.

قالت لي: «معظم الأطفال يضيعون أحياناً خلال طفولتهم. اعتادت بيا الاختباء تحت رفوف الملابس في المتجر وكان عليَّ أن أبحث عن قدميها».

يروي الأطفال قصص ضياعهم لأن أمَّهاتهم المحبَّات كنَّ يعثرن عليهم دائماً.

ركبتُ الحافلة إلى مونتريال على مضض بعد قضاء أسبوع بعيداً عنها. فكَّرتُ للحظة في البقاء. وقالت كاثرين: «يمكنكِ التدريس هنا، كما تعلمين».

* «عليَّ أن أُكمل دراستي. وعلى أي حال، فلا يزال علي والدهما».

كانت ليلوما متوترة خلال الرحلة وظلّ آصف يوقظها. كنا جميعاً مرهقين عندما وصلنا إلى البيت. نامت ليلوما أولاً ثم لحقها آصف. أما أنا فقد عدتُ لتناول الشاي مع علي. كان حنوناً مع آصف وبارداً تجاهي، وعندما دخلتُ إلى المطبخ، أغلق الباب وقال: «اجلسي».

لطالما كرهتُ الأبواب المغلقة. قال: «هل تعرفين كم شخصاً يعتمد عليَّ من أجل كسب الرزق؟ وها أنتِ تهربين إلى نيويورك مع طفلينا دون إعلامي، مسببة لي بذلك المزيد من القلق. ألستُ كافياً بالنسبة إليكِ؟ أليست هذه الحياة كافية بالنسبة إليكِ؟ قولي لي ما رأيكِ في كل ما جرى؟».

كان خطابا صغيراً تدرَّب عليه بعناية. قال: «أي نوع من الأمَّهات أنتِ؟».

خطى قليلاً ونشر ذراعيه في الهواء. كنتُ قد رأيته يؤدِّي هذه الإيماءة سابقاً مع موظفيه كدليل على نفاد صبره. أضاف: «ينبغي أن تبقي هنا مع ابنكِ. سلوككِ مخجل. لقد قدَّمتُ لكِ كل شيء».

* «علي، توقَّف! لن أسمح لكَ بمعاملتي بمثل هذه الطريقة».

بدأ يعدُّ على أصابعه: «لديكِ ابن، ومنزل، ولقمة عيش جيِّدة من شركتنا. لمَ لا أستطيع الذهاب إلى العمل دون قلق؟ لقد قمتُ بكل ما كان يفترض بي القيام به. لمَ كل هذا الإهمال والتجاهل لي؟ زوجتي، أنتِ تجلبين لنا العار. مهسا، لا يمكنني أن أنجح إذا استمر الوضع على هذا النحو».

* «علي، قبل مجيئك كنتُ أجني أموالي الخاصَّة. ما أقوم به لا يتعارض مع عملكَ. لماذا يكون لديكَ الخيار أما أنا فلا؟».

- «لو لم تتزوجيني، لكان عمك أبقاكِ محبوسة هناك، في كراتشي، لتقضين يومكِ في تقليم أظافرك، والحصول على المساج. أنا أقدّم لكِ كل شيء. والأطفال من حقي».

كان من المفترض أن يخيفني بكلامه هذا. ولكنني قلتُ له: «لن أتوقَّف عن العزف».

رمى بكوبه في الهواء. انسكب الشاي، وتحطَّم الكوب. أرعبني اللون القاتم تحت جلده. تركته وهربتُ من البيت إلى ظلام الشارع. هل كنتُ بلا قيمة لهذه الدرجة؟ أن أطلب الحبَّ من علي يشبه أن أطلب من رجل بلا أيدٍ أن يحتضنني. يرى الجميع بأنه إنسان جيِّد، والدته، وموظَّفوه، وزبائنه. كان مديراً مهذَّباً وساحراً ومتفوِّقاً. مشيتُ عبر الظلام إلى أعلى الجبل. يمكنني أن أتركه. ولكنه سيأخذ آصف. يمكنني أن أحاول الاختباء، ولكنني لن أستطيع أن أتدبَّر لقمة العيش وأنا مختبئة؟ لماذا سيكون عليَّ

الاختباء؟ مشيتُ بجانب عشّاق متشابكي الأيدي. تأمّلتُ النهر الجاري وفكّرتُ: إلى أين سأذهب؟ إلى نيويورك؟ هل يمكنني الانتقال للعيش مع مونيك؟ كيف وقعتُ في فخّ الزواج هذا؟

لم يثمر تخبُّطي أية فكرة جديدة. الأفكار نفسها ظلّت تدور في داخلي، تذهب وتعود، هل أترك الأطفال أم لا؟ كنتُ امرأة تجلب العار. هل كانت مور امرأة تجلب العار؟ كان كنتُ هكذا حقّاً؟ عندما وصلت إلى المنزل كان علي لا يزال يرتدي ملابسه، جالساً تحت ضوء واحد في غرفة المعيشة. فكّرتُ في أنه يبدو كبيراً في السن. كان وجهه جامداً وعازماً ولكن كنتُ أرى في عينيه طيف خوف. شعرتُ بأن هناك مجالاً لي لكي أقاوم. قال لي: «مهسا، لمَ لا تفهمينني؟ أنا أعمل بجد وأكسب لقمة عيش جيِّدة لنا. أنا شخص محترم. وأريد لنا أن نكون أسرة جيدة».

* «أنا أعمل بجد أيضاً. وأقوم بكل ما يخصُّ شؤون أطفالنا. لا يتعارض عزفي مع عملكَ وعلينا أن نحاول التوصُّل إلى حل وسط. لن أحاول منعكَ من فعل ما تريد».

ضرب يديه على ذراعي الكرسي، نهض، ودون أية كلمة أو لمسة أخرى ذهبنا إلى الفراش. وضعت يدي على ذراعه لكنه تحرَّك بعيداً، ومنذ تلك الليلة أصبحت حياتنا معاً أكثر هشاشة وسطحية.

في الصباح شعرتُ وكأنني محبوسة في حفرة مظلمة في باطن الأرض، وكأنني رغيف خبز مسفوع على حائط ساخن. ماذا أفعل؟ ما الخيارات المتاحة لي إذا أردتُ الحفاظ على الأطفال إلى جانبي؟ يجب أن أعمل على إنجاح هذا الزواج. وسأجبر نفسي على أن أكون مبتهجة، مثل فقير في بيت قريبه الغني.

مرَّت خمس عشرة سنة. كنت قد رسمتُ بدقَّة ما يمكن لعائلتنا أن

تكون عليه. قمتُ بتدريس الطلاب في جامعة "ماكجيل" في الصباح، وعندما يسافر علي إلى إنكلترا، كنتُ أستعين بجليسة أطفال، وأعزف مع جان في ناد جديد يُسمَّى "بيدلز". كنتُ أذهب إلى نيويورك مرة واحدة في السنة. وكان علي يتذمَّر دائماً قائلاً: «لماذا أنت صعبة المراس هكذا؟». أحببنا أنا والأطفال البقاء في منزل كاثرين، حيث نعيش كلنا معاً في شقَّتها الصغيرة. تعلَّم آصف لعب الشطرنج مع دكستر، وعلَّمت بيا الرقص لليلوما. كنا نذهب في رحلات نهارية إلى الأديرة لرؤية تماثيل مريم العذراء واسعة العينين والنساء المحجبات، وكنا نمشي ونستمتع بالنسائم المنعشة وحدائق العشب. نستمتع بالسير إلى مكتبة "مورغان" والنظر إلى الممرَّات السرِّية وكتابات بلاد ما بين النهرين وتماثيل الآلهة العارية مع مخالب البومة وأجنحة النسور. في إحدى المرات، توفَّرت لديَّ بعض الأموال الإضافية، وذهبنا جميعاً إلى البلازا لتناول الشاي الذي تحبه بيا. كنتُ أنا وكاثرين نشاهد أطفالنا يكبرون معاً، وكان من الرائع أن نراهم يتشاركون ويستمتعون مع بعضهم البعض. أما جيمي فقد كان صعب المراس. وعندما كبر آصف قليلاً، سمحتُ لجيمي باصطحابه إلى متاجر الأسطوانات المستعملة، وأعطيتهم المال لشراء شيء مثير للاهتمام. ولكنني كنتُ آمل سرّاً بألا يصبح أيٌّ من طفليَّ جريئاً وعنيداً مثل جيمي، وألا يجرِّبا المخدِّرات مثلما فعل. كما كانت كاثرين دائمة القلق عليه، حاولتُ تشجيعها قائلة: «إنه رقيق وقوي مثلكِ».

* «أنتِ لا تعرفين حاله. تأتي الأشياء إلى جيمي من العدم وتبقى في رأسه وتعذِّبه، وكلما قاومها كلما آذته أكثر. عندما أمشي في الشارع معه، أحاول أن أتخيَّل ما يشعر به وهو يمشي معي. يكون الفتيان في سن المراهقة مثل المحاربين دون دروع. فهم لا يمتلكون بعد ما يحتاجون إليه. إن الناس ينظرون إلينا معاً ويحدِّقون فينا».

- «كنتُ قد لاحظتُ ذلك».

* «طوال حياتي كنتُ أتجاهل بعض الأمور. ولكن لا يمكن لي أن أتجاهل ألم أطفالي».

مرة قال لي جيمي عن كاثرين: «إنها نصف بيضاء فقط».

قلتُ له: «كان والدي أمريكياً، ووالدتي أفغانية. وتضم كل الأماكن جنسيات وأعراق مختلطة. ليلوما وآصف هما الوحيدان في المدرسة من أصول باكستانية، ولكن صفوفهما تضمُّ أطفالاً من هايتي والسنغال وكلُّهم يتعلَّمون الإنكليزية والفرنسية».

لكن جيمي كان غارقاً جداً في اضطرابه ولم يكن ليستمع إليَّ، وما كان يبدو في ظاهره على أنه غضب، كنتُ أرى فيه بذور الخسارة، وصبياً لديه رغبة فيما لا يمكن له أن يكونه.

في كل صيف كان والد علي ووالدته يأتيان لزيارتنا لمدة شهرين. بالنسبة إليَّ، كان ذلك عبئاً كبيراً، وأكثر وقت أكرهه في السنة. لم يرغبا في الاستماع إلى عزفي في غرفة المعيشة، ولذلك فقد قمتُ بإعداد أورغ صغير مع سماعات في غرفة النوم. كانت حماتي تحمل تجعيدة بين حاجبيها مثل علي، ولكونها امرأة فقد جعلتها تبدو غاضبة على الدوام، حتى عندما لم تكن كذلك. كان حديثها ناقداً مستفزاً ومتخفياً بستر المساعدة، حيث كان من الممكن لوجبة الكباب التي أعددتها أن تكون أشهى لو أني طبختها على مهل، وتنتقد ملابس ليلوما، وتنانيرها التي ترى بأنها قصيرة جداً. كانت تسألني: «أليس آصف وسيماً مثل والده؟ أليست لغته الفرنسية جيِّدة جدّاً؟». وفي الحقيقة فقد كانت درجات ليلوما دائماً أفضل من آصف ولكنني لم أكن أعارضها، وكنتُ أصطحب الأطفال في نزهة لمسافات طويلة إلى أعلى الجبل حيث لا يمكن لحماتي المشي. لم

أعد إلى باكستان خلال كل تلك السنوات لأنني لم أكن قادرة على تصوُّر العودة إليها. أرسلتُ إلى العمَّة رسالة بمناسبة العيد، وعندما طلبت مني مجلات غربية وبعض الفيتامينات، قمتُ بإرسالها مع صور للأطفال. وصلتني رسالة من كمال الذي كان قد انتقل إلى أستراليا. صُدمتُ برؤية خطِّ يده، وشعرتُ بالدم يتدفَّق إلى رأسي وأنا أفتحها، كما لو كان هو نفسه موجوداً أمامي في الغرفة:

عزيزتي مهسا،

لم أعرف كيف أبدأ هذه الرسالة، وما زلت لا أعرف ماذا أقول. سمعتُ مؤخراً شريط كاسيت لعزفِك. إذا كان التاريخ صحيحاً فقد كنتِ لا تزالين طالبة عندما قمتِ بتسجيليه. وهو يحمل اسم شركة "ميتاميوزيك" للتسجيلات. أستطيع التعرُّف إلى عزفِك في أي مكان. لقد مضى وقت طويل، مهسا. إذا كان هذا التسجيل المبكِّر دليلاً على شيء ما فمن المؤكَّد بأن إنجازاتِك مميَّزة للغاية. كنتُ أحبُّ الاستماع إلى صوتِك وأنتِ تقرئين الشعر. لن أضجركِ بتفاصيل حياتي كاستشاري سابق من كراتشي، والتي لن تثير اهتمامكِ بالحدِّ الأدنى. لم أنسَكِ أبداً. عندما سمعتُ موسيقاكِ، سمعت همسات من أيامنا في كراتشي التي لم تعد موجودة. ربَّما لم تنسيني أنتِ أيضاً. إنني أفكر في المجيء إلى مونتريال. سأنهي هذه الرسالة الآن، فأنا لا أعرف ما إذا كانت سوف تصلكِ أم لا.

المخلص لكِ،

كمال

أعدت قراءة الرسالة طوال فترة بعد الظهر، كنتُ أشتمُّها، وأضيع فيها. هل كانت تلك رائحة الملح؟ البحر؟ بشرته؟ كانت الورقة على قيد الحياة، حفظت الكلمات وأحرقتُ الرسالة في بالوعة المطبخ ولم أكتب له ردّاً.

في إحدى الليالي فاجأني علي قائلاً: «هيا لنذهب إلى "737" لتناول العشاء. هل تذكرين؟». كان في مزاج جيِّد بعد أن أتمَّ صفقة كبيرة. تأنَّقنا وشاهدنا مدينتنا وهي تكتسي بلون الثلج الجديد. نظر النادل إلى رقائق الثلج التي تعصف في الخارج وقال: «يا له من مساء جميل!». قال علي: «لن أعتاد أبداً على هذا البرد»، لكنني ابتسمتُ، وقلتُ للنادل بالفرنسية: «إنه جميل بالفعل، أنت على حق». تجاذبت أنا وعلي أطراف الحديث كما كنا نفعل سابقاً. أخبرني عن معارفه الجدد في مجال الأعمال في باكستان، وتلقَّى بسرور مديحي لعمله الجيِّد خلال السنة.

كنتُ قد بدأتُ بتحسُّس فارق السن بيننا. فقد أصبح أولادي بالغين تقريباً، وقارب هو على بلوغ الستين من العمر، وظهرت دوائر سوداء تحت عينيه. كنتُ أشعر في بعض الأحيان بالحنان تجاه ألفته، وهو شعور سرعان ما يتبخَّر في زخم أول كلمة جارحة يقولها. في تلك الليلة، اتسم لقاؤنا بالسلام ونحن نرتشف الشاي معاً. قلتُ له: «تعال معنا إلى نيويورك هذا العام. فقط لبضعة أيام قبل أن تذهب إلى لندن. سيحبُّ آصف وليلوما ذلك. فأنتَ لم تلتقِ كاثرين أبداً».

أنزل فنجانه، وقال: «أنا أكره نيويورك. وأنت تعلمين ذلك. ومن ثمَّ كيف يمكنني ترك الأمور في العمل؟ فهناك أناس يعتمدون عليَّ».

كنتُ ما زلتُ قادرة على إزعاجه.

تجاهلتُ هذا البرود والتحوّل السريع، كما كنت أفعل في مثل هذه اللحظات على مدى سنوات. دفع الفاتورة، وتدبَّرنا طريقنا عبر الصقيع نحو المنزل. قالي لي داخل الباب الأمامي، قبل أن أعلِّق معاطفنا: «بعد هذه الرحلة، لن أسمح لكِ بأخذ الأطفال إلى نيويورك. إنهم في حاجة إلى التركيز على دراستهم. سأحتسي الشاي قبل النوم».

كان آصف يقف في المدخل، ورأيته يستمع إلى صوت علي الآمر. بقيتُ صامتة، لأنني لم أرد أن أتجادل مع علي أمام آصف، وخجلتُ من صمتي. كان ابني يتصرَّف مثل علي، وكنتُ أسمعه في بعض الأحيان وهو يوجِّه الأوامر إلى ليلوما.

قلتُ له: «عليكَ بمعاملة أختكَ باحترام».

أجابني بسرعة وجدية علي: «أنا أفعل».

يبدو لي بأنه يؤمن فعلاً بأن هذه هي الطريقة للتعامل مع الأمور.

أهديتُ ليلوما بمناسبة عيد ميلادها الثالث عشر زوجاً من الأحذية ذات الكعب الأحمر من بوتيك نيويورك، وكنتُ أتذكَّر أول زوج لي من الجوارب الحريرية الحقيقية، وذهابي إلى متروبول مع أبو ومور. كانت صديقة ليلوما المفضَّلة فتاة فرنسية، حيث تتشاركان الملابس وتلعبان بالدمى الخاصَّة بهما عندما تعتقدان بأنه لا يراهما أحد. بدأتا بالذهاب إلى السينما مع أصدقاء المدرسة، وكانتا متفوِّقتين ومنشغلتين بالرقص.

قال لي علي مرة: «لا أحبُّ أن تضع ليلوما الماكياج. ثم، لماذا أهديتها حذاء ذا كعب عال؟».

حاولت إقناعه قائلة: «علي، إنها على ما يرام، وهي تدرسُ القرآن معي، وصديقاتها لطيفات. اسمح لها بأن تنضج قليلاً الآن. الأطفال مختلفون هنا».

- «عليها أن تكون أكثر حشمة. وأنت تشجِّعينها على الجرأة».

كان يريد لنا جميعاً الذهاب إلى باكستان. مع أن كراتشي قد تغيَّرت كثيراً وأصبحت عنيفة ودموية، حيث يتنقَّل الناس في الشوارع خائفين. عاش اللاجئون المهاجرون في أحياء فقيرة منتشرة. وأغلق الإسلاميون الملاهي الليلية والمسارح. كان هناك يومياً تفجيرات وقتل، ونادراً ما

غادر حمواي حيَّهم. كان صبية يحملون البنادق يحمون الفنادق ومراكز التسوُّق. ومن المفترض أن تقام الانتخابات في كانون الأوَّل وأن تترشح بينظير بوتو في تلك الانتخابات، والتي وعدت بإلغاء قوانين الحدود والعودة إلى النظام البرلماني. لكن المعارضة من الجنرالات كانت قوية. كنت أرغب في أن يشعر الأطفال بهواء البحر على الشواطئ، ويستمتعوا بزيارة الأضرحة، وأن يسمعوا الأذان. أردتُ أن أريهم مدرستي القديمة وكاتدرائية سانت باتريك وزيلين. ولكن ليس الآن.

قال علي: «إنهما في حاجة إلى معرفة أصولهم وجذورهم».

* «إنهما من هنا».

- «على آصف أن يبدأ بلقاء شركاء أعمالنا».

* «لم يتجاوز عمره الخامسة عشر بعد!».

كانت عيناه تخترقني. وقلتُ له: «لمَ لا تأخذهما في زيارة قصيرة؟ أصبحا أكبر سناً الآن، ولن يسبِّبا المشاكل لأمكَ. ولكن عليك إعادتهما قبل الانتخابات حتماً».

- «أريدكِ أن تأتي».

* «علي، أنا لست مستعدة لذلك. أرجوك».

- «كان عمك جيداً معكِ. كما تريد أمِّي أن تراكِ هناك. في يوم من الأيام لن تكون قادرة على السفر».

* «أعرف ذلك، ولكن لديَّ الكثير من الذكريات الصعبة. لن يشكِّل الأطفال عبئاً على والدتكَ. خذهم أنت».

- «لطالما كنتِ عنيدة».

وصلتُ إلى المطار قبل ساعة من وصول طائرتهم لأصحبهم إلى

المنزل. قضيتُ خمسة عشر يوماً رائعاً لوحدي في مونتريال، حيث ذهبتُ إلى المسرح بصحبة مونيك، وعزفتُ مع جان على مسرح في الهواء الطلق، وأعطيتُ دروساً إضافية. لم أكن أطبخ، وكنتُ أنام فوراً بعد عودتي إلى المنزل في وقت متأخِّر.

قالت مونيك: «لمَ لا توجد أية أيام عطل في عقد عمل الزوجة؟ الجميع يحصلون على أيام عطل».

ضحكنا كما كنا نفعل في الأيام الجميلة، أما الآن فأنا متشوِّقة لرؤية عيني آصف البرَّاقة، وشمِّ رائحة شعر ليلوما المراهقة. شاهدتُ الناس يدخلون من وراء أبواب المطار الزجاجية السميكة، واللقاءات وصرخات الإثارة وخيبة الأمل، تختلف كل منها عن الأخرى مثل بصمات الأصابع. فكَّرتُ الذهاب معهم في المرة القادمة وتقبل مصيري مع العمَّة والعم. لقد مضى وقت طويل ولم يعد هناك معنى للغضب، كما أنني أودُّ التجوُّل في مدينتي مع أولادي.

انتظرتُ، وراقبتُ الأبواب الزجاجية المنزلقة وهي تنفتح. سار آصف، الذي يبدو عليه الخوف والتعب إلى جانب علي. بدا لي أكثر طولاً وعضلاته أكبر، وكأنه قد أصبح رجلاً ولم يعد صبي، واختبرتُ كعادتي شعوراً بالمفاجئة العابرة لأن ذهني كان مزدحماً بتفاصيل طفولته.

- «أين هي ليلوما؟».

كانت ذراعا آصف تلفني وهو يهمس باسمي، "مور"، كما لو كان ذكر اسمي سيحميه. أفلت ذراعيه ومن وراء كتفه كنتُ أنظر إلى عيني علي الحازمتين.

- «لقد تركتها مع والدتي. ستبقى في كراتشي. فأنتِ لا تستطيعين السيطرة عليها».

III

السعي

كاثرين

كان الوقت منتصف الليل بالنسبة إليَّ، والتاسعة مساء بالنسبة إليه. تدبَّر تي أمر الاتصال بي من هاتف شخص ما في ولاية كاليفورنيا. لم يكن قادراً على النوم، كان يفكِّر في العودة إلى نيويورك. كنتُ دائماً أتلقَّى مثل هذه الاتصالات منه، والتي حصلت ألف مرَّة من قبل.

سألني: «هل تريدين أن تسمعي شيئاً؟».

كنتُ مستلقية على السرير وأستمع إلى عزفه على الساكسفون. نهضتُ ووضعتُ سمَّاعة الهاتف على الأورغ الخاص بي وعزفتُ له قطعة جديدة كنت أؤلِّفها اسمها "أغنية سرور" حول راهبة كتبت خمس رسائل من الدير الذي تقيم فيه إلى رجل فرنسي هجرها.

- «هذا جميل حقاً يا كاتي. كيف هم الأطفال؟».

* «حصل دكستر على وظيفة في مكتبة جيفرسون ماركت، هل تعلم بأنها كانت مركز اعتقال للنساء؟ والتحقت بيا بمدرسة لاغوارديا لفنون الرقص. وهي تزداد جمالاً في كل يوم يا تي».

- «ماذا عن جيمي؟».

* «ساعده دكستر في العثور على كونتراباس في متجر رهنيات وأعطاه

المال لشرائه. كما علّق دكستر ستارة حول مكانه في الغرفة. حيث يقول بأنه إذا أراد الالتحاق بكلية الحقوق فعليه أن يدرس».

- «هل يعزف جيمي؟».

* «يبدو أنه يخطط لشيء ما. أحياناً يختفي ولا أعرف إلى أين يذهب. ضبطه مرة إيغور وهو يسرق من محله، اتصل بي وقال: أنا أعمل ثمانية أيام في الأسبوع! ولا أملك منزلاً في هذا البلد، ولن أسمح لهذا الصبي بالسرقة من هنا. قلتُ لجيمي، كيف أمكن له أن يسرق من أي أحد؟ وخاصة من صديقنا. وطلبتُ منه بأن يذهب للعمل لدى إيغور ليسدَّ له ما سرقه، فعل ذلك لبضعة أسابيع، ولكنني لا أستطيع إجباره على فعل أي شيء».

- «هل يذهب إلى المدرسة؟».

* «يدخل من الباب الأمامي ويخرج من الباب الخلفي. تي، يجب أن تأتي وتساعدني. لقد كنتَ بعيداً لفترة طويلة».

- «أنتِ لا تقبلينني كما أنا يا كاثرين. أريد أن أتكلَّم مع جيمي».

* «إنه ليس هنا. عُد إلينا، جرِّبْ ولن تخسر شيئاً».

- «أنتِ لا تحتاجين إليَّ الآن، حبيبتي».

يتسلل الهيروين إلى جسدكِ بسرعة. في البداية تشعر بأنك في نعيم حمَّام دافئ، وكأن إلهك الحبيب يتأرجح معك في أرجوحة حلوة وجميلة. ثم تعود لتطلب ذلك الشعور الأوَّل الناعم مرة أخرى، ولكن ببساطة لا يمكنك الحصول عليه، وكلما حاولت أكثر كلما خانك أكثر، وأعطاك طعماً مختلفاً، ومع عدم قدرتكِ على بلوغ ما تشتهيه فأنت تحاول أكثر. كان تي ينجرف وراءه بسرعة. وقد جرَّب جميع المواد الأخرى لسنوات ولكن الهيروين كان يدمره. قال: «أنا أقف عند بوابة الجحيم، يا حبيبتي، فالوجود هش، وعنيف، ومذهل».

* «ما تقوله ليس رومانسياً، تي أنا أسمع ما يُقال عنكَ، هل تعرف ما يقوله أصدقاؤك؟ يقولون إنكَ في حالة مزرية. وأنا أطلب منهم دائماً مساعدتكَ».

كنتُ أرسل إليه المال عندما أحصل على مبلغ جيِّد، ولكنني كنتُ أعرف بأن كان يضيع هباءً. لم أخبر الأطفال بالكثير عنه، كنتُ أقول لهم فقط إنه سوف يعود قريباً، أو إنه في جولة على الطريق، أو إن عليهم التأقلم مع وضعه الحالي. لم أكن لأسمح بأن يعيش أطفالي أية مرارة، حيث يمكن للآباء نحت الألم في نفوس أبنائهم إن لم يكونوا حذرين.

قلتُ له: «تي، توجد برامج لمساعدة المدمنين هنا. هناك واحد في الكنيسة التي أعزف فيها. أتذكر كنيسة "جادسون ميموريال"؟».

- «ليس ذلك أسلوبي، كاتي، سأذهب إلى غرفة منعزلة وأساعد نفسي بنفسي. لماذا عدتِ إلى العزف في الكنائس مرة أخرى؟».

* «الحقيقة هي أنني كنتُ قد التقيتُ قساً يدعى هوارد موديز في واشنطن سكوير. كان يتجوَّل في شاحنة ويوزِّع الكعك والقهوة ويوفِّر مكاناً دافئاً للمومسات ليحصلن على استراحة. صرخت فتاة من الشاحنة بأنها تعرفني وأنها شاهدتني أعزف في نادي "غيت". وسألني هوارد: هل تريدين بعض القهوة؟ كان يتحدَّث بلهجة جنوبية، شعره قصير وأذناه كبيرتان بارزتان، ويبدو وكأنه جندي في البحرية. كتب الكثير عن الحقوق المدنية وهو يَعتبر بأن أولئك الفتيات يشكِّلن جماعته غير المرئية من المؤمنات. أعطاني أحدث نسخة من مجلة الشارع التي يعدُّها "مواعدة المومس"، وسألتُ الفتاة عن العرض الذي رأتني فيه، اتضح أن حبيبها جون من أكبر المعجبين بموسيقى الجاز ولذلك فقد رأتني أعزف كثيراً. وقال لي هوارد: إننا نعزف موسيقى الجاز في الكنيسة. يجب أن تأتي

وتعزفي هناك. يمكننا دائماً الاستفادة من مساعدتك. قلتُ له إنني كنتُ أعمل حتى وقت متأخر معظم ليالي أيام السبت، وضحكت الموس قائلة: مثلي، ولكن حتّى أنا أتدبَّر الذهاب إلى كنيسة موديز في بعض الأحيان. وأخطأتُ في القول: عزفتُ في الكنيسة المعمدانية في كندا لعدة سنوات. قال هوارد: اتصل الليلة عازف البيانو لدينا ليعتذر عن الحضور غداً. هل من الممكن أن تحلِّي محله هذه المرة؟ وبذلك فقد تورَّطت في المسألة كلها. وباختصار، فإن موساً تحبُّ الجاز هي السبب وراء عزفي من أجل يسوع. وبالمجّان تماماً».

كنتُ سعيدة لأن تي شرع بالضحك، ومن ثم استيقظت بيا، وركضت شبه نائمة: «هل هذا أبي؟». كان الجميع يعرفون الشخص الكامن وراء المكالمات الليلية المتأخِّرة، ونبرة صوتي. ناولتها سمَّاعة الهاتف وأشرق وجهها: «أبي! متى ستعود؟». ومن خلال الاستماع إلى نصف المحادثة، فقد سمعتُ كل الأشياء التي أرادت له أن يعرفها حول رقصها والمدرسة وفيما إذا كان سيأتي لزيارتنا في عيد الفصح، وبعد ذلك، قالت: «حسناً بابا». ورفعت سماعة الهاتف عالياً بحيث يمكننا أن نقول معاً، «أحلام حلوة». بعد أن عادت إلى سريرها، قال لي تي: «تبدو أمورها جيِّدة. لماذا تكتبين عن تلك الراهبة؟».

* «أحبَّت ماريانا ألفكوفورادو معاناتها لأنها تجعلها تشعر بأنها على قيد الحياة. كانت تكتب لحبيبها، استمر في جعلي أعاني العذاب».

-- «لا بدَّ من أنه كان رجلاً مميَّزاً ذاك الذي أحبته».

* «جميع الرجال مصدر معاناة وعذاب».

-- «وكيف تنتهي القصَّة، حبيبتي؟».

* «عاشت بقية حياتها الطويلة في الدير وتخلَّت عن حبيبها في سبيل الله».

ضحك، وقال: «إنه منتصف الليل، حبيبتي».

* «إنها الثالثة فجراً هنا. وعليَّ أن أعزف بعد ساعات قليلة».

- «كاتي، لقد قمتِ بتأليف أغنية جميلة. لا تتخلَّي عني في سبيل الله».

كان يمكننا أن نكون سخيَّين مع بعضنا البعض حتى على بعد ثلاثة آلاف ميل. أحببت الطواف في الموسيقى والظلام على وقع صوته. حيث نعيش أنا وتي على حافة النجوم الآفلة والفجر.

عملتُ بجد مثل أي رجل. وتابعتُ السعي وراء تحقيق الشيء الجديد التالي. كنتُ أعزف إلى جانب أي عازف يدفع لي النقود. فمع تربية الأطفال، يكون كل شيء مُلِحّاً وضرورياً، وقد استغرق الأمر عشرين عاماً من الرعاية. في النهاية أُنجزَ كل شيء. مثل الفتات على الطاولة، فعندما تمسحها لا يبقى لها أي أثر.

في الصباح، جاءت إليَّ بيا بينما كنت أعدُّ فنجان قهوتي السريعة قبل أن أذهب إلى كنيسة جادسون. سألتُها: «هل تعرفين أين هم أخواتِكِ؟».

* «أحدهما في السرير».

- «والآخر؟».

* «ليس هناك».

- «هل تريدين بعض القهوة؟».

كانت تلبس لباساً طويلاً لتدفئتها، وكان يلفُّ أصابع قدميها، وتجرُّه على الأرض. قالت: «سأتزوَّج رجلاً يبقى دوماً إلى جانبي».

كانت تقول ما يخطر على بالها. بالتأكيد هناك لحظات شعرتُ فيها بأنني أريد الاستسلام. ولكنني فكَّرتُ في أنني لطالما كنتُ قوية؛ فقد كنتُ أتسلَّل للعزف في البارات.

- «يجب أن أذهب، بيا. تعالي إلى الكنيسة إذا كنت تريدين».

* «سأذهب إلى سريري. فحديثكِ أنتِ وأبي على الهاتف أبقاني مستيقظة حتى وقت متأخِّر».

بدا كلامها صادراً عن سيِّدة عجوز راضية، بينما ينمُّ شكلها عن فوضوية سن المراهقة، كنتُ أعشقها. دخل جيمي والكونتراباس على ظهره، ومن الواضح أنه لم يَنَمْ. قلتُ له: «أنا ذاهبة إلى كنيسة جادسون. لماذا لا تجلب الكونتراباس خاصتك وتعزف معي. دعنا نعد الحياة إلى تلك الكنيسة. وسأقتسم الأجر معكَ».

فكَّرتُ في أنه يمكنني تدبُّر بعض المال بأية طريقة. وقد فاجأنا كلانا عندما قال إنه موافق. عزفنا بطريقة جميلة وطلب هوارد منا البقاء لتناول القهوة. قال لجيمي: «هل ستعود مرة أخرى؟».

* «جئتُ صدفة اليوم».

ثم شرب جيمي قهوته دفعة واحدة، وقال: «يضم حشد الكنيسة الكثير من البيض بالنسبة إليَّ».

قال هوارد: «عندما جئتُ إلى هنا قبل عشرين عاماً جرى حديث لن أنساه أبداً مع رجل كشف لي عن عنقه ليريني ندبة بطول ستة إنشات سببها له أحد أعضاء مجموعة كلاوكس كلان. أخبرني بأن أعضاء المجموعة يجتمعون في كنيسة معمدانية ليعبدوا نفس الإله الذي أعبده أنا. وسألني: قل لي بأي منطق يمكن لصبي أبيض مثلك إقناعي بالإيمان بالله الذي تحاول الدفاع عنه، إله تلك الجماعة نفسها؟ حسناً، أسكتني سؤاله هذا، وبقي دائماً في ذهني».

سأله جيمي: «إذاً، ما الذي تفعله هنا؟».

قال هوارد: «يبدو لي سؤال ذلك الرجل العجوز وكأنه باب دون

مقبض لفتحه. تابعتُ العمل هنا لأنني حسبتُ بأن الله قد يفتحه من الجانب الآخر».

سمح جيمي لنفسه بالانجرار وراء هوارد. وبدأ بالعزف لصالح كنيسة جادسون وعروض الرقص. كان يحبُّ أن يدعو هوارد أمامي باسم الصبي الأبيض. طلبتُ منه بأن يكون أكثر احتراماً لكنه كان يقول، وكأن هوارد ليس هناك: «هو يعلم أنني أمزح». وكان هوارد يقول: «أحياناً لا بدَّ للناس من أن يحرِّروا أنفسهم من أمثالنا».

قلتُ: «هوارد، أنا نصف صينية. وهو نصف أسود فقط. فمن هم أولئك الـ "نحن" الذين تتحدَّث عنهم بحقّ الجحيم؟». وبكامل سحر الجنوب أجابني هوارد: «تبّاً، كاثرين، لطالما عرفتُ بأنكِ شخص مختلف حقاً».

لم يكن أمامي سوى أن أضحك. فقد كان ذلك أسهل من خوض النقاش مع أيٍّ منهما. وبوجود شاب غاضب في سن المراهقة عليك أن تكون مستعدّاً لاختبار صبرك بلا هوادة.

مهسا

طوال أسابيع توسَّلتُ وبكيتُ، واتصلتُ بعلي وهو في العمل إلى أن توقَّف تماماً عن استقبال مكالماتي. كنتُ أنام في غرفة ليلوما.

اعتاد أن يقول لي: «أنت لا تنصاعين لكلامي. كيف يمكن لكِ أن تكوني أمّاً جيدة بهذه الطريقة التي أنتِ عليها؟».

كان يلتمع خلف عينيه الحارقة ألق جديد من الغضب. وبعد مشاركته السرير نفسه لخمسة عشر عاماً، ما زلت أكتشف ما كان قادراً على فعله.

قال: «إنها تردُّ وتجادل مثلك. تقول أمِّي إنها تحتاج إلى ترويض، وأن تتم السيطرة عليها».

«أمُكَ أفعى سامة». صرختُ في وجهه، «لا يمكنكَ أن تفعل هذا لإرضاء والدتكَ».

أحسَّ بالإهانة وأمسك معصمي بعنف.

قال: «لن أسمح بأن يسمعك آصف تقولين ذلك. سيطري على نفسكِ!».

* «مثلما تفعل أنتَ!».

اتصلتُ هاتفياً بحماتي. سمعتُ صوت ليلوما يتوسَّل في الخلفية وهي تقول: «اسأليها متى يمكنني العودة إلى البيت».

قالت حماتي: «إنها على ما يرام. أنا أعتني بها جيِّداً. حاولي أن ترضيه أكثر من ذلك».

كرهتُ نفسي. بعد كل تلك السنوات من السعي وراء خلق ما يمكن أن نسمِّيه عائلتنا، كل ذلك ذهب هباءً. ومع أن علي يكاد لا يرفع صوته. ولكن ذلك لم يكن ضرورياً لكسر ما بيننا إلى الأبد.

كذبتُ على الجميع، وعلى مدرسة ليلوما، وصديقاتها. أخبرتهم بأن جدتها مريضة، وأنها تحتاج إلى قضاء بعض الوقت معها. قلتُ: «إنها عاداتنا. الأسرة مهمَّة». كنتُ أرى كيف يشكِّكون في صدق ما أقوله، ولكنهم راغبون في تصديقي. كنتُ أستغلُّ تعاطف الناس. ببساطة كنتُ أخون ليلوما.

عندما اتصلتُ بكاثرين وأخبرتها الحقيقة قالت: «اذهبي وأحضريها».

لم تكن تفهم شيئاً عن كل تلك التعقيدات، وكيف لها أن تفهم، لكن سماع صوتها دفعني إلى البكاء. قلتُ لها: «سيقومون بإخفاء جواز سفرها. هذا ما فعلوه بي. ليس في وسعي أن أفعل أي شيء هناك».

* «حقاً؟ هل أخذوا جواز سفركِ؟ متى؟».

- «فعلوا ذلك لإرغامي على الزواج من علي. كاثرين، لا بدَّ لي من أن أُعيد ليلوما».

* «دعينا نستأجر خاطفاً ليختطفها».

جرأتها جعلتني أشعر بشعور جيِّد.

* «ما الذي تنوين فعله؟».

- «لم يعد آصف يتكلم مع أحد في البيت».

* «لا بدّ لكِ إذاً من إعادتها».

تحدَّثنا عن المحامين، وقدرة عائلة علي على إخفائها، وناقشنا احتمالية فضح علي في العمل. كنتُ خائفة من كل أفكار كاثرين.

قلتُ: «ربما يستسلم إذا انصعتُ له. وفي المحصلة فإنّ والدته لا تريدها أن تبقى أمامها إلى الأبد».

* «ماذا يريد منكِ أن تفعلي؟».

- «يعتقد بأنني يجب أن أبقى في المنزل. وهو يريد لليلوما أن تكون أكثر تواضعاً وحشمة. إنها ثقافتنا».

* «هيا، مهسا. هذه ليست بثقافة».

للمرَّة الأولى منذ أن تعرفتُ عليها، كنتُ أريد أن أكرهها. فلطالما تقبَّلنا كل شيء حول بعضنا البعض. فما الذي تعرفه هي عن المكان الذي أتيتُ منه؟

وأخيراً قالت بهدوء: «اعتادت أمِّي أن تقول، هكذا هي طبيعة الأمور. ولكن ذلك ليس صحيحاً. لماذا يجب أن يُحرم المرء من حريته؟».

- «أنا خائفة على ليلوما».

* «ما الذي يريده علي تحديداً؟».

- «يريدني أن أبقى في المنزل».

* «مهسا، عليك أن تتركيه».

لديَّ خياران، إما أن أحوِّل قلبي إلى حجر وأنسى بأن لديَّ أبناء، أو يمكنني أن أعود إليه وأنصاع لإرادته.

قلتُ: «من الممكن ألا أراها مرة أخرى».

* «احصلي لها على جواز سفر آخر. كل ما تحتاجينه هو المال. وسوف نتدبَّر ذلك».

- «يمكنهم أن يخفوا ليلوما إلى الأبد».

بعد صمت طويل سألتني كاثرين: «ماذا ستفعلين؟».

- «لا بدَّ من أن أعيدها إلى المنزل».

***

قمتُ بطبخ الأطباق التي يحبُّها علي، وارتديتُ اللباس التقليدي الذي أهدتني إياها حماتي.

جلسنا معاً إلى الطاولة وقلتُ له: «استقلتُ اليوم من الفندق».

* «لماذا؟».

- «لستُ في حاجة إلى العمل. فأنت توفِّر لنا كل ما نحتاجه يا علي».

بعينين مفاوضتين نظر إليّ، وسألني: «هل تركتِ الجامعة أيضاً؟».

- «لا داعي إلى ذلك، فقد انتهى هذا الفصل الدراسي. ولن أدرِّس في الفصل القادم. أخبرتُ جان بذلك».

كان قلبي يتحطَّم وأنا أقول ذلك.

وضع لقمة دجاج كبيرة في فمه وقال: «ماذا عن العزف مع كاثرين؟».

خفق قلبي بغضب. أجبته: «لستُ في حاجة إلى الذهاب إلى نيويورك بعد الآن. أريد أن أكون هنا من أجلك ومن أجل الولدين».

كنتُ أمقتُ صوت مضغه للطعام. عندما فرغ من صحنه، ثبَّت نظره عليَّ وحنى رقبته إلى الوراء مثل ثعبان ذو فم غير مخيّط. وقال: «سوف أتناول الشاي في غرفة المعيشة».

كان نائماً عندما ذهبتُ إليه، ولذلك تركتُ الشاي بجانبه وذهبتُ إلى المطبخ لإنهاء أعمال تنظيف. عندما عدتُ، كان فنجانه فارغاً، وقد بدأ

يغفو مرة أخرى، وضعتُ يدي بهدوء على ركبته وقلتُ: «علي، تعال إلى السرير».

في غرفة النوم، حللتُ أزرار قميصه وخلعته عنه، أخذتُ يديه المألوفتين ووضعتهما على خصري بينما كنتُ أخلع ملابسي. قمتُ بفكِّ أزرار سرواله بينما كان يقبِّل نهديَّ وتظاهرتُ بأنني مُثارة. ضممته إليَّ، وانتظرتُ أن تنتهي العملية. كنتُ جافة، وكان كل شيء مؤلماً، ولكنني لم أُظهر أية علامة على الألم وتظاهرتُ بالمتعة.

كاثرين

اتصلت أمّي لتخبرني بأن لديها أخباراً لا بدَّ من أن تطلعني عليها.

ألغيتُ حفلاتي وأخذتُ دكستر وجيمي وبيا لزيارتها على الفور، والتأكُّد من أنها لا تزال بخير. فلا أحد يستطيع أن يتكهَّن بمآل الأمور، والوقت المتبقِّي لها منذ أن شُخِّصَ مرضُها.

انتظرتنا عند محطة للحافلات، وقالت: «سنذهب مشياً على الأقدام». مشينا إلى وسط المدينة مروراً بشقَّتنا القديمة، ونظرنا إلى النافذة، حيث قال دكستر: «كان يمكن لحياتنا أن تكون مختلفة هنا». ثم أخذتنا إلى فندق "رويال كونوت" حيث أعدُّوا وجبة خاصَّة لنا. وقفتْ والدتي مع موظفي المطبخ لتمزح وتضحك بينما تناولنا طعامنا. قالت لهم قبل أن تغادر: «لن أعود، ولا أريد لأي منكم أن يزورني».

قلتُ لها عندما أصبحنا على الرصيف: «ماما، لقد أمضيتِ سنوات في العمل معهم».

* «وهذه فترة طويلة بما فيه الكفاية».

فتحتْ حقيبتها، وأخرجتْ منها ثلاث أوراق مالية قيمة كل منها مئة دولار أمريكي، وأعطت واحدة لكل ولد من أولادي. قائلة: «لا أحتاج المالَ حيث سأذهب. وهكذا فلن تنسوني».

قلتُ لها: «ماما، توقفي عن هذا».

لكن جيمي قال: «لا بأس، سآخذ النقود».

في ذلك المساء، سهرنا جميعاً في شقَّتها. كانت هي وبيا تطليان أظافرهما باللون الأحمر، وبدأت أمِّي تروي قصصاً عن الفندق والموسيقيين والوقت الذي احتالوا فيه مازحين على تومي دورسي. كان دكستر يتظاهر بالقراءة، ولكنه كان يستمع إليها في الحقيقة، بينما تحصَّن جيمي في غرفة نومي القديمة وهو يرتدي سماعات الرأس ويستمع إلى المسجل. أخرجت والدتي إبريق الشاي الصيني وأعطته لبيا، كما أعطت دكستر كتاباً خاصاً بالقانون كانت تمتلكه. وقالت له: «نادِ أخاكَ كي يأتي إلى هنا».

أعطت جيمي ألبوم ليه بول وقالت لهم جميعاً: «لا أريد أن تحزنوا عند وفاتي، فقد عشتُ حياة جيدة، كما أننا لن نضيع المال بصرفه على أجور التنقُّلات بين نيويورك وهنا. بل سنقوم بذلك على طريقتي. أرجو ألا تعودوا لزيارتي بعد اليوم. فأنا لا أريد لكم أن تروني مريضة. لا تهدروا وقتكم. اذهبوا وعيشوا حياتكم. واعتنوا بوالدتكم وببعضكم البعض. سنذهب غداً للسير إلى أعلى الجرف».

فتح جيمي ذراعيه ليضمَّها، ولكنها لم تكن لتسمح له بفعل ذلك لفترة طويلة. وقالت: «لن أذهب إلى الجنة لأنني لن أجد أحداً من معارفي هناك».

ضحك الأولاد على ذلك، وهم يومئون موافقين.

***

كان أسبوعاً جيِّداً. تجوَّلنا في متاجر التسجيلات المعتادة ومشينا إلى

الجرف. وفي إحدى الليالي رأيت الثلاثة وهم يلعبون في ساحة مدرستي القديمة. كانوا يشكِّلون فريقاً على نحو ما. ولطالما كنتُ فضولية حول علاقات الإخوة والأخوات، فقد كنتُ وحيدة طوال عمري دون أية إخوة، وبدا من المذهل جداً وجود شخص من لحمك ودمك إلى جانبك عندما تكون مرتبكاً، أو خائفاً أو تفكِّر في الموت. بعد تلك الزيارة، كنتُ أذهب بمفردي لزيارة أمِّي. في البداية أردتُ أن أكون مشغولة؛ أن أرتِّب شقَّتها، وأن أصنِّف أوراقها، لكنها لم تكن جاهزة لذلك ولم يكن هناك الكثير للقيام به، كما أنها لم تكن تريد أن يتم كل ذلك بسرعة كبيرة. لا أحد يريد أن يقول، حسناً لقد انتهيتُ، وسيتم ترتيب كل ما سيتبقى من حياتي خلال بضع ساعات.

ولذلك كنا نجلس معاً، وكان ذلك مزعجاً لنا نحن الاثنتين. قالت لي: «اخرجي قليلاً وامنحيني بعض السلام». ذهبتُ إلى عدد من النوادي القديمة حيث دخلتُ إلى نادي "ألكسندرا"، وهو المكان الذي وقعت فيه عيناي على تي لأوَّل مرَّة، وذهبتُ إلى نادي "داونستيرز". كانت أعمال الصُّلْب في المدينة متعثِّرة، واستُبدلت بمصالح تجارية جديدة لم تبالِ بالعمَّال، وكانت المدينة تعيش حالة من التدهور. بدت الأندية مهترئة، ومشهد موسيقى الجاز يذوي بعيداً، فقد طغت أنواع الموسيقى الأخرى على الساحة الفنية. حيث عمل موسيقي كلاسيكي يدعى بوريس بروت على تقريب الموسيقى السيمفونية إلى أذهان عمال الصلب. كان فندق "رويال كونوت" شبه فارغ. وفكَّرتُ بيني وبين نفسي في الحالة السيئة التي كنتُ سأصل إليها لو لم أمتلك الشجاعة للمغادرة.

ببطء، بدأتْ عظام والدتي تبرز على شكل تلال مكورة تحت جلدها. أصبحت عيناها ذابلتين. ولم تعد تدخِّن كثيراً. قالت لي في أحد الأيام عندما كانت متعبة: «أُتيحتْ لي فرص لم أغتنمها، ببساطة لم أستطع».

استمعتُ إلى قصصها حول استخراج الأوراق من إصلاحية بلمونت. فقد كانت فخورة بسنوات عملها مع المحامين والباحثين، وامتلاكها الشجاعة بما يكفي للاعتراف علناً بمن كان زوجها. قالت: «كاتي، لا يمكن لكِ أن تتخيَّلي مدى ازدراء الناس لكِ إذا أقدمتِ على الزواج من صيني. عندما أردتُ تبرئة اسمي بادئ الأمر كنتُ خائفة لأنه كانت لديَّ أوراق باسمي وباسم والدك ولم أكن أعرف ما إذا كانوا سيعتقلونني من جديد. وعندما ذهبتُ لزيارة المحامي الأوَّل تظاهرتُ بأنني أسأل من أجل قضية تخصُّ أحد الأصدقاء. كنتُ أفكِّر في أنني لا أستحق ما حدث لي. كما تعلمين، كانت نان الشخص الوحيد الذي قلتُ له الحقيقة. وهل تعرفين ماذا قالت؟ الحب هو الحب».

مع الوقت، أصبحت يدا أمِّي أكثر هزالاً. كان لديها كشتبان مطاطي صغير ارتدته في سبابتها لكي تقلِّب الصفحات بسهولة وهي تضع نظَّارات القراءة. ومن خلال الطريقة التي كانت ترتِّب فيها الأوراق على الطاولة، استنتجتُ بأنها قد قضت ساعات طويلة وهي تحاول فهم الوثائق القانونية بعناية وتقرأ ببطء النصوص المتعلِّقة بمثولها أمام المحاكم، وتتفحَّص نسخ السجلات من إصلاحية بلمونت.

قالت لي: «هذا هو الملف المتعلق باستعادتكِ. لم يكن من السهل إنجاز ذلك. لم أكن قادرة على تذكُّر التواريخ التي احتاجها المحامون، وعندما كان الموضوع يفوق طاقتي على التحمُّل، كنتُ أختفي عن الأنظار لفترة من الوقت. وهو في الحقيقة عيب في شخصيتي. ولكنني لطالما نجوت عن طريق الاختباء. وقد أخبرني المحامون بأن هذه طريقتي في المقاومة».

حملتُ ملفاً سميكاً يحمل علامة "طبي".

- «ما هذا؟».

* «كانوا يظنون بأن جميع الفتيات في الإصلاحية يحملن أمراضاً تناسلية، فقد جعلوا الأمر يبدو كما لو كنا نحمل نوعاً من الآفة. من أين يعتقدون بأننا قد نحصل على مثل هذه الأمراض؟ لم أكن أحمل أياً من تلك الأمراض ولكنهم أصرُّوا على معالجتي على أي حال. كانت طبيبة السجن تجري تجاربها عليَّ، وعلى الفتيات الأخريات أيضاً، كانت تقوم بحرق وكي المناطق الحسَّاسة لدينا. وسبَّب ذلك الرعب لنا جميعاً. اعتقدتُ لفترة طويلة بأنني سيِّئة أو موبوءة أو شيء من هذا القبيل، ولكن الحقيقة هي أنني لم أكن كذلك. وهو مذكور في الملفات. قبل سنوات قليلة، ساعدتني إحدى المحاميات على إيجاد المرأة التي تقف وراء كل تلك التجارب، ولكنها كانت قد ماتت. أردتُ أن أقول لها إنني أعرف ما الذي كانت تسعى إليه، وإنني كنتُ إنسانة جيِّدة، فقد ربَّيتُ ابنتي على أحسن وجه، واحتفظتُ لسنوات طويلة بوظيفة جيِّدة، وإنني لم أكن عاهرة. حاول المحامون أن يكونوا لطيفين وقالوا لي: «ليس في وسعنا القيام بأكثر من ذلك. ولكننا سنبرِّئ اسمكِ».

كانت والدتي فخورة بحصولها على اعتذار الحكومة التافه على تخريب حياتها، والذي جاء على هذه الصيغة: «كان لهذا القانون عواقب مؤسفة وغير مبرَّرة، أثَّرت فيكِ وفي غيركِ من النساء اللواتي أودعن في السجن دون مبرِّر، وذلك وفقاً لأحكامه». لم تكن صياغة جيِّدة، وإنما مكتوبة بعناية فقط. علَّقت والدتي: «كان ينبغي أن تقول الرسالة "جميع النساء" وليس "غيركِ من النساء" ولكنني تعبتُ من القتال. في اليوم الذي وصلتني فيه هذه الرسالة، دعاني المحامون لشرب كأس للاحتفال بالمناسبة. وخمِّني إلى أين ذهبنا؟».

* «فندق "رويال كونوت"».

- «كانت تلك هي المرَّة الأولى في حياتي التي أدخلُ فيها إلى هناك وأنا أشعر بأنني ذات قيمة. اتصلتُ بهارولد للحضور والانضمام إلينا وفعل ذلك فعلاً. اشترى لنا زجاجة من الشمبانيا، وفي هذه المرة كنتُ على الجانب الذي تُقدَّم له الخدمة، وكان الجميع يحتفلون بي».

* «ماما، اتصلتِ بي في ذلك اليوم وأخبرتني بما جرى».

- «لقد قمتُ بكل ذلك من أجلكِ أنتِ أيضاً، كاتي».

أغلقتْ الملف ووضعه مرة أخرى في الصندوق الثقيل من الورق المقوى. قالتْ: «بعد وفاة المرء، تبقى الأوراق التي تخصُّه. ماذا تريدين أن تفعلي بهذا الصندوق؟ يهمُّني مصير هذه الأوراق».

في البداية، لم أكن ألحظ مدى ألمها، وأضافت: «ألن يكون من اللذيذ أن أدخِّن سيجارة وأحتسي كأساً من النبيذ مرة أخرى؟».

كانت تقف في الحمَّام، تنظر إلى نفسها في المرآة. استدارت ورفعت ذراعيها الهزيلتين، وقالت: «لماذا لم يقل لي أحد بأنني أذوي؟ ما هو هذا السر الكبير؟ أنتم جميعاً تخفون الأسرار عني. أستطيع أن أشعر بذلك».

أعادني غضبها إلى مشاعري التي كنتُ أشعر بها في سن المراهقة، عندما كنتُ محاصرة بإحباطها. استدرتُ وذهبتُ إلى المطبخ.

صرخت قائلة: «لماذا تتكبَّدين عناء قطع كل تلك المسافة لكي تأتي إلى هنا وتتجاهليني؟ عودي إلى حياتكِ. فأنت محظوظة بأن الحياة لا تزال أمامكِ».

كانت تحاول ألا تكون في حاجة إليَّ. كنتُ أريد أن تبقى الأمور مرحة، فقلتُ نكتة مسلية ضحكنا عليها سوية، تماماً مثل الأيام الخوالي.

عندما كنا لوحدنا فقط، ننتقد بعضنا البعض، ونبقى معاً. كنا دائماً نخشى ألا نحب بعضنا البعض، ولذلك حافظنا على مسافة فاصلة بيننا، محاولين الاستمرار في الحياة. باستثناء هذه المرَّة، فقد كانت تموت.

كانت تعبة وهشَّة وصغيرة وكما لو أنها قادرة على سماع أفكاري، قالت: «لا تشفقي علي. وإذا كنتِ ستبقين هنا لفترة أطول، فهناك شخص لا بدَّ لكِ من لقائه».

مهسا

قالتْ لي كاثرين عبر الهاتف: «أبعدوني عن أمِّي عندما كنتُ طفلة».

* «أنتِ تخترعين هذه القصة».

- «لا، أنا أقول الحقيقة».

بعد مرض والدتها، كانت تحبُّ أن تتصل بي من هاميلتون في وقت متأخِّر من الليل. قالت لي: «لم تكن والدتي متزوِّجة عندما حملت بي، ولذلك فقد وضعوها في إصلاحية لكونها امرأة فاسدة. وبعد ولادتي أبعدوني عنها».

- «كيف تمكّنت من استعادتكِ؟».

* «كان عليها أن تحارب من أجلي. أنا سعيدة لأنكِ تمكَّنتِ من استعادة ليلوما».

أصبحت ليلوما منعزلة، وخصوصاً بحضور علي. كانت ابنتنا النابضة بالحيوية تمضي معظم وقتها في غرفتها، وتتكلَّم بأسلوب الفتاة المحبَّة لأبيها لإرضائه. أصبحت تحتشم في ملابسها وتغطِّي نفسها بكنزات صوفية كبيرة، والتي كنتُ متأكِّدة من أنها تخلعها في المدرسة. لم تعد تجلس في المطبخ لتتحدَّث معنا عند عودتها إلى البيت في فترة بعد الظهر. وكانت تجيب عن أسئلة علي دون النظر في وجهه، وكان هو يتصرَّف بعنجهية

وتبختر. شعرتُ بأنني فارغة، ولم أكن قادرة على الغفران والمسامحة. قالي لي علي: «لقد أصبحتْ محترمة الآن. لم يكن في مقدورك أبداً أن تعلِّميها ذلك».

كنتُ أحبُّ رائحة شعرها وملمس يديها ووجهها الناعم عندما تسمح لي بعناقها. ولكنها كانت تتجنَّبني في أغلب الأحيان، وتهرب بعيداً قبل أن ألمسها. كانت عيناها توجِّهان إليَّ الاتهام بأنني سمحتُ له بفعل ذلك.

قالت كاثرين: «إنها في الثالثة عشرة من عمرها، وهو السن الذي بدأتُ فيه بمجابهة العالم. هذا طبيعي».

تذكّرتُ نفسي في عمر الثالثة عشرة.

ثم أضافت: «مهسا، أعطِها فرصة، ووسيلة للهروب إذا احتاجت إلى ذلك».

كنتُ خجلة من الخوض في الموضوع أكثر من ذلك. سألتها: «هل تريدين سماع ما أعزفه؟».

* «نعم، أريد ذلك دوماً».

في اليوم التالي ذهبتُ إلى البنك، وعندما رجعتُ إلى المنزل، أعطيتُ ليلوما ظرفاً يضمُّ الكثير من النقود التي سحبتها من حسابي القديم الذي فتحته عندما كنتُ طالبة، بالإضافة إلى رقم هاتف كاثرين. قلتُ لها: «عليكِ إخفاء هذا الظرف جيِّداً. احتفظي به معكِ. في حال حصل شيء ما. واحفظي رقم كاثرين عن ظهر قلب. قد لا تحتاجين إليه في حياتك، ولكن بحسب القانون، فالأطفال من حق أبيهم، وهم يبقون معه».

تفاجأت ليلوما من كلامي وسألتني: «ماما، ماذا عليَّ أن أفعل؟».

وضعتُ الظرف في يدها، وقلتُ: «هذا يتوقَّف على ما سيحدث. وسوف تعرفين ما عليك القيام به في حينه. وآمل بألا تُضطري إلى فعل أي شيء».

بعض النساء يتركن أزواجهنَّ وأطفالهنَّ. وخلال ساعات الشكِّ المظلمة، حاولتُ أن أتخيَّل كيف سيكون الوضع في صباح اليوم التالي، أو الأسبوع المقبل، أو بعد عقد من الزمن. تخيَّلتُ الألم وهو يتراجع ويخفُّ مع الوقت. تخيَّلتُ قصة آصف وليلوما: هجرتنا والدتنا.

لا يمكنني أن أكون هكذا. ولا يمكنني العيش معزولة عن ولديَّ.

حاولتُ إبعاد مشاكلي عن ذهني وأجبرتُ نفسي على التمرُّن. أصبح تركيزي أكثر نقاءً. مرَّ شهر بعد آخر، ثم سنة تلتها سنة أخرى، وكانت حياتي الثمينة تنقضي أمام عينيَّ. علَّمتُ ليلوما بعض الآيات القرآنية لإرضاء علي، وقلت لها: «ادرسي بجدٍّ، وحاولي الحصول على منحة، وكسب مالكِ الخاص».

وشاهدتُ تجعيدة العبوس تأخذ مكانها عميقاً بين عينيها، تماماً مثل والدة علي.

تغيَّرت الأمور بيننا تغيراً قاطعاً. بقيتُ في المنزل. وكنتُ أعزف. وكان ذلك الشيء الوحيد الذي بقي لي. وفي إحدى الأيام، خرجتْ ليلوما من غرفتها بينما كنتُ أتمرَّن وقالت لي: «مور، لا أستطيع التركيز مع كل هذا الضجيج. أنتِ طلبتِ مني أن أدرس».

كانت تنظر إلى عزفي على أنه ضوضاء. أخيراً، اتصلتُ بجان سانت جون، وقلتُ: «جان، أنا أموت».

* «مهسا، أنتِ تعودين إلى صوابكِ. لماذا تموتين؟».

- «من الملل، فأنا لا أفعل شيئاً».

* «أنتِ محظوظة لأنه ليس لديك شيء تفعليه سوى العزف. أنا أكره الإدارة. فكل ما أقوم به هو الاهتمام بالعقود التي لم يتم الإيفاء بها، والطلاب ذوي الأصابع المكسورة وآلات البيانو ذات الأوتار المعطوبة».

لم يكن في وسعي إلا أن أضحك. أضاف: «لا تضحكي! لديّ طالبة يابانية تبرَّع لنا والدها بمبلغ كبير من المال. وهو يريدها أن تعزف الجاز، لكن ليس في وسع أي من المدرِّبين هنا مساعدتها في أي شيء، فهي حالة ميؤوس منها ولا تعرف شيئاً».

- «سوف أعطيها بعض الدروس الخصوصية في بيتي صباحاً. وسوف أمرُّ على مكتبك لأستلم أجري. لا ترسله إليَّ بالبريد».

* «تباً! دائماً تسير الأمور كما تشائين».

ضحك وتابع قوله: «لقد اشتقتُ إليك! سوف أحضرها غداً. حاولي الخروج من المنزل. مهسا، تعالي للعزف معي في نادي "بيدلز"».

لم يكف عن الإيمان بي وبموهبتي.

أن تعيش، يعني أن تُخاطر بحصول كارثة ما. وأن تتخلّى عن الطرق القديمة لخلق شيء جديد. أن تعشق العيش في ظل حياتك المرئية. عندما نسيت ليلوما غضبها الذي حملته ضدي، رأيتُ في عينيها الرماديتين طبيعة مور المرحة النابضة بالحياة. في بعض الأحيان كنتُ أظن بأنها تحمل رائحة مور. كنتُ أحب جسدها النحيل المتماسك، وشعرها الداكن. بدأتُ بتأليف موسيقى تروي قصة ليلوما ومور. كنتُ أرى جسد والدتي المشوَّه بالرصاص والمكوَّم على الأرض. والهيئة الجامدة لطفل مكلوم. لماذا يكون للشرف قيمة تزيد على حب طفل؟ وضعتُ كل هذه المشاعر في مقطوعتي التي أسميتها "اشتقت إليكِ، مور".

مع كل يوم، كانت تأتي العبارات والألحان والأفكار من ذلك الجزء الداخلي مني الذي كان في أمسِّ الحاجة إلى الكلام. بعد مرور أسابيع وأسابيع، أرسلتُ مقطوعتي إلى كاثرين، التي عاودت الاتصال بي وعزفتها لي عبر الهاتف.

قالت: «مهسا، إنها جميلة جداً. هل تريدين رأيي الحقيقي؟ جرِّبي وضع كورد كبير في السطر الثالث، لتوليد تناقض غريب من نوع ما».

ثم قالت: «أنا أحبُّ هذه القطعة».

لا بدَّ من أني فتاة كراتشية غريبة الأطوار كي أحبَّ الشتاء بهذا القدر. دخلتْ ماتش عبر الباب، ونفضت الثلج عن حذائها وخلعت قفازاتها السميكة وقبَّعتها ووشاحها. كانت تربط شعرها الناعم والأملس إلى الوراء على شكل ذيل حصان. لم تكن لديها أذن موسيقية تجاه موسيقى الجاز. كانت تحبُّ باخ ولم تكن قادرة على حمل نفسها على الارتجال. قالت: «من يستطيع التفوُّق على باخ؟». كانت ترتدي تنورة قصيرة ترتديها الطالبات وتضع إكسسوارات وتحمل محفظة وردية وسوداء مزينة بالرسوم الكرتونية.

قالت: «أُصيب أبي بخيبة أمل. فهو يريدني أن أعزف مثل توشيكو اكيوشي».

* «أنا أدرك ما يعنيه أن يكون في حياة المرء أشخاص لديهم أحلامهم التي يريدون تحقيقها عبر فرضها على الآخرين».

- «أنتِ العبقرية الأولى التي التقيها في حياتي».

* «عليكِ أن تعرفي بأن الارتجال يعني أن تضيفي لمساتكِ الموسيقية الخاصة، وأنا متأكدة من أنه يمكنك القيام بذلك».

في الدرس التالي، عزفت فوغا[1] باخ وعندما وصلت إلى النهاية توقفت بطريقة درامية، وأضافت نوتة واحدة، ثم رفعت يديها عن المفاتيح ونظرت

1- صنف من التآليف الموسيقية الغربية. تعطي الانطباع للمستمع بمشهد هروب ومطاردة عن طريق الدخول المتتالي والمتعاقب للأصوات وتكرار المقطع نفسه، ويضم هذا الأخير ثلاثة أجزاء هي: العرض، التطوير، و«ستريتي». (م).

إليّ. كان تتمتع بذكاء وطرافة خاصة بها. اتصل جان، وقال: «أنا في حاجة إلى مدرِّسين من أمثالكِ. ينبغي لكِ تدريس المزيد من الطلاب، ولكن عليكِ أن تأتي إلى هنا».

وجدتُ حلاً سهلاً. كنتُ أذهب في كل يوم أربعاء، حيث أخبرتُ علي بأنني تطوعتُ في مدرسة لاي. كنتُ أرتدي النقاب في الشارع حتى لا يعرفني أحد وأخبِّئه في حقيبتي في الحرم الجامعي.

وفي إحدى الأيام أحضر جان الكونترابـاص خاصته إلى غرفة التمرين حيث أعمل، وطرد طالبي خارجاً وقال: «حان دوري».

ترك الباب مفتوحاً بحيث تجمَّع الطلاب في الردهة ليستمعوا إلى عزفنا، وبدأوا يطلقون الإشاعات حول ما إذا كنا عشَّاقاً. في بعض الأحيان كنتُ أنهض عن كرسي البيانو وأخرج إلى مدخل الباب وأصدح بشعر الشاعر الهندي "كبير": لا تقطع عنق الماعز، اقطع عنق الحكم، بينما يعزف جان على آلته. كان الطلاب يتناقلون قصصاً عن عزفي مع جان عندما كنتُ طالبة، وكان هو لا يزال أستاذاً جديداً. سمعوا في موسيقانا تقنيات العقود الماضية الممتزجة مع شبق الشباب. في أحد الأيام، نظر جان إلى ساعته وقال: «عليَّ أن أذهب. فلديَّ اجتماع. مهسا، دعينا نهرب سوية، ونترك كل شيء وراءنا». ثم صرخ على الطلاب في الردهة: «اذهبوا واصنعوا موسيقاكم الخاصة».

يا لها من مضيعة حزينة تلك الحقيقة المرَّة بأن عائلتي تتظاهر بالسعادة! لم أكن أعرف أين يذهب آصف مع أصدقائه، أو أين ترتدي ليلوما حذاءها ذا الكعب الأحمر الذي كانت تخبئه في حقيبة ظهرها.

ساءت صحة علي فجأة، واكتشفوا إصابته بسرطان البروستات. خلال فترة مرضه، وعندما كنتُ أقلُّه إلى جلسات العلاج ومواعيد الأطبَّاء،

اضطررتُ إلى التخلِّي عن التدريس مرة أخرى. وكان هو يدير شؤون المكتب عبر الهاتف. اعتدتُ على أخذه ليعمل بضع ساعات بينما أنتظره، وأنا أقرأ المجلات، وأشهد على مدى حبِّ موظَّفيه وولائهم له. كان ساحراً وهو يتحدَّث عن لعبة هوكي ويسأل عن أحوال أسرهم. ذكَّرني به عندما كان ذلك الشاب الذي التقيته في باكستان. وعلى طريق عودتنا إلى المنزل، كان يخبرني بارتياح عن مدى نجاحه.

قال لي: «سرعان ما سيحلُّ آصف محلي في تولِّي المسؤولية. لقد أسَّستُ وبنيتُ شركة تجارية جيدة». وفي أحد الأيام، عندما كان متعباً ومريضاً، قال: «مهما، كانت حياتنا جيدة».

اتصل بي جان ليقول لي: «بإمكاني تدبُّر أمور جميع الطلاب الذين تخلَّيت عنهم، باستثناء ماتش. لا بدَّ لكِ من متابعة تدريسها. أنت مدينة لي بذلك».

علَّمتها بعض الأساسيات مع أنماط كوردات بسيطة يمكن لها أن تؤدِّيها أمام والدها. أخرجتُ آلة المينيموغ القديمة خاصتي وعزفنا معاً. كما تعلّمت إضافة بعض النوتات الجدية. وفي يوم ربيعي، ومع قرب انتهاء الفصل الدراسي، سألتها إن كان لديها حبيب. وأجابتني: «إنه في اليابان. سنتزوَّج في الصيف وننتقل إلى فانكوفر. فقد حصلتُ على عمل بدوام جزئي في فرقة "ريتشموند سيمفوني". كما سيأتي والدي لزيارتي قريباً وسوف أعرِّفكِ إليه وأخبره بأنكِ أفضل صديقة لي في مونتريال».

* «هل يوافق والدكِ عليه؟».

- «أوه أجل. أنا محظوظة».

* «لماذا محظوظة؟».

- «يكون الوضع سيئاً بالنسبة إلى الفتاة اليابانية عندما لا يوافق أهلها على الزواج».

* «هذا ينطبق على الفتيات في كل مكان».

- «أوه! لا، هنا يتمتع الجميع بالحرية».

* «إذا كنتِ تحبينه، فعليكِ أن تكوني معه في أقرب وقت. الآن، عليكِ بالارتجال وسأقوم أنا بقراءة قصيدة:

أسأل البرق،

عندما يضرب عبر هدأة الليل،

فيما إذا رأى حبيبي.

فلطالما ذكَّرني البرق بحبيب قلبي.

ثم قالت ماتش: «دوركِ بالعزف، وأنا سأتلو قصيدة:

في الأحلام، وعلى مسارات الحلم

أمضي دون راحة،

وبالنسبة إليكَ حبيبي

فكل هذا أقل من لمحة بصر

في عالم اليقظة».

جاء جان لحضور امتحانها الرسمي. كان واقفاً ينظر عبر النافذة، ويستمع إليها وهي تعزف. ثمّ أريته النوتات التي دوَّنَتْها.

سئل جان: «ما هذا؟».

ردّت ماتش: «إنه مقياس أبهوجي راجا».

سئل جان: «هل هو خاص بموسيقى الجاز؟».

قلتُ: «الجاز يكون كما تكون. من قال هذا يا ماتش؟».

* «إيرل هاينز».

- «وماذا قال إلينغتون عن ماري لو ليامز؟».

* «كانت مثل روح على روح».

- «وماذا قالت ماري لو وليامز عن الرجال؟».

* «بالعمل مع الرجال، تفكِّر المرأة مثل رجل، وتصبح قوية، ولكن هذا لا يعني أنها لا تظل أنثى».

رفع جان حاجبه، وسألني: «هل تدرسين الموسيقى أم السياسة؟».

أجبته: «قمتُ مع ماتش بإعداد قصيدة باللغة العربية كتبتها أم جعفر بنت علي. وارتجلت ماتش الموسيقى المرافقة. وكانت أمِّي قد علَّمتني القصيدة. هل أنتِ مستعدَّة؟».

وضعت ماتش يديها على مفاتيح البيانو وبدأت بالعزف، وشرعتُ أنا أقرأ:

ارجـــعْ بـغـيـظِـكَ عنَّا ... فـلـســتَ لــي بـقـريـنِ
ولــســتَ صــاحــبَ دُنيا ... ولــســتَ صــاحــبَ ديــنِ
تـــرومُ ملكي بعقلٍ ... واهٍ وحُــمــقٍ حــرونِ

عزفت ماتش أطول قليلاً لإنهاء أدائنا، وضحكنا جميعاً. قال جان: «ماتش، أرى أنكِ قد تعلمتِ كيفية الارتجال. لقد نجحتِ، أداء جيد».

ثم ارتدى معطفه وقال: «مهسا، تعالي واعزفي الليلة في "بيدلز". يمكنكِ أن تقرئي هذه القصيدة. سأكون ذلك الأحمق الحرون الذي يعزف معك. سنعزف شيئاً مبتكراً لم يسمعه أحد من قبل».

* «لا أستطيع الليلة يا جان. علي ليس بصحَّة جيِّدة».

- «تباً، مهسا. ألا تستطيعين ولو لبضع ساعات؟ نحن نحضِّر لإقامة مهرجان الموسيقى المقبل في "فيكتوريا فيل". انبُشي الساري الذهبي الجميل خاصتكِ وتدبَّري وسيلة لتكوني هناك. سوف أوصلكِ بنفسي إن

لم يرغب زوجكِ التافه في أن يُقلَّكِ إلى هناك. أوه، صحيح لقد وصلت هذه الرسالة إلى الكليّة من أستراليا، وهي موجَّهة إليكِ. لقد نسيتُ أمرها. وعلى أي حال، فإنه ليس خطأي، بل أنتِ التي اختفيتِ في غياهب الضباب. عليكِ أن تخرجي أكثر».

كاثرين

شون ووالدتي عاشقان منذ اثنتي عشرة سنة. هو رجل طويل القامة ونحيف، ذو شعر ذهبي وابتسامة حزينة. يحمل يدي رجل لم يعمل أعمالاً شاقة. فقد عاد بعد الحرب إلى المدرسة ضمن برنامج المحاربين القدامى وأصبح محامياً، وهو ما لا يمكن تصوُّره لصبي جاء من الحي الذي تربَّى فيه. اختار القانون العقاري لأنه يحب التفاصيل وساعات العمل التي يمكن التنبُّؤ بها. كان رجلاً طيِّباً مرحاً ويهتمُّ بمشاكل الآخرين.

قالت والدتي: «دائماً ما يساعد شون الناس على الشعور بالراحة. وهو يفعل ذلك معي أيضاً. كما يمكنه إصلاح أي شيء. ألم تلاحظي كيف أن جميع الأمور هنا تبدو جيِّدة؟».

كان ذلك صحيحاً. فالصنابير لم تسرِّب المياه، ولم تصدر المفصَّلات أي صرير. وكان الطلاء جديداً. امتاز شون بكونه طباخاً فذاً. قال: «في أوَّل يوم لي في المدرسة الثانوية أحببتُ جيني. كانت جميلة ومضحكة وتجعل كل الصبية يضحكون، كانت تكبرني بصف. ظننتُ بأنه لن تكون لي أبداً أية فرصة معها. ولم أظن للحظة بأنها ستقبل مواعدتي ولكنني استمررتُ في مراقبتها. وعندما وجدتُ في النهاية الشجاعة للحديث معها بعد مرور خمس سنوات مؤلمة، كانت قد تركتْ المدرسة بالفعل. كنتُ أتسكَّع عند

مخزن الأشياء المتنوعة محاولاً رؤيتها. قالت لي يومها إنها حامل وقلتُ لها: أريد أن أتزوجكِ. كنا لا نزال مراهقين. ولكن الحرب كانت على الأبواب، وكنتُ أعرف أنني سأنضم إلى الجيش ولم أُرد أن أضيِّع فرصتي معها. لكنها قالت إنها لا تظن أن الأمور بيننا ستتطور أو تنجح، فقد كانت لا تزال تحبُّ والدكِ. لذلك تخلَّيتُ عن الموضوع وتزوَّجتُ وذهبتُ إلى الحرب، ولكنني لم أتوقَّف يوماً عن التفكير فيها».

هزَّ شون رأسه، وتساءل: «لماذا نعتقد بأن الزواج هو ما يجعل الحياة صحيحة؟ عدتُ إلى منزلي من الحرب وكانت زوجتي قد أنجبت طفلنا الأوَّل، تلاه طفل آخر خلال فترة وجيزة، ولكن بعد ذلك قرَّرت التوقُّف عن إنجاب المزيد من الأطفال لأنني أدركتُ أنني لم أكن واقعاً في حبِّ زوجتي وكنتُ متورِّطاً في تلك العلاقة مع طفلين. أنا مدين بالشكر إلى زوجتي لإنقاذ ما جنيته من أرباح ومنعي من إضاعتها هباء مثل الكثيرين الذين فعلوا ذلك. كما أنها لم تمانع عودتي إلى الدراسة. كانت زوجتي مخلصة لي، ولكن قلبي كان واقعاً في حب غيرها قبل فترة طويلة من لقائي بها. لم يكن ذلك عادلاً».

مدَّ يده ليضمَّ يد والدتي، وقالت: «كانت زوجته تعاني من مرض التصلُّب المتعدِّد، ولم يكن قادراً على هجرها أبداً. قرّرتُ تركه في اللحظة التي أخبرني فيها بأنه لا يزال متزوِّجاً. ثم قرّرتُ بأن الحياة قصيرة جدّاً. وفكَّرتُ في أنني ما زلتُ متزوجة على الورق كذلك».

لكزتْ شون بدلال واستنتجتُ بأنها نكتة قديمة اعتادا أن يضحكا عليها. سحب شون يده من يدها، ووضع ذراعه حول كتفها. وقال: «أمُّكِ قديسة. أنا رجل محظوظ».

وقالت هي: «كاتي، كان عليَّ أن أخبركِ. ولكنني لم أُرد أن تظنِّي السوء بي».

لم أكن لأفكِّر بهذه الطريقة. فقد استلطفتُ شون. فقد كان مشرقاً ومعطاءً ويجعل أيامها جميلة. وهي أيضاً أعطت الأمل لحياته. فكرتُ في أنها على الأقل قد وجدت شخصاً يعشقها.

إذا كان لديَّ وقت مفضَّل خلال السنة الطويلة التي استغرقها احتضار أمي، فقد كان فصل الربيع. كنتُ أحبُّ رائحة ذوبان الثلوج والمطاحن عبر الخليج. وأتذكَّر الاستيقاظ في غرفة نومي القديمة في القبو والقراءة، والاستماع إلى أولى أصوات العصافير، وأنا مدركة أنني سوف أتجوَّل في الخارج طوال فصل الصيف. كان سريري القديم لا يزال يضم الأغطية نفسها. تمنَّيتُ أن أجني القليل من النقود في هاميلتون، ولكن المشهد الفني كان قد انتهى عن آخره هناك. لذلك أجبرتُ نفسي على تعلُّم كيفية الجلوس معها بلا حراك.

عادة ما يكون الموت البطيء هادئاً. وفي فصل الشتاء، تكون أقل خيوط الشمس لا تُقدَّر بثمن. كما تبدو أوراق النباتات وكأنها عمل فني. في أحد الأيام، جلستُ مع أمِّي وشون في الخارج ممتنين لقضاء المزيد من الوقت معاً بعد انقضاء ذلك الشتاء الطويل جدّاً.

قالت والدتي: «اعتدتُ، خلال الليالي الصيفية، مشاهدة الأطفال من هذه الشرفة بصحبة نان. كانت كاتي تركض إلى الشارع وتصدر الأوامر إلى جميع الأولاد. كانت تستمتع بلعب لعبة المافيا. فعندما كانت لا تزال صغيرة، كان هناك الكثير من الحديث عن جوني باباليا وعصابة اليد السوداء. في نهاية الشارع، كان هناك أنبوب صرف صحي كبير كانت تسميه مكتبها ولم تسمح لأحد بالدخول إليه. كانت تحب أن تجلس هناك وتقرأ. كانت تقول للأطفال مهددة: سوف أكسر ركبة من يقترب من مكتبي».

قصصي القديمة. ستختفي كل تلك القصص مع وفاة أمِّي.

كان شون يلمس والدتي دوماً، يمسك بيديها، يميل إليها ليحيط بذراعه كرسيها. لم أكن قد رأيتها تسمح لأي شخص آخر بلمسها. وكان هو مهتمّاً بأي تفصيل يخصُّها. كان من الغريب أن أراها بصحبة رجل يحبُّها. حاولتُ أن أتخيَّل سنوات حياتهم المخبَّأة في ذلك القبو، الحب الذي ساعدهما على الاستمرار في الحياة، في ظل إحساسه العنيد بالواجب وأسرارها الضرورية.

كانت قصاصة مأخوذة من جريدة تعود إلى سنة 1942، وهي السنة التي تزوَّجت فيها والدتي من أبي، ملفوفة حول ملعقة تذكارية من شلالات نياغارا. وكانت المقالة الواردة في القصاصة تدور حول رصد غواصة ألمانية من طراز U-553، في نهر سانت لورانس. كنتُ أتساءل عمَّا إذا تمكَّنت أمِّي وأبي هنري من الذهاب إلى شلالات نياغارا. عندما أريتها الملعقة قالت متململة: «كاتي، هل ستخوضين في كل هذه الأشياء؟ عليكِ الاهتمام بتفاصيلك الخاصَّة».

يعيش الشخص الذي يُحتضر في مكان منعزل يرفض فيه تطفُّل الآخرين. اعتدتُ على مشاهدة أمِّي تتحرَّك، وهي تمدُّ يدها دون وعي إلى الطاولة بجانب سريرها كما لو أنها تبحث عن سيجارة. ثم تنظر حولها وتقول: «أنا ما زلتُ هنا».

قبل ذهابها إلى المستشفى في المرَّة الأخيرة، طلبتْ مني إحضار علبة أحذية من الرفِّ العلوي من خزانة الملابس. كان تحتوي على ظروف تضمُّ قصاصات من الصحف وصور مربَّعة ذات حافات محززة، ورسالة والدي الوداعية، ودفتر تمارين للأطفال حيث تمرَّنتْ على كتابة الأحرف الصينية. نظرتُ إلى صورة قديمة لها وهنري لاو في يوم زفافهما. بدت شابة جدّاً آنذاك وهي تميل بكتفها على كتفه.

تتبَّعتْ بإصبعها تفاصيل وجهه، وقالت: «كان هنري يبدو وسيماً بقبعته المائلة إلى الأسفل، وطوله الفارع، محاولاً الاندماج في المجتمع. كان قد راهن وخسر المال الذي كان سيدفعه ثمناً لخاتمي ولذلك فقد اضررتُ إلى استعارة خاتم وإعادته بعد الحفل. لهذا السبب لا ترين خاتماً في إصبعي في الصورة. أتمنى لو ارتديته».

ثم أضافت: «كاتي، ما حدث مع والدك كان أكثر تعقيداً مما قلته لك. كنتُ أحبُّه فعلاً ولكن مواجهة الواقع كان أمراً يفوق استطاعتي على التحمُّل».

* «ماما، ليس عليكِ أن تروي لي أي شيء. انسي الموضوع».

- «أريدك أن تعرفي الحقيقة. كانت الأمور عبثية. لم يكن لديَّ أي أحد لمساعدتي. بعد أن تزوَّجته اكتشفتُ أنه كانت لديه بالفعل زوجة في الصين. قال لي إنه ظنَّ بأن زواجه ذلك لا يحتسب. الرجال غريبون، أليس كذلك؟».

كنتُ قد دفنتُ كل الأمور التي تتعلق بطفولتي، ولم أُرد أن أعرف أي شيء. أما الآن فقد أصبحتُ مجبرة على مواجهة الحقيقة، أصبحتْ قصص أمِّي نابضة بالحياة وتصرخ مثل طفل حديث الولادة. لا بدَّ من أن والدي كان فقيراً جدَّاً في الصين لدرجة اضطرته إلى الإبحار إلى الطرف الآخر من العالم سعياً وراء الحصول على عمل، حيث أنشأ، بدافع من وحدته، منزلاً أنيقاً في مرأب لتصليح السيَّارات، مدَّعياً بأنه كان حرَّاً وعازباً، ولكنه في الحقيقة كاذب، وذو زوجتين. لا بدَّ من أنه كان مغامراً عنيداً أيضاً.

قالت والدتي: «هذا هو السبب في أنني لم أسمح له بأن يعيش معنا. كنتُ أخاف من يكتشف شخص ما الحقيقة ويحرمني منكِ مرة أخرى. كما أن الفتاة التي تتزوَّج رجلاً صينياً خلال الحرب تُضطرُّ إلى حمل جنسيته.

لم أكن أعرف ذلك إلى ما بعد زواجي به. وفي ذلك الوقت، لم أستطع الحصول على جواز سفر صيني أيضاً. كان وضعنا القانوني سيِّئاً وندمتُ على الزواج. كنتُ قد أقدمتُ على الزواج لجعل وجودكِ شرعياً بحيث لا يبعدوكِ عني مرة أخرى. تقدَّمت بطلب للحصول على جواز سفر كندي باسمي قبل الزواج. لم يكن ذلك قانونياً ولكنني فعلته على أي حال. كنتُ أخاطر بالسجن لخمس سنوات بسبب هذه الخطوة. أنتِ تعتقدين بأنني لم أرغب في زيارتكِ في نيويورك، وأنني لا أحبُّ أن أزعج نفسي بالسفر، ولكن الحقيقة هي أنني كنتُ دائماً أخشى من عبور الحدود».

كان جيراننا في ماونتن برو عمال صلب كادحين، ذوي سواعد متعبة، ولديهم صناديق حمراء لتلميع الأحذية في منازلهم المصنوعة من الطوب. انتقلوا إلى هناك بعد الإضراب الذي قاموا به من أجل الاعتراف بستلكو، حيث كان الرجال يعرِّفون أنفسهم على أنهم إما داخل أو خارج تلك الحركة التي جعلت من "يو أس دبليو أي" أكبر نقابة في البلاد. كانوا يحملون تطلُّعات الطبقة الوسطى، وفي أمسيات الصيف كان يأخذون أسرهم في سيارات بويك وفورد ويتوجَّهون نحو البحر: "كوتس بارادايز"، و"بيتش ستريب"، و"لاسال بارك" على الجانب الآخر من الخليج مقابل المطاحن. كان ذلك الوقت عندما كانت الأمَّهات تجبرن أطفالهن على أكل كل الطعام في أطبقاهم وتطلبن منهم التفكير في كل الأطفال الذين يتضورون جوعاً في الهند. لم يُوظَّفْ أي شخص صيني في مصانع الصلب. كانت الوظائف ذات الرواتب الجيِّدة حكراً على الرجال البيض وبعض الإيطاليين، وفي وقت لاحق، على الرجال العائدين من الحرب. وأخيراً أدركتُ ما كانت والدتي تقاتل ضدَّه.

في تلك الأيام كان يحق للصحف أن تقول إن الفتاة الحامل غير

المتزوجة ملطخَّة بالعار والخوف، امرأة ساقطة تجلب الخزي لنفسها ولعائلتها. كانت هناك مجموعات في الحي تعمل جاهدة على منع الأمَّهات غير المتزوِّجات من الانتقال إلى الحي. حيث قالت إحدى النساء في ذلك الوقت: «أفضِّل أن يكون جيراني حفنة من الزنوج على أن أكون بجوار مثل تلك الساقطات». في طفولتي وطوال فترة وجودي مع أمِّي، لم أكن أعرف الأسباب الحقيقية لعدم وجود رجل معنا في القبو، فقد كانت والدتي تسعى إلى أن تقدِّمنا على أننا حالة خاصة استثنائية. لكنّ الأطفال لا يحبُّون أن يكونوا مختلفين. ومع ذلك فقد كان أطفالي مختلفين جدَّاً.

قالت: «كتبتُ إلى والدكِ على مدى اثني عشر عاماً بعد مغادرته. بعثتُ له بصوركِ. ثم اكتشفتْ زوجته الموضوع وكتب رسالة أخيرة قال فيها إنه لن يستطيع الكتابة بعد الآن، وبالفعل لم يفعل. ويوماً بعد آخر انتهى كل شيء. ما الذي أعطاه الحق لهجرنا بكل تلك القسوة؟ كنتُ غاضبة حتى الجنون وأحرقتُ جميع رسائله».

نظرت والدتي إليَّ، وقالت: «أعتقد بأنه لم يكن من الصواب أن أفعل ذلك. ربما كنتِ مهتمَّة بقراءتها. هذا هو آخر عنوان أعرفه له. في حال كنتِ ترغبين في التواصل معه».

أخذتُ الورقة المطوية التي تحمل عنواناً مكتوباً بعناية باللغتين الإنكليزية والصينية. لم أكن أريد التفكير في هذا الأمر. فقد كانت والدتي تُحتضر وكنتُ على وشك الإفلاس، وكنتُ منزعجة لتركي بيا وحدها في نيويورك، كما أنني كنتُ أرغب في العزف، ولديَّ الكثير من المشاكل الأخرى لأفكِّر فيها. وفي المحصِّلة كانت تلك قصَّتها، وليست قصَّتي.

قلتُ: «حسناً، لم يحالفني الحظُّ في البقاء إلى جانب تي أيضاً».

وأضفتُ لإرضائها: «ومع ذلك فقد أنجبنا نحن الاثنتان أطفالاً رائعين نتيجة لهذه العلاقات الفاشلة».

تخلَّصت عينيها المتعبتين من مسحة العار وضحكت وهي تقول: «أعتقد بأنني لطالما كنتُ أنجذب إلى الرجال المتزوِّجين!».

سمعنا شون يفتح الباب في الطابق العلوي ونادى علينا: «مرحباً أيَّتها الفتيات الرائعات. لقد وصلتُ إلى البيت».

كانت تلك هي اللحظة التي شعرنا فيها نحن الاثنتان بأننا الأقرب إلى بعضنا البعض طوال تلك الشهور الطويلة من احتضارها.

- «نعم، أبو. لقد أوصلتُها إلى المنزل».

أغلق آصف سماعة الهاتف وسألتُه: «ما الذي طلبه منكَ أبو؟».

- «لا شيء، مور».

* «آصف، عليكَ أن تخبرني بالحقيقة. ماذا قال لكَ؟».

نظر بعيداً واحمرَّت وجنتاه مثل علي، واستشعرتُ جموحه وعاره. قال: «مور، لقد طلب مني أن أراقب ليلوما».

* «وكيف تقوم بذلك؟».

نظر إلى الأرض ولم يقل شيئاً.

* «آصف. أجبني».

- «مور، أنا أفعل ما يطلبه مني أبو».

* «آصف، هل يقدِّم شقيق حبيبتكَ تقريراً عنكَ إلى أهلها؟».

لم يكن يعرف بأنني أعرف بأمر حبيبته.

أجابني: «سأتحدث عن موضوع حبيبتي عندما أكون مستعدّاً لذلك».

* «أعرف أن لديك حبيبة. لماذا لم تخبر أبو بذلك؟ أو أنا؟ أم أنكَ تريد مني أن أخبره؟ لماذا تبقي الأمر سرياً لهذه الدرجة؟ هل أنت خائف من ألا يوافق عليها؟».

- «أبو يريدني أن أعتني بليلوما».

* «أنا لا أريدكَ أن تقوم بذلك».

- «أنا أعلم أسراراً عنكِ أيضاً. فأنا أعرف بأنكِ عاودتِ التدريس».

نزل كلامه مثل الصاعقة عليَّ. من هو هذا الشخص الذي أصبح عليه ابني؟

لكن آصف لم يكن لديه مزاج علي الدكتاتوري والمنغلق. كان ساحراً مثل علي، صبياً غربياً يعشق الهوكي، ويذهب إلى المسجد مع والده. بدآ معاً بالقيام بالأعمال الخيرية وكان آصف يتطلَّع إلى أول رحلة عمل له. كان نسخة ألطف من علي، فهو لم يكن غاضباً طوال الوقت مثله. لطالما بدا لي ابني غير معقد، ولكن قلبي انكسر اليوم لرؤيته مقسَّماً ومشتتاً على هذا النحو في محاولته للتحالف مع والده.

قلتُ: «آصف، أنتَ أفضل من هذا. لقد خاب أملي، وأنا غاضبة، لا بدَّ لك من أن تشعر بهذا».

لم أتحدَّث إليه يوماً بطريقة أتحدَّى فيها علي. كان يكتشف قوة موجودة لديَّ لم تكن معروفة بالنسبة إليه سابقاً. طفلي الجميل الأوَّل والذي كنتُ مستعدَّة للموت في سبيله، سرعان ما سيكون مستقلاً ولوحده في العالم. هل يمكنه أن يقرِّر ما هو جيِّد؟ كنتُ أعرف عادته في الالتفاف على الصعاب. كان يريد إرضائي وإرضاء علي أيضاً. وكان هذا مستحيلاً بطبيعة الحال.

عادتْ ليلوما إلى المنزل في أحد الأيام وعيناها مشرقتان مرة أخرى، وقالت: «عندما تتحدَّثين إلى أبو أخبريه بأنه أصبحت لديَّ الآن أموالي الخاصَّة، وبأنني سأدرس في فانكوفر. لقد أصبحتُ في السابعة عشر من العمر ولا يمكنه إجباري على فعل ما يريد إلى الأبد».

تلك هي الطريقة التي أخبرتني فيها بأنها حصلت على منحة. ثم قالت: «سأخرج مع أصدقائي للاحتفال اليوم».

احتضنتها، وأمسكتُ يديها وحضنتها مرّة أخرى. قلتُ لها: «ما من مشكلة، لا توجد دروس قرآن اليوم. دعينا نحتسِ الشاي احتفالاً. وسأروي لكِ قصة قبل أن ذهابكِ ويمكنكِ حفظ القصيدة الأخيرة».

جلستْ وتنهدت تنهيدة كبيرة، لتظهر لي بأنها تسايرني على الرغم من أنها قد أصبحت مستقلة الآن، لكنني كنتُ أعرف بأنها كانت سعيدة. رويتُ لها قصَّة اعتماد التي كانت تغسل الملابس على نهر في إشبيلية بينما كان الأمير محمد بن عباد في زيارة للمكان. وفيما هو يسير مع صديق له، ارتجل الشطر الأول من بيت شعر قائلاً:

صنع الريح من الماء زرد

وكان ينتظر من صديقه إكمال الشطر الثاني، لكن الصديق عجز عن قول أي شيء. ثم نطقت اعتماد، التي كانت عند النهر، بالشطر الثاني قائلة:

أي درع لقتال لو جمد

أُعجبَ الأمير بالفتاة، وسألها: «هل أنتِ متزوجة؟».

فرّدت: «اسمي اعتماد وأنا لستُ متزوِّجة، واسم سيدي هو رميك بن حجاج».

اشتراها الأمير وتزوَّجها. وكان هو في التاسعة عشرة من عمره. وكانت تصغره بسنة واحدة. وقعا في حبٍّ بعضهما البعض».

سألتني ليلوما: «كيف عرفتِ أنهما أحبَّا بعضهما البعض، كل ما قام بفعله هو أنه اشتراها!».

* «تقول القصَّة إنهما وقعا في الحب، لذلك فلا بدَّ أن تكون تلك هي

الحقيقة. كما أنه أطلق على نفسه لقباً جديداً: "المعتمد"، وقد اشتقَّه من اسمها. مرَّة، عندما قالت اعتماد إنها تود أن ترى الثلوج، أمر بزرع أشجار اللوز على التلال المحيطة بالبلدة حتى تتمكَّن من رؤية أزهارها البيضاء التي تشبه الثلج. بعد سنوات، أُطيح به وسُجن بالقرب من مراكش. بقيت قريبة منه وتوفِّيت قبل بضعة أيام من وفاته».

حفظت ليلوما الأسطر العربية ووضعت فنجانها جانباً لتنظر إلى ساعتها، وسألتني: «هل يمكنني الذهاب الآن سأعود قبل العشاء. متى يعود أبو من إنكلترا؟».

* «سيستغرق أسبوعاً آخر. سألاقيكِ في نادي "بيدلز" وليس هنا. اتصل جان بي هاتفياً وطلب مني العزف معه. يمكننا تناول شيء ما هناك. أليس لديكِ صديق تودّين أن تحضريه معكِ؟».

التقت عيوننا وكانت عيناها مشرقتين. ربما يمكنها أن تبدأ في أن تغفر لي الآن بما أنها أصبحت قادرة على أن تكون حرة. ربما يمكن لها أن تنفض عنها غضبها. فأنا أرى أن الأسرة هي دوامة لا نهائية من الخيانة والمغفرة.

التفتتْ إليَّ عند الباب لتقول وداعاً. كان شعرها منسدلاً حول وجهها وقد اختفت تجعيدة العبوس الصغيرة بين عينيها الرماديتين. كانت ترتدي وشاحاً أزرقَ فاقعاً حول عنقها وجزمة جلدية طويلة. عادت بخفة لتحضنني مرة أخرى وقالت: «أنا سعيدة يا مور». ثم سألتني برقة: «هل لي أن أردَّ لك نقودكِ الآن؟».

كثيراً ما تساءلتُ عن المكان الذي خبَّأت فيه النقود طوال تلك الفترة، وفيما إذا كانت قد أنفقتها أم لا. لقد تعلَّمتْ فتاتي الحلوة الخائفة أن تعيش حياة سرية. قلتُ لها: «احتفظي بها معكِ يا ليلوما، فلا أحد يعرف ما ستؤول

إليه الأمور. أعرف طالبة انتقلت إلى فانكوفر. هاكِ رقم هاتفها. لا تخبري أحداً عن وجهتكِ. لمَ لا تبقين ذلك سراً لفترة من الوقت؟».

أفسد صمتها لحظتنا الاحتفالية، ولكنها قالت قبل أن تغلق الباب: «لن أُخبر أحداً يا مور».

وصلتْ ليلوما إلى النادي بينما كنتُ أعزف المجموعة الثانية، كانت بصحبة غايتان، وهو صبي تعرَّفتْ إليه في المدرسة الثانوية. كانت تتأمَّل عزفي مع جان. وبعد انتهاء المجموعة، جلستُ أنا وجان إلى طاولتهما الصغيرة ومن ثم دعوت الجميع للحضور إلى منزلنا حيث قدَّمتُ لهم الحلويات والشاي. خرج آصف من غرفة نومه وقالت ليلوما: «عليكَ أن تسمع عزف مور. إنها مذهلة يا آصف».

وقف آصف عند الباب، محدِّقاً في غايتان. زمَّ شفتيه كما اعتاد أن يفعل منذ أن كان صبياً صغيراً يحاول إتقان مهارة جديدة. ترك غايتان يد ليلوما وواجها بعضهما البعض. قال غايتان بشكل طبيعي: «آصف، هل كل شيء على ما يرام؟». تردَّد آصف في الإجابة، ومثل ذئب واثق من مكانته ضمن القطيع دخل إلى الغرفة وسحب كرسيه وقال: «إذاً أنتَ هو رجل أختي الغامض». ثم توجَّه بالحديث إلى ليلوما: «آن أوان أن تعرِّفينا إليه وتحضريه إلى منزلنا».

كاثرين

اعتادت والدتي أن تترك سيجارة مشتعلة في كل غرفة بحيث لا تضطر إلى حمل منفضتها وسيجارتها من غرفة إلى غرفة. تلك هي الحقيقة! وهذه هي الطريقة التي تعلّمت بها أن أكون فعّالة. فعندما أرغب في إنجاز أي شيء، كنتُ أترك نصفه في غرفة ونصفه الآخر في غرفة أخرى. ولذلك فقد كانت أوراق النوتات الموسيقية منتشرة في كل مكان.

كانت أمّي وشون يضحكان عليَّ وعلى تلك الفوضى.

كنا نحاول إسنادها بالوسائد ولكنها ظلّت تنزلق عليها. وأصبح من الصعب تحريكها. لا تزال أيامها الأخيرة في المنزل تطاردني مثل جرح مظلم، لا يضمحل. عندما أصبحتْ غير قادرة على الوقوف، كنا نستخدم مبولة السرير وكان هناك الكثير من الغسيل، وأصيبت بقرحة الفراش التي كان لا بدَّ من معالجتها. عندما كنتُ اضطرُّ إلى نقلها، وتغيير وضعية استلقائها، وتقليم أظافرها، كانت تصرخ في وجهي: «ابتعدي. لا تلمسيني. أنتِ تؤلمينني». كانت تصرخ صراخاً مروِّعاً وعالياً جداً. حاولتْ ضربي عدَّة مرات، أحياناً كنتُ أغيب عن ناظريها قليلاً، وعندما أعود كانت لا تزال خائفة من أن ألمسها. قالت لي مرَّة: «لماذا تفعلين هذا بي؟». كانت أظافر يديها وقدميها طويلة وكان تقليمها أمراً مؤلمة للغاية. وفي بعض الأحيان كانت تجفل من لمسة شون.

قبل يوم من دخولها إلى المستشفى، كنتُ نصف نائمة في غرفة المعيشة، وقواي خائرة من كل ذلك الجهد. وكان شون يجلس بجانبها.

- «هل تشعرين بالألم؟».

* «لا أظن ذلك».

كانت عيناه المحبَّتان تنظران إلى عينيها المجهدتين. كانت تنظر إليه من خلال حدقتيها الضيقتين وعينيها الغائمتين دون تركيز، كانت تجاهد بجد للبقاء معنا. لم يكن شون خائفاً. قبَّل شفتيها، وقال: «جيني، حبيبة قلبي، سوف نفعل ما تريدين. هناك طريقة أسهل. أنت تعلمين. هناك أناس يعرفون كيف يساعدوننا».

* «أعرف. وسيتعين عليَّ القيام بذلك».

لم تكن مستعدَّة للموت بعد.

قمتُ أنا وشون بإخراج الأسطوانات والأشرطة القديمة وبدأنا نستمع إليها الواحدة تلو الأخرى وذلك لتمضية الوقت في تلك الليلة الأخيرة في المنزل. عندما غفت قليلاً، عزفتُ له مقطوعة "رقصة الكفَّار". التي لم يكن قد سمعها من قبل.

وجدتُ صندوقاً قديماً يضمُّ أشرطة لا تحمل أي اسم، وقمتُ بتشغيل إحداها. استفاقت والدتي على صوتي عندما كنتُ طفلة أعزف تلك المقاييس الصعبة، وأنا أحاول أن أعزف "أنتِ شمسي المشرقة".

رفعت أصابعها عن البطانية، وقالت: «كنت قد نسيتُ أمر هذه الأشرطة».

وضعتُ شريطاً آخر واستمعنا إلى أصوات أطفالي. وهم يلعبون بالمسجِّل ويسجِّلون أنفسهم ويتجشَّؤون ويخترعون أصواتاً مضحكة ويضحكون، ثم سمعنا صوت والدتي وهي تشرح لهم كيف يفركون

بأصابعهم الكؤوس لجعلها تهتز وتصدر أصواتاً جميلة. استمتع الأولاد بالمرح المتولّد من التسجيل والمسح. فقد فعلوا ذلك كثيراً.

استمعنا إلى صوت أمّي وهي شابة تروي لهم قصة امرأة عجوز ابتلعت ذبابة، وصوت أحد أطفالي وهو ينضم إليها بينما تهتف: يا ويلي، يا ويلي! لقد ابتلعت العجوز ذبابة، وأعتقد بأنها سوف تموت! في الليلة التي سجّلت أمّي فيها هذا التسجيل كنتُ أرضع بيا نصف منصتة إلى ما يقولونه، وقلقة بشأن الكيفية التي سأتدبّر فيها المال اللازم لدفع إيجار المنزل. كنتُ أتّخذ القرار بضرورة عودتي إلى العمل، وأن أربّي الأطفال لوحدي، تماماً كما فعلتْ هي. كنتُ وقتها في حاجة إلى دفع عجلة الأمور إلى الأمام، وكسب لقمة العيش، والتخلّي عن تي.

ضحك شون على الأولاد، وقال: «جيني، لقد كنت حكواتية جيّدة».

تحوّلت عيناها نحو مصدر تلك الأصوات القديمة جدّاً. لا تؤثّر المواد المسكّنة في السمع بقدر ما تؤثّر في الرؤية. كنتُ أعرف أنها كانت قادرة على سماع تلك التسجيلات القادمة من ذلك الوقت الذي كنّا فيه نحن الاثنتان قادرتين على فعل أي شيء.

التسجيل هو نوع من الحزن على شيء مضى وولّى بالفعل. كنتُ أحبُّ الموسيقى الحية أكثر. كنتُ أحبُّ جهلي بما سيحدث لاحقاً. وضع شون أسطوانة سيناترا واستلقى على السرير بجانبها ولفَّ ذراعيه حولها. يبدو أنها كانت قادرة على تحمُّل لمسته. ذهبتُ لأتصل ببيا. كنتُ في حاجة إلى سماع صوتها. وكنتُ في حاجة إلى أن أكون في غرفة معيشتنا.

قالت لي: «حصلتُ اليوم على كلب».

* «نيويورك ليست مكاناً ملائماً للكلاب. ماذا يفعل طوال النهار عندما تكونين غائبة؟».

- «فكرتُ في ذلك. أحضرتُ له سترة بحيث يبدو وكأنه كلب يساعد العميان، وبهذا يمكنني أن آخذه إلى كل مكان. فأنا أقول للجميع بأنني أقوم بتدريبه. رآنا القس مودي على الطريق وقال لي إنني فتاة طيبة لأنني أقوم بمثل هذا العمل الطيب».

كنتُ أحبُّ جرأتها، ولكنني قلتُ لها: «بمجرّد أن أدير ظهري فإنك تنفِّذين ما يخطرَ على بالكِ؟».

تغيَّرت الأمور بيني وبين بيا في فترة مرض أمِّي واضطراري إلى الذهاب إلى هاميلتون. فقد أصبحتْ مستقلة. قالت لي في تلك الليلة: «ماما لقد اشتقت إليك».

* «بيا، ليس لديّ خيار حبيبتي».

- «أعلم. هل تعلمين ماذا حدث اليوم؟ هناك صبي يعجبني، وكنتُ أحاول أن أشجِّعه بشكل أو بآخر على دعوتي إلى الخروج في موعد. ذهبتْ صديقتي إليه عندما كان يتناول البيتزا وأخبرته بأنني أريد التحدُّث إليه. وأخيراً جاء إليَّ، سألتُه: هل تعرف لماذا أردتُ التحدُّث إليكَ؟ وهل تعرفين ما كان ردُّه؟ قال لي: لأنك تريدين بعض البيتزا؟».

ضحكنا كلتانا وقلتُ لها: «يبدو لي بأن طباعه تشبه طباع دكستر».

- «لمَ لا يفكر الفتية بطريقة تفكير الفتيات نفسها؟».

* «هذا أقدم سؤال طرحته البشرية يا بيا».

- «ألا تعانين من الوحدة أنتِ وجدَّتي؟».

* «إنها بخير. هناك أصدقاء حولها أيضاً».

- «وبالنسبة إليك؟ ماما، لمَ لم تتزوجي مرة أخرى؟».

* «ما زلتُ متزوجة بوالدكِ، بيا».

- «أنتِ تعرفين ما أقصد».

* «لم أحبّ أحداً غيره».

- «ولكنني لا أريد لكِ أن تكوني وحيدة».

* «بيا، لم أنظر إلى الأمور بهذه الطريقة يوماً».

- «حسناً، كيف هو الوضع هناك؟».

* «إنها حتمية الحياة، بيا الصغيرة. جدَّتكِ تحبُّكِ كثيراً. سنأخذها إلى المستشفى غداً. هل تريدين التحدُّث إليها إذا كانت مستيقظة؟».

- «لا، لا بأس. كوني قوية أرجوكِ».

* «بالطبع سأفعل. لقد تأخَّر الوقت. أحلاماً جميلة».

عندما عدتُ إليهما، بدت عينا أمِّي محبوستين وراء حجاب. كانت تنام وتستيقظ وتبحث عنا. سألتُ شون عن تبرير غيابه أمام زوجته. فقال: «عشنا معاً تحت سقف واحد ولكننا كنا منفصلين لفترة طويلة. وقد اعتادت على ذلك. احتفظنا بمدبرة المنزل نفسها منذ سنوات. وقد استمرت في العيش معنا حتّى بعد أن غادرنا الأطفال. وهي تحبُّ زوجتي أكثر مما أفعل أنا. كاثرين، لقد ارتكبتُ الكثير من الأخطاء، إلا أن استمراري في حبِّ والدتكِ لم يكن واحداً منها. استغرقنا الأمر وقتاً طويلاً للاعتراف بذلك».

كان بجانبها، يمسِّد خدَّها. استفاقت وكانت واعية وعياً غير معتاد في تلك الليلة. قالت: «أريدُ أن أرى النجوم».

نظرتُ إلى شون الذي أومأ برأسه موافقاً. أحضرنا الجوارب والنعال ولففنا ثوباً كبيراً حولها. كانت قد أصبحت كتلة من العظام الآن، وكان من الغريب رؤيتها وهي تتحرَّك. قمنا بسندها ونحن نصعد الدرج من القبو، درجة واحدة في كل مرَّة، ومن ثم نتوقَّف لتستريح قليلاً قبل أن

تتابع الصعود. حُشرنا ثلاثتنا في الدهليز الصغير أعلى الدرج، ومن ثم أصبحنا أخيراً في الهواء الطلق. رفعت وجهها الصغير نحو النجوم، وقالت: «الهواء نقي».

أخذناها إلى الحديقة بعيداً عن أضواء الشارع لرؤية النجوم أوضح، وشاهدنا وهج مصانع الصلب على الخليج. قالت: «حسناً، وداعاً أيُّها القمر، وداعاً أيَّتها النجوم».

وفي طريق العودة حاولت أن تحافظ على تماسكها. ولكي نتدبَّر نزول الدرج، أمسكتُ بيدي شون وصنعنا لها أرجوحة من ساعدينا لتجلس عليها. كانت تتألَّم ونحن نعيدها إلى السرير، حملها شون ورأسها مسنود على كتفه. أحضرتُ لهم صينية عليها بعض الشاي ومكعَّبات الثلج. رتَّب شون بطانياتها، وأمسكت هي بيده. قلتُ لهما: «سوف أذهب لزيارة نان. أراكما في الصباح يا عصفوري الحب الجميلين».

أردتُ لهما أن يقضيا ليلتهما الأخيرة في الشقَّة لوحدهما، وعلى الرغم من أنها كانت مريضة جدًّا، إلا أن أياً منهما لم يعترض على اقتراحي.

مهسا

بدأ كل شيء مع صوت قرع الباب. كان منزلنا دائماً فارغاً في الصباح. فتحتُ الباب، وكان رجل ضخم يقف أمامي. عرفتُ رائحته، وعرفتُ عينيه. كنت أعرف كل شيء عنه. ذهلتُ لرؤيته هناك، كما لو أنني أشاهد رجلاً يحترق بالنيران، ولكنه لا يتحوَّل إلى رماد. كانت عيناه تلمعان وتنبضان بالحياة.

هذا هو الحب إذاً، ارتقاء الدم إلى رأسك، وإحساسك به يخترق عروقك، هذا هو الحب إذاً. إنه الألم والغناء والموسيقى، إنه الخفقان الغريب. كنتُ في رأسي طوال الوقت، وأشعر الآن بهذا الألم المحبَّب، وهذا الوجد العذب، وهاد قد رجعتَ إليَّ مرة أخرى. هذا هو الحب إذاً، اشتعال النبض في رأسي، هذا هو الحب.

- «مرحباً، مهسا».

* «كمال؟».

- «مدَّ يده نحوي ولكنني تراجعتُ إلى الوراء، وفعل ذلك مثلي أيضاً».

* «ما الذي تفعله هنا؟».

عشرون سنة مرَّت؟ ولا تزال عيناه نفسهما، لم يتغيَّر فيهما أي تفصيل.

- «أنا أعيش هنا».

* «هنا؟!».

- «هل يمكنني الدخول؟».

* «كيف تمكنتَ من العثور عليَّ؟».

- «عن طريق مدير قسم الموسيقى في جامعة "ماكجيل"».

* «هل رأيت جان؟».

- «أيمكننا أن نتحدَّث؟».

عبر كمال عتبة الباب ودخل إلى المكان الذي عشتُ فيه مع علي وآصف وليلوما. بدا لي جسده غريباً داخل هذه الجدران. كان ينظر بفضول كبير وخاصَّة وهو يتأمَّلني. جلس على الأريكة وأنا على كرسي قبالته. عرضتُ عليه تناول الشاي ونهضتُ لأعدَّه لكنه قال: «مهسا، انتظري. لا تذهبي».

* «أنا ذاهبة إلى المطبخ ليس إلا».

ضحكنا، وجلستُ قبالته مرة أخرى. بدأنا نروي ببطء كل قصصنا، كما لو كنا نقوم بما هو واجب علينا. تحدَّثنا عن الأشخاص والأماكن والأحداث التي واجهناها دون الخوض في الأسباب الكامنة وراءها. كان جزءاً من حرب البنغال، والعمل الكارثي الذي نجم عنه موت ثلاثة ملايين شخص، وفرار عشرة ملايين إلى الهند، وتعرُّض نصف مليون امرأة للاغتصاب.

قال: «لقد وقفتُ إلى جانب إله فاسد».

* «لم تكتب لي أبداً حول هذا الموضوع».

- «بعد الحرب، ذهبتُ إلى إسلام أباد، وعملتُ في الخدمة المدنية. تزوَّجتُ وعملتُ في أفغانستان في مجال التعليم لفترة من الوقت. وبعد طلاقي، انتقلتُ إلى أستراليا. ماذا عنكِ؟ ماذا كنتِ تفعلين على مدى السنوات العشرين الماضية؟».

سأل هذا السؤال بخفَّة، وهو يرفع كتفيه بطريقة جعلتني أضحك. كان يمكن لنا أن نكون مثل اثنين من الأصدقاء القدامى الذين يتحرَّيان أخبار بعضهما البعض. كنتُ حافية القدمين، وأرتدي بنطال جينز وبروتيلاً قصيراً مع أشرطة رقيقة، وذراعاي عاريتان. كان ذلك في شهر آب الرطب ولكنني لم أكن أشغِّل تكييف الهواء حتى عودة علي إلى المنزل لأنني أحبُّ الاستمتاع بالحرارة. تركتُ الستائر مسدلة، وكان الضوء يلقي بظله بشكل مريح داخل البيت. فات الأوان لتغيير ملابسي، وشعرتُ بأنني أجلس عارية تقريباً قبالته دون أي شيء يغطي كتفيَّ، وشعري متهدل على وجهي. جلس كمال، متباعد الساقين منحنياً إلى الأمام، ومرفقاه على ركبتيه. كان لا يزال جسده مشدوداً وقوياً. عيناه مألوفتان جدّاً، وهو ينظر إلى السجَّاد الباكستاني المعلَّق على الجدران ومصابيح السيراميك الجميلة، وصور الأطفال وعلي، ولوحة فرنسية-كندية لمشهد الثلوج. وعلى الرغم من أن الوقت كان صباحاً، إلا أنني شعرتُ كما لو أننا كنا مختبئين. ولم يفارقني هذا الشعور مع أنني لم أكن أرتكب أي خطأ على الإطلاق، كل ما فعلته هو الحديث مع صديق قديم من كراتشي. لم أستطع أن أُبعد عينيَّ عنه. كانت زوايا شفتيه تبدو عميقة عندما يبتسم. وما زال شعره كثيفاً، ولكنه أقصر. كان يرتدي بنطالاً عادياً ومريحاً بلون خاكي، وقميصاً بأكمام قصيرة يبدو غير باهظ الثمن. قال: «مهسا، لا تزالين جميلة جداً».

أشحتُ بنظري عنه. غيَّر الموضوع بالحديث عن أعمار ولديه التوأم اللذين كانا في عمر آصف. كنا نفكِّر في الأمور التي حدثت في حياة الآخر ومتى حدثت. لا بدَّ من أننا تزوَّجنا في الوقت نفسه تقريباً، ولكننا لم نكن مستعدَّين بعد للحديث عن هذا.

قال: «ولداي ليسا باكستانيين تقليديين. فقد عاشا كثيراً في الخارج

بعيداً عن باكستان، وهما كسولان ويحبّان ركوب الأمواج وموسيقى الروك».

كان يتظاهر بأنه حزين، ولكن كنتُ أسمع حبَّه المقنَّع لهما، وكنت مسحورة بالكيفية التي يعبِّر فيها عن عواطفه علناً، كما لو أنهما كانا في الغرفة وكان هو يغيظهما. لفَّني دفئه مثل رياح موسمية.

قال: «تركتني زوجتي لتكون مع شخص آخر عندما كان الولدان في الثالثة عشرة من عمرهما». لاحظتُ كم بدت بشرته شابة وكيف يتحرَّك بسلاسة وبقوة، وأضاف: «كانت القصَّة سيِّئة جدّاً، وكان من الواضح أننا غير ملائمين لبعضنا البعض. عندما غادرتْ، قررتُ أن أبدأ بداية جديدة بعيداً عن العنف المحتقن. أخذتُ الأولاد إلى أستراليا لأنني حصلتُ على عرض عمل جيِّد هناك، وكان في وسعهما الدراسة وفق النمط الغربي، ولقد عشقا ركوب الأمواج. إنهما يذهبان لزيارة أمِّهما خلال عطلة الأعياد في بيتها في لاهور. كما أنهما يدرسان في جامعة "سيدني" ويعزفان في فرقة تسمى "بيبوب راجا". وهما لا يحتجان إليَّ في شيء سوى المال».

كنتُ قد نسيتُ كيف يكون الشعور عندما يريد رجل لفت انتباه امرأة. كنت أعرف فرقة البوب روك الأسترالية الهندية التي يعزف فيها أبناؤه.

قلتُ: «ابنتي ليلوما تحب موسيقاهم».

* «أوه، أنا مسرور لأنكِ سمعتِ بهم، لديهم أغنية جميلة عنوانها "بروكن إنيرجي كونداليني" تجمع بين أنماط متناقضة، وتضم آلات الديد جيريدو[1] والطبلة والرباب[2]».

---

1 - آلة موسيقية نفخية ابتكرها السكان الأصليون في أستراليا على شكل أنبوب خشبي طويل.

2 - آلة موسيقية تقليدية من أفغانستان شبيهة بالعود.

توقفنا عن الحديث. فأن نتحدَّث عن أطفالنا يعني أن نتحدَّث عن حبِّنا لهم وأن نشعر بالحزن المفاجئ.

حتى هذا الموضوع حيَّدناه عن نقاشنا الذي يهدف إلى إشباع فضولنا عن بعضنا البعض. أردنا لمس بعضنا البعض، ولم نكن نعرف ما يجب القيام به الآن.

أومئ كمال إلى البيانو. «هل يمكنكِ لكِ أن تعزفي لي؟».

دائماً كان يعرف كيف يهدِّئني. بدا من الطبيعي جدَّاً أن أتوجَّه إلى البيانو وأعزف له. كنت أفكِّر في ما سأعزفه، قررتُ أن أعزف أغنية "مع مرور الوقت"، ولكنني عدلتُ عن رأيي وعزفتُ إحدى القطع الموسيقية المعقَّدة والصعبة التي ألَّفتها كاثرين. بدا الصوت في الغرفة مختلفاً. لم تكن هناك أية مقاومة، فقط صمت منصت. سمحتُ لنفسي بالاستغراق في الموسيقى وعزفتُ بكليَّتي وبكامل انفعالاتي وشجوني، حتى وصلتُ إلى النوتات الأخيرة التي كادت أن تكون غير مسموعة تقريباً لرقَّتها.

قال: «مهسا، أنتِ تعزفين بطريقة مذهلة».

سألته مرَّة أخرى إذا كان يريد احتساء بعض الشاي ووافق هذه المرَّة، وبهذه الطريقة يمكنني أن أذهب إلى المطبخ في حين يتأمَّل هو تفاصيل غرفة المعيشة، قال لي من هناك: «أين التقطتْ هذه الصورة؟ لا بدَّ من أنكِ تستطيعين رؤية الصليب من هذه النافذة في الليل، أليس كذلك؟ هل عدتِ يوماً إلى كراتشي؟». كنا نتحدَّث ونصمت ونعاود الحديث، مثل أناس عاديين، لكنَّ مشاعرنا لم تهدأ. كنتُ أبحث عن شيء سلبي حتى أستطيع أن أقول لنفسي: «أوه، حسناً، لقد كنتِ أفضل حالاً بدونه». لكنني كنتُ أدركُ أنني لم أكنْ أفضل حالاً بدونه. قدَّمنا أنفسنا كما لو أننا قد اخترنا مسارات حياتنا. وقفتُ عند باب المطبخ مستندة عليه في انتظار أن

يغلي إبريق الشاي، سألني عن أعمال علي وكيف قضيتُ أيامي، وشعرتُ بالخجل لذلك قلتُ له: «حسناً، كنتُ أقدِّم العروض في نيويورك، ولكنني فضَّلتُ البقاء في المنزل من أجل الطفلين. وكان ذلك جيِّداً جدّاً. كما أنني أدرِّس قليلاً. ولديَّ الكثير من الوقت للتمرُّن. ماذا عنكَ؟».

* «من الواضح أنكِ تتمرَّنين كثيراً، فهذا جليٌّ في عزفكِ. لن أحدِّثك عمَّا أقوم به، فلا أريد أن أسبِّب لكِ الملل. لا أزال أعمل في مجال التعليم، وساعدتُ في إنشاء بعض المدارس في باكستان. والعمل جيِّد بما فيه الكفاية».

- «إلى متى ستبقى في مونتريال؟».

* «أنا أعيش هنا».

لفَّنا الصمت مطولاً قبل أن أقول: «ستأتي إحدى طالباتي قريباً».

بالطبع، ذلك لم يكن حقيقياً، كما أنني لم أكن قد أحضرتُ له الشاي بعد. وقف وقال: «علينا أن نلتقي مرَّة أخرى».

عندها فهمتُ الطريقة التي كان قد تغيّر فيها. فالرجل الذي عرفته شاباً قد كبر واختبر المعاناة وأصبح ناضجاً واثقاً من نفسه. لم يكن مثل ذلك النوع من الرجال الذي يمكن أن يعترف بوحدته، ولكنني شعرتُ بها. لم نحاول الخوض في أي شيء يتعلَّق بماضينا المشترك، وكيف لم أقاوم قرار العمِّ بإرسالي بعيداً، وكيف توقَّفتُ عن الكتابة له، والطريقة التي أحببنا فيها بعضنا. كان من المستحيل أن نتحدَّث عن كلِّ هذا الآن. وفكَّرتُ في أننا لم نكفّ يوماً عن كوننا معاً.

على الرغم من أنه قد غادر وأغلقتُ الباب وراءه، إلا أن حضوره قد أصبح الآن محفوراً في هواء بيتي.

راقبته، من نافذة بيتي المطلَّة على الشارع، وهو يغادر. كانت الغيوم تؤلِّف أشكالاً ساحرة في مشهد السماء، وكنتُ أشعر وكأن شوارع مونتريال قد أصبحت تنبض بحياة تذكِّرني بوطني، وذكرياتي الجميلة. التفتَ كمال جمال لينظر إليَّ ورفع يده عندما رآني أراقبه، ولوَّحتُ له. كانت عيناه جميلتين جدَّاً. الحواس لا تكذب. والجسد لا يكذب.

كاثرين

فتحت والدتي عينيها، وغنَّيتُ لها مقطعاً من أغنية "كل شيء فيَّ". كانت تفضِّل نسخة سيناترا من الأغنية، وليس نسخة بيلي أو نسختي منها. وقالت: «أنا أحب سماع صوت رجل وهو يغني هذه الكلمات».

* «أنا الرجل الوحيد في هذه الغرفة إلى أن يأتي شون، وهو لا يجيد الغناء».

قالت بصوتها الخشن المتأثِّر بالمسكنات: «أنتِ تقتلينني».

ثمَّ غنَّيتُ لها الأغنية التالية:

إنه ينفض الرماد عن موقدي،
ويصبُّ الزيت في مقلاتي،
ويُعدُّ لي الزبدة،
ويعزف على كماني
إنه رجلي، يا له من رجل مفيد!

قالت لي: «إنها أغنية اعتادت أن تغنِّيها أمي. كيف تعرفين هذه الأغنية؟».

* «أنا أعرف جميع أغنياتكِ».

وضعتُ يدي على أصابعها الباردة إلى أن غفت. كانت تستيقظ وتعاود

النوم. ذكَّرتني مشاهدتها وهي تموت بالسنوات التي قضيتها مع الأطفال، عندما كنتُ أحصي الوقت باللحظات وليس بالأيام أو الليالي. أحضرتُ لها بعض رقائق الثلج، وكنتُ أبلِّل شفتيها، وأرفعها على وسادتها. كان عليَّ الحصول على عمل بدوام جزئي. فقد تسبَّبت تلك السنة في استنزاف كل أموالي. وأصبحتُ مفلسة.

دخل شون وسألني: «هل تريدين الخروج؟ عائلتك هنا».

* «ماذا؟».

- «إنهم في الشقة».

تخيَّلتُ تي وهو ينزل إلى قبونا الصغير، وينحشر عبر المدخل المنخفض. كنتُ أتساءل إن كان الأولاد قد اصطحبوه في جولة في الحي، وإن كانوا قد عرَّفوه إلى نان. ولأوَّل مرَّة، طوال تلك الأشهر الطويلة من الانتظار، شرعتُ في البكاء.

لماذا بحقِّ الجحيم لم يخبرني بقدومه؟ فهو لا يساعدني بحضوره إلى هنا. كما أنه يقوم بكلِّ شيء وفق طريقته الخاصة. لكنني كنتُ سعيدة بوجودهم معي. اللعنة عليه.

حضروا إلى المستشفى وانتظروا معي في الردهة وفي المطبخ، مع أشخاص آخرين ينتظرون موت من يحبُّون. كنا نتحدَّث في الغالب كما لو أن الموت ليس حقيقياً، فماذا عسانا أن نفعل غير ذلك؟

قال تي: «سآخذ جيمي في جولة مع فرقتي الجديدة».

* «حالما أغيب تظنّ أن في إمكانك إثبات وجودكَ والبدء باتخاذ القرارات».

- «حبيبتي، جيمي يريد أن يأتي. إنه عازف جيِّد. ومن ثمَّ، أنتِ بنفسكِ طلبتِ مني المساعدة».

* «أمِّي تُحتضر. وعلى أي حال قمتُ أنا بكلِّ العمل الشاق مع جيمي، وها قد أصبح الآن شاباً طيِّباً. وتأتي أنتَ لتأخذه في جولة. تي، عليكَ أن تبعده عن عالمكَ المليء بالمخدِّرات والأخطاء».

ضحك وقال بصوتٍ أكثر هدوءاً: «كاتي، لقد أقلعتُ عن المخدِّرات، وأصبحتُ نظيفاً منها الآن. وهو محظوظ بالعزف مع هذه الفرقة. لا تقلقي، حبيبتي، فسوف أعتني به. إنه جزء مني، كما تعلمين».

* «وهذا ما أخشاه يا تي».

استشعرتُ الصدق في صوته وسمحتُ له بأن يلفَّ ذراعيه حولي. شعرتُ بشعور جيِّد، ولطالما كنت أشعر بأنني بخير في حضنه. كان يحاول أن يعتني بنا، ولو بعد فوات الأوان. وسمحتُ لجسدي بأن يملي عليَّ ما أقوم به، أن أحتضنه وأتمرَّغ في حرارة جسده وأستريح بعد أشهر من الحزن، والسعي لتسيير أمور الأولاد وتدبُّر مشاكل الحياة. بعد كلِّ تلك السنوات من إبقاء الجميع قريبين مني، أصبحتُ مضطرة الآن إلى تركهم جميعاً يمضون في حال سبيلهم. لم يعد في وسعي رعايتهم بعد الآن. وهم لم يطلبوا مني ذلك.

ذهبتُ إلى مكتب الدفن وقمتُ بإعداد الترتيبات. اضطررتُ إلى اقتراض المال من شون لدفع ثمن كل شيء، وقال: «أريد أن أفعل هذا، لا داعي للقلق».

وفي اليوم التالي، دخلتْ أمِّي في غيبوبة واستفاقت منها كانت هناك قوَّة مرعبة في قبضتها وهي تُحتضر. أمسكت يدي بقوَّة وكانت أصابعها تحفر في عظامي وتؤلمني. كانت تمسك بي بعزم رهيب كما لو أنها تتدلَّى من قمَّة هاوية. لم أخبرها بأنني كنتُ أتألَّم، ولم أتحمَّل أن أحاول إفلات يدي من قبضة يدها. كان تي في الردهة، حيث يمكنني رؤيته، وكان شون

يمسِّد جبينها ويمسح شفتيها بإسفنجة فيها ماء بارد. كانت تنام وتستيقظ. وعندما فتحت عينيها، اقتربتُ منها لأسمع همسها الخشن وهي تقول: «مينغ، هناك أشياء ترفرف فوق جبيني. أبعديهم عني مينغ، أرجوكِ».

مهسا

- «متى يمكنني رؤيتكِ؟».

* «دعنا نكتفِ بالحديث على الهاتف. من الصعب عليَّ الخروج من المنزل».

من الممكن أن أخسر ليلوما إذا قمتُ بذلك.

- «بعد الحرب، كنتُ أريد أن أعيش، وأن أدرِّس. لقد خسر وطننا الكثير. نصف شعبنا من الأميين. هل تتخيَّلين عدم قدرتكِ على القراءة؟».

تأمَّلتُ جمال الضوء وهو يدخل نافذتي. وفي حين كان يصف ولديه وهما طفلين، كنتُ أتخيَّل شجاعة المرأة التي تلد توأماً، لكنه لم يقل شيئاً عن زوجته. راقبتُ ضوء الشتاء الرقيق في فترة ما بعد الظهر وهو يتخلَّل الأغصان العارية ويتسلَّل عبر الزجاج.

تغيَّرت الفصول مرة أخرى. وقال صوت كمال على الهاتف: «كنتُ أعمل مع رجل فقد عينيه في الحرب».

استمعتُ إلى حديثه، واستمتعتُ بمشاهدة ضوء الصيف الحاد والمشرق، ثم أنزلتُ الستائر لدرء الحرارة. قال لي من بعد ظهر يوم خريفي: «تزوَّجتُ في إسلام أباد بعد أن قام والدي بترتيب كل شيء».

كانت أضواء الشوارع تصنع هالات من الضوء حول الأوراق الميتة

الجافة على الرصيف. حدّثته عن كاثرين. وأخبرني عن عمله وتربية ولديه بعيداً عن الوطن. وفي غسق أحد الأيام، والعتم يلفُّ غرفتي، قال: «لم أكفّ عن التفكير فيكِ».

أصبحتُ أكثر إدراكاً لمجريات حياته، وكيف فشل في تحقيق أفكاره وأحلامه في مدننا الغارقة بالرصاص والقنابل. سألته عمَّا إذا كان لزوجته أي خيار عندما قرَّر أخذ ابنيه إلى أستراليا.

قال: «كانت مع شخص آخر. كما أن الولدين يقضيان كل عطلاتهما معها». وبذلك لم يُجب على سؤالي.

سألته: «هل تذكر آخر مرَّة كنا فيها معاً في كراتشي؟ قلتَ لي إننا لن نعيش مثل هذا الحبِّ مرَّة أخرى أبداً».

* «لا أذكر أنني قلتُ ذلك. يبدو أنني كنتُ أكثر ذكاءً ممَّا أعتقد».

ضحكتُ قائلة: «يبدو أنني أتحدث مع شخص متواضع جداً هنا».

تكمن غرابة قصَّتي مع كمال في أننا عندما كنا شباباً لم نقل يوماً وداعاً، ولم نضع خطَّةً للمستقبل. الآن فهمنا كل شيء عن بعضنا البعض. كانت هناك بعض الأمور التي لم نكن قادرين على الحديث عنها، ولكننا لم نكن نافدي الصبر أو عجولين، فلم نعد في سنِّ الشباب وقد تجاوزنا اندفاعه وتهوُّره. لم يكن يُفترض بمونتريال أن تؤلِّف كامل حياتي، وإنما فصلاً قصيراً منها. لم ننسَ أي شيء، كما لم نتذكَّر أي شيء بجلاء تام.

قال: «بعد الحرب، ذهبتُ إلى منزلك. كان عمُّك غاضباً وأخبرني بأنكِ ستتزوَّجين. فقدتُ أي أمل لي معكِ. حاولتُ أن أحمل نفسي على التوقُّف عن التفكير فيكِ. اعتدتُ ألا أتعلق بشيء وخاصَّة عندما لا يكون هناك أي أمل في نجاحه».

كان يقول لي ما يتذكَّره. وكنتُ أحتفظ برسائله التي لم يتوقَّف فيها عن التصريح بحبِّه لي طوال الحرب في بنغلاديش وبعدها أيضاً.

قال لي: «أنا أبني مدرسة في إقليم السند. وأحاول جمع التبرُّعات لتحقيق ذلك والتعاقد مع معلِّمين. ربَّما يوماً ما، سيعلِّم أولادي الموسيقى هناك، أما الآن فلديهم حياتهم الخاصَّة».

توقَّف هنيهة وأضاف: «أعتقد بأنني أحدِّثكِ بأكثر ممَّا تريدين معرفته».

* «أريد أن أعرف كل شيء عنكَ».

كنتُ أشعر في بعض الأحيان بتعطُّشه لمشاركتي كل أفكاره، كما لو أنه قد أمضى حياته كلها وحيداً محتفظاً بأفكاره لنفسه. سألته عن السبب وراء كونه مهتمَّاً جدَّاً في الحديث حول ما حدث لنا، وأجاب: «كنتِ الشخص الآخر الوحيد الموجود هناك معي».

توجد منطقة صناعية بالقرب من النهر حيث تجرَّأتُ، في بعض الأحيان، على السير مع كمال قرب أناس يأكلون ويشربون ويدخِّنون مواداً تخدِّرهم. شاركناهم صحبتهم الرقيقة في ذلك المكان حيث يتدفَّق النهر إلى البحر. أحياناً، كان شخص ما يومئ إلى كمال لسؤاله عمَّا إذا كان يريد تدخين سيجارة، أو يقوم آخرون بتحيَّتنا برفع كؤوسهم، ولكن أحداً لم يتحدَّث معنا قط. أراد الناس هناك أن يكونوا غير مرئيين وأفسحوا لنا مجالاً لنكون معهم. لم يكن أي منا يملك الجرأة على لمس الآخر. قلتُ له إنني أحببتُ ما كنا نقوم به.

- «تقصدين تبادل الأحاديث؟ كنا نتحدَّث كثيراً، حتى في شبابنا».

سألته إذا كان يعتقد بأنني كنتُ خجولة في الماضي، نظراً لأن علاقتنا لم تدم سوى لفترة قصيرة نسبياً، عدة سنوات فقط.

- «لا أعتقد بأنكِ كنتِ خجولة. وهل من السيئ أننا لم نكن معاً سوى لفترة قصيرة؟».

* «لا. يمكن للحياة بأسرها أن تتغيَّر في لحظة واحدة».

- «تبادل الأحاديث هو ليس كل ما أريد القيام به معكِ. علينا أن نفعل شيئاً حيال ممارسة الحب. فقد فعلنا ذلك فيما مضى، كما تعرفين».

أذهلني بجرأتِه، أعجبتني ولكنني قاومتها أيضاً. فوالدتُه لم تُقتل بسبب الحب، كما لم يكن مُجبراً على الزواج. شعرتُ بإلحاحه واستعجاله المستتر، وملأ ذلك قلبي بالسرور. في فترة الشباب، كنتُ أشعر بأنه يشتهيني ويريد امتلاكي، وامتلاك كل شيء في ذلك الوقت. وأنا كنتُ أريد ذلك أيضاً. لم يتوقَّف عن حبِّه لي، ولم يكن خائفاً من مصارحتي بذلك بعد كل هذه السنوات.

قال: «عندما أخبرني عمُّكِ بأنكِ ستتزوَّجين، اعتقدتُ بأنكِ كنتِ خائفة من إعلامي بذلك في رسائلك. فاستسلمتُ وقرَّرتُ الزواج أيضاً».

قلتُ له إنهم ضلَّلوني للسفر لزيارتهم واحتجزوا جواز سفري وأجبروني على الزواج. سألته: «متى كان تاريخ زواجكَ؟».

* «التاسع عشر من آب، عام 1972».

بدأتُ أضحك وابتسم هو أيضاً، وقال: «ما المضحك في ذلك؟».

- «لقد تزوَّجنا في اليوم نفسه».

احتضنني بذراعه، ولمستُ يده للمرَّة الأولى بعد كل تلك السنوات، وشعرتُ بذهول الإحساس بجسده مرَّة أخرى. ذلك الجسد المألوف والطبيعي بالنسبة إليَّ؛ جسد أوَّل رجل ألمسه في حياتي.

قال برقة: «عندما سمعتُ التسجيل الذي قمتِ به عندما كنتِ طالبة،

شعرتُ بأنني أستمع إلى معزوفات لن يشعر بها أحد غيري. كنتُ أشعر بأنكِ في الحقيقة تعزفين لي وحدي. هل كان حدسي في محله؟».

- «لا يمكنني أن أخاطر بحدوث أي شيء لليلوما».

مشينا متجاوزين ثلاثة رجال يجلسون في دائرة ويمرِّرون لبعضهم البعض زجاجة ملفوفة بكيس من الورق البنِّي. رفع أحدهم يده محيياً كمال الذي أومأ له كردٍّ للتحية.

قال كمال: «أنا لا أطلب منكِ المخاطرة بأي شيء».

- «هل يبدو هذا صحيحاً؟».

* «أن نريد ممارسة الحب؟».

- «أن نقوم بما نقوم به».

* «ربما».

- «لقد مرَّ وقت طويل منذ أن عثرت عليَّ مجدداً والتقينا مرة أخرى. مرَّت سنوات، أليس كذلك؟ مرَّ كل ذلك الوقت ونحن نتبادل الأحاديث».

تحركّت بعيداً عنه قليلاً، وأنزل ذراعه عن كتفي وواصلنا السير جنباً إلى جنب، كانت أكتافنا تتلامس أحياناً، ولكننا بقينا بعيدين في الغالب.

قال كمال: «هناك مقولة أفغانية أفكِّر فيها الآن، حيث يقول الله: اسعَ يا عبدي، وأنا أعينكَ».

- «كما يقولون: السماء مظلمة ولكنها تنضح مع ذلك بماء صافية».

كنتُ قد نسيتُ تقريباً كيف تكون المشاعر. كثيراً ما كنتُ مشوَّشة من رائحته التي تطغى على حواسي، والنور في عينيه. كنتُ أطلب منه دائماً أن يعيد ما يقوله، فلطالما فقدتُ تركيزي معه وأنا منشغلة بكل تلك الأحاسيس. كانت كلماتنا تتقاطع، وكنا نعيش حالة من الانتظار، والحرمان من إشباع طوقنا للمس الآخر.

- «هل عُدتَ إلى أفغانستان؟».

* «أجل، عدتُ».

- «ماذا حدث؟».

* «كنتُ أعمل هناك، كما ذهبتُ للبحث عن والدي. كان قد ترك المدينة والحياة الأكاديمية للقتال. عثرتُ عليه في إحدى الجبال. كان يجلس على سجَّادة بالية بلون أحمر وأزرق وأخضر. وكانت لحيته طويلة ويبدو نحيفاً ولكنه قوي البنية. كان وجهه قد احترق. وقبل أن أتمكَّن من رؤيته في ظلام الكهف، سمعتُ صوته يقول: بني لقد تحمَّلتَ رحلة صعبة. أصيب بالعمى إثر انفجار لغم مخبّأ في ترمس ولكنه عرفني من رائحتي. كان بطبيعته معلِّماً وليس مقاتلاً. حصل كل ذلك بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وقيام حركة طالبان، حيث انضم إلى رجال لا يعرفون شيئاً سوى الحرب».

- «هذه هي طبيعة البشر. يصرُّون على فعل شيء. حتى ولو كان خاطئاً».

* «اضطر والدي إلى التخلِّي عن آلة الرباب خاصته. فقد كانت كل الموسيقى محرَّمة، وقاموا بتحطيم جميع الآلات الموسيقية وحرقها في الملعب الكبير. لكن والدي دفن آلته، حيث قام بلفِّها وإخفائها تحت الأرض. قال لي: لا يطير الطير إلا بالقدر الذي توصله إليه جناحاه. هناك احتمالات كثيرة وأشياء كثيرة للقيام بها في الحياة. بالنسبة إليَّ، لا بدَّ لي من البقاء هنا. اذهب وقم بالتدريس. قلت له: لقد حصلتُ على أجنحتي منكَ. وبهذا تركته هناك. مشيتُ خارجاً من الجبال وعبرتُ الحدود، وكنت أعرف بأنني لن أراه مجدَّداً، وهذا ما حدث. وأنتِ، هل عدتِ إلى هناك؟».

- «لا، كنتُ دائماً أخشى ممَّا يمكن لأقربائي أن يفعلوه. الدم لا يجرُّ

سوى الدم. ولكنني التقيتُ برجل من هلمند في كراتشي. كان قد خسر ساقيه في الحرب، واعتاد أن يجلس خارج متجر قرب مدرستي. كان يقول للمارة: هل أرسل أحدكم في طلب ساقيَّ؟ أنا في انتظار ساقي. هذا هو كل ما أحتاجه لكي أعود وأكون راعياً مرَّة أخرى».

* «نحن، الأفغانيين، لا نكفُّ عن الشعور بالأمل. سافرتُ عبر الجبال، مسترشداً بصبي صغير لديه بشرة رجل عجوز، وكان يرتدي معطفاً رثّاً فوق طبقات من الكنزات الصوفية. مشيتُ خلفه، كنتُ أرى الوادي والمساحة الفارغة من السماء. وفي الأسفل، كانت امرأة تقف عند مدخل كهف لوحدها، وهي ملفوفة من رأسها إلى أخمص قدميها في برقع أحمر. كانت اللون الوحيد ضمن طيف الجبل الرمادي».

- «لم أفكّر في هذه الأمور منذ سنوات عديدة. أشعر معكَ وكأنني في وطني. رأيتُ في كراتشي فتيات الباشتو الصغيرات اللواتي لا يزلن يرتدين التنانير القصيرة في الأسواق، ويقلِّدن أمهاتهن في السير مرفوعات الرأس باعتزاز. تبدو هؤلاء الفتيات مرتبكات، وهن يحاولن تقليد البالغين. كنت أرى الفتيات الصغيرات وهن يفعلن كل ما تفعله النساء، يحملن الأطفال وأكياس التسوق، وسرعان ما ستفعلن هذه الأشياء وهن مغطيات بالحجاب أو البرقع. وسوف يأكلن البوظة من تحت برقعهن. هذه هي الصور التي أحملها عن أهل والدتي على الرغم من أنني لم أذهب إلى هناك أبداً».

* «لم نتحدَّث يوماً عن والديكِ عندما كنا شباباً. لماذا؟».

- «هناك العديد من الأشياء التي لم نتحدَّث عنها. لم يكن في وسعنا القيام بذلك».

* «لماذا؟».

- «كنت أشعر بالحرج والخجل منها».

* «وأنا كنتُ نافد الصبر حيال ما لم أستطع تغييره. فالصبر ليس من الخصال التي يتمتَّع بها الشباب. أستطيع الآن أن أعترف بأخطائي. ولكنني عندما كنتُ شاباً، لم يكن في مقدوري أن أُظهر أي ضعف. حدِّثيني عن والديكِ».

حدَّثته عن رقصهما وأفلام أبو. وكيف اصطحبني أبو للاستماع إلى ديزي غيليسبي وهو يعزف في سينما "بالاس" عندما كنتُ في السادسة من عمري، وبأننا استمعنا إلى جاك تيغاردن، وأرتي شو في "ريكس سينما هول". أخبرته عن اليوم الذي استُدعيتُ فيه من صفِّي في المدرسة لإعلامي بأن مور وأبو قد قُتلا.

كانت مور الابنة المفضَّلة لدى والدها، الابنة الوحيدة لزوجته الثالثة، أصغر زوجاته وأجملهن، والتي لم تكن تعرف القراءة أو الكتابة. كان والدها منبهراً بالأمريكيين الذين التقى بهم في وادي هلمند، وقد ضحَّى بكل شيء من أجل أن تتعلَّم مور اللغة الإنكليزية وتتقنها، لكنه لم يتخيَّل أبداً بأنها قد تهرب مع واحد منهم. لا بدَّ من أنها كانت جسورة لا تعرف الخوف عندما أقدمت على ترك جميع من عرفت لتكون مع أمريكي غريب. عندما اكتشف إخوتها غير الأشقَّاء من هلمند أن أبو ومور لم يذهبا إلى أمريكا وإنما ما زالا في كراتشي، قالوا بلغة الباشتو: اقتلوهم لخطيئتهم.

بعد سرد كلّ هذه التفاصيل، قلتُ لكمال: «هنا، في مونتريال، بدت هذه القصَّة وكأنها من عالم آخر. وكما أن ظلَّ الشمس يتحرَّك، فليس هناك ما يدوم على الأرض».

* «مهسا اغفري لي. كان ينبغي لي أن أسألكِ عنهما أكثر في الماضي. لكنني لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك عندما كنتُ شاباً».

- «ليس هناك ذنب لأغفره لكَ. في ذلك الوقت، لم أكن قادرة على الحديث عنهما وعن كلِّ تلك التفاصيل. فقد كنتُ متعلِّقة بهما وأحببتهما كثيراً. كما أن أياً من ليلوما وآصف لا يعرفان شيئاً عن طريقة موتهما. وأنا لا أريد أن تكون هذه قصَّة حياتهما أيضاً».

* «ربَّما ستروين لهما يوماً ما حقيقة ما حدث بالفعل».

سألني عندها أسئلة كثيرة، عن مسقط رأس والدي، وكيف هربا. ومن ثم سألته: «هل تذكر أنني عزفت لك أغنية "مدينة كانساس"؟».

* «بالطبع أذكر، وأذكر كل موسيقاكِ أيضاً. لقد أُريقت الكثير من الدماء. إلا أن والديك هما العاشقان الأسطوريان لمدينة كراتشي».

- «هل أنا وأنتَ عاشقان أسطوريان؟».

* «بالتأكيد، إلا أننا لم نبقَ معاً».

- «عندما أخبرتكَ بأنني سأغادر، غضبتَ جدّاً».

* «لا أذكر ذلك».

- «هل وجدنا الحب مرَّة أخرى؟».

كانت أسئلتنا وسيلة لنتقرَّب فيها من بعضنا. كما أن الحبَّ يزدهر ضمن سياق الحرِّية والصراحة الكاملة. عندما كنا شباباً تعلَّمنا معاً كيف نعيش الحبَّ بلا هموم. وعادة ما يريد الناس دائماً الشيء التالي. ويبتعدون عن روعة لحظات الانتظار.

كنتُ فضولية فيما يخصُّ محتوى رسائله وذهبتُ لقراءتها لدى مونيك. قال في رسالته الأخيرة إنه يأمل أنني أستمتع وأحبُّ الحياة في مونتريال، وأن ما تشاركناه في كراتشي كان حياة مختلفة كلياً.

أذكر أنني فسَّرت هذا على أنه نهاية قصَّتنا. ولكنه تابع في الصفحة

الثانية: «أنا أعرف ما كنا عليه، ولم أتوقَّف عن حبِّكِ قط، ولكنني لا أعرف ما نحن عليه الآن».

قال لي كمال كما عندما حدَّثته عن الموضوع: «وأنا احتفظتُ كذلك برسائلك أيضاً».

* «هل قرأتَها؟».

- «كنت أخشى قراءتها. ربما كنتُ أعتقد بأن الورقة ستحرق أصابعي، وربما فهمتُ كل ما جرى على نحو خاطئ».

* «أذكر أن رسالتك الأخيرة كانت مختلفةً تماماً عمَّا كتبته أنت. كان ذلك بعد الحرب في شرق باكستان».

- «ماذا كتبتُ؟».

* «في الغالب بأنك تحبُّني. لكنني أذكر بأنك قلتَ إن ما بيننا قد انتهى، ولكنكَ في الحقيقة لم تقل ذلك».

هزَّ كمال رأسه وقال: «تعلَّمتُ في الحرب بأنه عندما يوجد شيء سيسبِّب الألم، فالرجال الأقوياء لا يترددون. فهم إما ينجون من المعضلة بسرعة أو يتقدَّمون ويواجهونها بسرعة، كنتُ أرمي بنفسي في خضمِّ كل شيء، ولكن بالأخص الأشياء التي كانت تؤلم. عندما كنتُ أرى الألم قادماً نحوي، كنتُ أتقبَّله وأقرِّبه مني وأتعلَّم كيف أتعايش معه. آمل أنني لم أكن قاسياً في رسائلي».

وبينما هو يتحدَّث، كنتُ أراقب ضوء الشمس من خلال السحب.

* «ولكنكَ كنتَ خائفاً من قراءة رسائلي».

- «نعم فعلاً».

* «في شبابنا، وفي أثناء علاقتنا، كنتُ تقابل فتيات أخريات. لماذا؟».

- «في تلك الأيام، كانت هناك فتيات كصديقات وفتيات لبقية الأمور. كنتُ صغيراً ومندفعاً. لكنني كنتُ أريد دائماً قضاء الوقت معكِ. ولاحقاً عرفتُ أنني أردتُ أن أكون معكِ. كان شعوراً غريباً، وعندما أدركتُ حقيقة مشاعري، قرَّرتُ القيام بخطوة جنونية، محاولاً التواصل معك بعد كل تلك السنوات».

* «ما الذي جعلكَ تقوم بكل هذا؟».

- «أنتِ».

كاثرين

الأحياء في عجلة من أمرهم. أما المحتضرون فلا يمانعون الانتظار. لا يأتي الموت بالسرعة الكافية في نهاية المطاف، ولكنَّ لحظة الموت تكون سريعة جدَّاً. كنتُ أتجوَّل في الغرفة، معتقدة بأنها كانت نائمة، لكنها فتحت عينيها وأجفلتني، وقالت: «كاتي، لطالما كنتِ عديمة الصبر».

كانت الممرِّضة تقوم بتنظيفها وإعادة ترتيب السرير، وكنتُ أنقر بهدوء على درابزون السرير الحديدي وأنشد للممرِّضة بقدر ما كنتُ أنشد لأمي:

ما الذي يمكن أن تفعله عندما ينكسر السرير ؟

جرَّبنا ذلك على الأريكة،

جرَّبنا ذلك على الكرسي،

جرَّبنا ذلك على النافذة،

كل ذلك بلا فائدة.

ما الذي يمكن أن تفعله عندما ينكسر السرير ؟

تمنَّيتُ لو كنتُ أحبُّها أكثر. لماذا لم تخبرني عن شون؟ حاولتُ أن أتغاضى عن التفكير في الأمور الإشكالية بيني وبينها، التفكير في حياتها، وحياتي. عندما دخلتْ في غيبوبة قال شون: «إنها تعرف أننا هنا».

سألتُ الطبيب: «هل تعرف ذلك حقَّاً؟».

* «هناك أنواع كثيرة للمعرفة. ابقَي إلى جانبها».

ومن ثمَّ، بعد ليلة ويوم آخر وليلة أخرى. كنتُ على يقين من أنها كانت تضغط على يدي. في تلك اللحظات، يُظهر الشخص بعض التشنُّجات. تحدَّثتُ إليها، وغنَّيتُ لها. ببساطة، لا يمكنكَ هجر جسد لا يزال دافئاً يتنفَّس، ولكن ذلك الجسد الخارجي يصبح بارداً تدريجياً. ويزداد تشبُّث المرء بالحياة كلما اقترب الموت، كل ما تسمعه في تلك الدقائق هو صوت التنفُّس الخشن الذي يتوقَّف، ويعاود الظهور، إيقاع غير قابل للعزف. كل ما يبقى هو فقط الانتظار والانتظار ومزيد من الانتظار. شهيق آخر، يليه انتظار، وزفير آخر يليه انتظار وانتظار وبعد ذلك.

كنتُ أتساءل عمَّا إذا كان والدي في الصين لا يزال على قيد الحياة. كنتُ سأخبره بأنها كانت قوية حتى النهاية. وأنه كان عليه أن يحاول معها أكثر. كنت سأودُّ أن أسمع عن حياته. وأن أقول له إنها قد وجدت شخصاً أحبَّها، وإنها لم تكن وحيدة. كنت سأخبره بأنها لم تتوقَّف عن حبه، فقد كانت تقول لي إنه وسيم في كل مرَّة تُريني فيها صور الزفاف. كنتُ أريد أن أقول له إنني لطالما تمنَّيتُ لقاءه، ولو لمرَّة واحدة.

مهسا

قلتُ لكمال: «الآن».

فأجاب: «هل أنتِ متأكدة؟».

مشينا جنباً إلى جنب على الطريق إلى منزله الذي أسميته "منزل الشجرة" لأنه كان عالياً ويطلُّ على مونتريال والنهر. كما كان بسيطاً جدًّاً، يقتصر على طاولة وسرير واسع ونوافذ يمكن فتحها لتطلَّ على النجوم والقمر. كانت العتمة تلفُّنا، ونحن نتنفَّس الضوء. بعد مضيٍّ كل تلك السنوات العديدة، مارسنا الحب مرَّة أخرى، تذكَّرنا بعض الأشياء، أشياء كثيرة وجميلة، ولاحظنا بعض الأشياء الجديدة، فقد كانت حواسنا مشرعة ومتحمِّسة. وكانت أجسادنا تحمل تقاسيم مختلفة الآن، أكثر ضحالة. كنا نحمل على عاتقنا حياتين من الأفراح العابرة التي جعلت سنوات الخدمة والتشرُّد وكسب الرزق وتربية الأطفال أقلَّ صعوبة. كنا شخصين حافظا على أملهما. وكان بجسده ينصت إلى جسدي. كنتُ له بكلِّيتي، تركتُ نفسي تنجرف وراء كل تفصيل. كنا نلمس بعضنا البعض، ونحن نستمع إلى كل ما نحتاجه بعد سنوات وسنوات من الانتظار. بدا الإخفاق الذي اختبره حبُّنا الكبير عابراً كذوبان الثلوج في الربيع.

للحب العديد من التعابير، ولا يمكن فرضه أو الحكم عليه. لا يمكن

إسكات أنفاسه المتسارعة ولا يمكن إيجاده بالإجبار. وجميع أشكال الحب صحيحة.

سألني: «هل تؤمنين بالقدر؟».

* «القدر يشبه الحمار الذي يأخذك إلى الوجهة التي تقوده إليها».

- «نعم، أعتقد بأن هذا صحيح».

أنشد لي بعد ذلك أغنية. كنتُ أحبُّ صوته وهو يغنِّي. نوتة واحدة هي صوت، نوتتان تؤلِّفان أغنية.

كاثرين

كل ما تقدِّسه يبقى حيّاً في أعماقكِ، وكل ما يحتاجه هو مساحة يحتلُّها في نفسك. في أماكنَ أخرى من العالم، يؤذي الناس أجسادهم حداداً على موت من يحبُّون ويرتدون الخرق ويجلسون في الأرض ويتمرَّغون في التراب، أما أنا فكانت هناك أمور عليَّ القيام بها. كان عليَّ التوقيع على بعض الأوراق، وإخلاء شقَّتنا القديمة، وأخذ ملابس أمِّي إلى متجر سالي أن للملابس المستعملة. قال لي شون: «لا أستطيع أن أفعل هذا». أخبرته بأنني سأقوم بالمهمَّة، فقد كان معي تي والأولاد للمساعدة. استغرقني الأمر أقل من يوم واحد لإزالة كلِّ أثر لحياتها من الشقَّة. ذهب شون إلى المنزل وذهبتُ إلى فندق "رويال كونوت" لأودِّع أصدقاء أمِّي في المطبخ، ورأيتُ هارولد الذي قال لي كعادته في الماضي: «هل أنت السيِّدة غودناو؟».

* «لستُ أنا السيِّدة غودناو، تلك كانت والدتي».

عند عودتي إلى القبو، صعدتُ لزيارة ليلي ابنة صاحبة الشقَّة التي كانت لا تزال تسكن في الطابق العلوي. قالت لي: «لا أعتقد بأنني سوف أؤجِّر الشقَّة مرَّة أخرى. وسيكون كل شيء غريباً من دونها بعد كل هذه السنوات». طلبتُ منها أن تبقى على اتصال معي وسألتها إن كانت لا تزال

تلعب الورق، قالت: «سيكون من اللطيف أن نلعب مرَّة أخرى، ولكنها لن تكون ممتعة جدَّاً بعد وفاة والدتينا». قلت لها: «حسناً، ومع ذلك فقد كنا في يوم الأيَّام السيِّدات الأربع، أليس كذلك؟». بعد ذلك كنتُ في عجلة من أمري للعودة إلى نيويورك، فقد كنتُ هنا مثل السنونو القابع على حافَّة النافذة، والمنفصل عن الحياة داخل الغرفة. سلَّمتُ ليلي المفاتيح وغادرتُ ماونتن برو للمرَّة الأخيرة. شعرتُ وكأني جسد من الرماد الثقيل الذي يتناثر مني. يمكن للمرء الحداد والشعور بالحرِّية في الوقت نفسه.

في البيت، كلّ ما كنتُ أفعله هو النوم. كان الجميع يتحركون مثل خلية نحل، غادر تي وجيمي للعزف في بوسطن. وفي صباح أحد الأيام، استيقظتُ وبالكاد أدركتُ كم مرَّ من أيام، كان الضوء خافتاً. أصبحتُ قادرة على معاودة تذوُّق مرارة قهوتي المعتادة كما أحبُّها. وزحف إلى روحي شعور بطيء بكوني لا أزال على قيد الحياة بعد أن دُفنتُ حيَّةً لوقت طويل، كنت منفتحة على كل شيء وجاهزة. عندما كنتُ طفلة اعتدتُ أن أنظر إلى العشب والسماء وأتمنَّى لو كنتُ قد خَلقتُ كل هذا. وضعتُ أصابعي على مفاتيح البيانو وأصدرت صوتاً، تلاه آخر وهكذا دواليك، بدأتُ أسمع مقطوعتي الجديدة وهي تتدفَّق في أرجاء الغرفة. كانت موجودة في أعماقي بالفعل. اتصلتْ بي ماريان ماكبارتلاند وقالت إنها ستطلب من وكيلها أن يحجز لي جولة موسيقية في آسيا. وقالت: «يمكن لسيسيل أن يذهب أيضاً. يوجد الكثير من محبِّي الجاز هناك، وها قد أصبحتِ حرَّة الآن وتستطيعين الذهاب».

أمَّاه، حصلتْ لي الكثير من الأمور في وقت واحد بعد وفاتكِ. كانت الأحداث سريعة وسلسة ومتصاعدة. أمَّاه، آمل أن يكون هناك الكثير من الحبِّ حيثما أنتِ. كنتِ لتعجبي بهذه الأغنية، وأظن بأنكِ على الأغلب

كنتِ ستتمنّين لو أنكِ ما زلت على قيد الحياة لتستمتعي بها. كان ينبغي أن يكون هناك المزيد من الوقت لكِ في هذه الحياة. اعتدتُ الاستيقاظ باكراً في الصباح، ومباشرة التأليف، وفي فترة بعد الظهر، وإن لم تكن لديَّ حفلات، كنت أمشي في سنترال بارك حتى الشفق. كان ذلك روتيناً أبسط وأكثر هدوءاً ممَّا عشته سابقاً وكنتُ سعيدة، على الرغم من أنني لم أهتم في حياتي بكوني سعيدة.

قمتُ بتأليف مقطوعتي الجديدة التي أسميتها "الشيء الجديد" بسرعة وعلى ثلاثة أجزاء. فهي تبدأ بالحب وتنتهي بالموت. وتروي في المنتصف سيرة السعي والنضال في الحياة. كنت أشعر بأن الآلهة تريد أن تطغى على روحي وترتقي بها، وكل ما كان عليَّ القيام به هو إفساح المجال لها.

أرسلت الأوراق الموسيقية الخاصة بهذه المقطوعة إلى مهسا التي اتصلت بي، ووضعتْ سمَّاعة الهاتف على البيانو لتعزف لي مقطوعتي، ثم قالت: «إنها جيِّدة يا كاثرين».

* «لكنني لم أنجزها كلِّياً بعد».

- «أعلم ذلك».

إنه الحب، الموضوع الذي لا نتحدَّث عنه بما فيه الكفاية. فالناس يتحدَّثون عن الجنس كل الوقت، ولا يكفُّون أبداً عن الحديث عنه. كانت الأفكار تتدفَّق من ذهني. وكنتُ أقول لنفسي: عليكِ أن تستمرِّي في فعل كل شيء. عليكِ الاستمرار في السعي وراء أشيائك المفضَّلة. لا تتوقَّفي. لا تنتظري. استمرِّي.

أرسلتْ إليَّ مهسا بالبريد ورقة مقصوصة من جريدة مع صورة لحفل زفاف، حيث يقف شاب وفتاة قبالة بعضهما البعض، يداً بيد. وقد أشرق الحب في عينيهما. كانا سعيدين مع بعضهما البعض. ارتدى الشاب

قميصاً ذا مربَّعات وأكمام قصيرة، وأسدلت الشابة شعرها إلى الأسفل. تقول القصة المذكورة في الجريدة إن اسم الفتاة جاسي وتمتلك أسرتها حقول توت على الساحل الغربي. كان والدها يريد إجبارها على الزواج من أحد شركائه في العمل، والذي يكبرها بأربعين عاماً. لكن جاسي كانت لديها أفكار أخرى، فقد وقعت في حب ميتثو خلال رحلة عائلية إلى الهند، وهو سائق عربة ريكشاو. وبذلك هربت وتزوجت به. وفي إحدى الليالي، وبينما كانا يقطعان طريقاً مظلماً على دراجته النارية، أُوقِفا. حُزّت رقبة الفتاة وتُرِك جسدها ليطفو في المياه الضحلة. كما تُرِك ميتثو ليموت أيضاً ولكنه نجا بأعجوبة. أشارت سجلات الهاتف والبيانات المصرفية والاتصالات إلى أن أسرة جاسي قد استعانت بقاتل مأجور لتنفيذ الجريمة في الهند. ولكن لم يُتَّخذ أيُّ إجراء بهذا الخصوص.

كتبتْ مهسا على قصاصة الجريدة: «كاثرين، أَلِّفي شيئاً عن هذه القصَّة».

بدأتْ مقطوعتي بقصَّة الزوجين العجوزين في بروكلين دلي، ثم تحوَّلت إلى شيء آخر. كانت تشبه لوسيا دي لاميرمور.[1] كانت تحكي عن أمِّي جيني غودناو. أَلَّفتها بحيث تُعزف باستخدام آلتَيْ بيانو، ووضعتُ في الجزء الخاص بمهسا مقطوعتها "اشتقت إليكِ، مور".

كنتُ أتصل بها في كل صباح لعزف الجزء الجديد التالي. ضمَّنتُ فيها السلطة والقانون، وكذلك الجنس. والحنين. والحب والحزن. ضمَّنتُها كل شيء كنتُ قد فكرتُ فيه. عندما انتهيت، أخذتها إلى هارفي ليختنشتاين في أكاديمية بروكلين للموسيقى، وقلتُ له: «إليكَ قصة تستحق أن تُروى. ستُصمِّم بيا رقصة ملائمة لها. دعنا نجد بعض الراقصين لتأديتها. ولديَّ عازفة البيانو الملائمة التي ستعزف معي».

1- أوبرا تراجيدية على ثلاثة فصول من غايتانو دونيزيتي.

اتصلتُ لأخبر مهسا بالتفاصيل. وقالت: «سوف يأتي أهل علي في زيارة إلى هنا».

* «مهسا، أربع سنوات مرَّت. أنا لم أركِ منذ أربع سنوات. لقد حان الوقت. أرسلتُ إليك المقطوعة بالبريد. سنعرض على مدى ثلاث ليال فقط. أصبح ولداك على ما يرام الآن. وسنُسجِّل في ليلة الافتتاح. تدبَّري موضوع حضورك إلى هنا. سأذهب في جولة إلى آسيا بعد ذلك، وأريدك أن تكوني معي في الجولة القادمة. وتذكَّري أن الشيء الأكثر تطرفاً الذي يمكن للمرأة أن تفعله هو أن تعيش حياتها».

تدبَّر هارفي الراقصين من أحد برامجه في المدارس الثانوية، وعندما التقيتُ بهم سألتهم: «هل أنتم متحمِّسون لتحمُّل التحدِّيات والمخاطر العالية؟». وهمست على المسرح: «ما لا تعرفونه هو أننا سنستمتع بالتحدِّيات والمخاطر العالية».

ظلُّوا يرقصون حتى تخدَّرت أقدامهم من شدَّة الألم. كان لدى الجميع فرصة للأداء. وكان الراقصون الذين يؤدُّون دور العشَّاق من أصول لاتينية، وآسيويين ومن السود والبيض. سألتني بيا عن الفكرة وراء العمل ومصدرها، وأخبرتها بأنها جاءت من مهسا. وقالت: «أعتقد بأنكِ تكتبين عن جدَّتي».

* «لو كانت تلك قصَّتها لما كنا لنكون هنا».

اعتقدتُ بأنه قد حان الوقت لتعرف قصَّة جدتها، وهكذا أخبرتُ بيا كيف قُبض على أمِّي بحجَّة أنه لا يمكن تقويمها، وحدَّثتها عن الأخلاق المتبلِّدة وعديمة الرحمة لدرجة أن الآباء يقدمون على سجن بناتهم. قلتُ لها: «بيا الصغيرة، رُميتْ جدَّتُكِ في إصلاحية وأبعدوني عنها، اضُطرت إلى الكفاح من أجل استعادتي مرَّة أخرى. كانت لا تزال في سنِّ المراهقة.

وعندما خرجتْ، كانت تخشى من أن يكتشف الناس أنها متزوِّجة من رجل صيني، لذلك لم يعيشا معاً مطلقاً. وكانت الضربة القاسمة عندما اكتشفت بعد سنوات بأن لديه زوجة أخرى في الصين».

ظلّت بيا صامتة لفترة طويلة. وقالت: «كان في وسعكِ أن تخبرينا بهذه القصَّة من قبل».

كان ذلك هو كل ما كتمته في صدري. لقد انزاح ثقل كل ذلك الماضي عن قلبي. أمَّاه، لقد احتفظتُ بسرِّكِ وأخفيته عن أطفالي إلى الوقت الذي لم يعد عليَّ القيام بذلك. سمعوا قصَّتكِ كما هي، حزينة ومليئة بالظلم. قصَّة تعود لزمن آخر، ذلك الزمن حيث كانت الفتيات فيه ترتدين قفَّازات بيضاء، ويملأن صناديق جهازهن استعداداً للزواج. أمَّاه، كبُر أحفادكِ الذين يختلط دمهم بالعرق الأسود في الوقت الذي كان الناس فيه يخرجون في مظاهرات، ويحتجُّون، ويحرقون المدن، ويقتلون في سبيل أن يذهب العرقان الأبيض والأسود سوية إلى مدرسة واحدة، وأن يجلسا في الحافلة معاً، وأن يعيشا في الأحياء نفسها معاً. أمَّاه، لقد أحبَّكِ أحفادكِ وأحبُّوا قوافيكِ الظريفة، وأغانيكِ القديمة ونقودكِ من فئة المئة دولار التي وهبتها لهم في الشارع، وقولكِ إنكِ لا تريدين الذهاب إلى الجنة. لقد أحبُّوكِ، ووجدوا أنه من الغريب أن تُسجن امرأة فقط لأنها سعت إلى تحقيق رغبتها الخاصَّة. كنا جميعاً بخير، بعيوبنا الكثيرة، وبُعدنا عن الكمال والمثالية، إلا أننا كنا بخير.

مهسا

عزفتُ مع كاثرين أجزاء من مقطوعة "الشيء الجديد" عبر الهاتف وذلك عندما كنا نتَّصل ببعضنا البعض هاتفياً كل يوم. وصفت لي الكوريغرافيا[1] والتدريبات، وقالت: «يجب أن تشاهدي كم يتحرَّكون بخفة على ألحان مقطوعتك "اشتقت إليكِ، مور" إنّ الرقصة عاطفية جدّاً بحق».

بعد أشهر من رعاية والدتها، شعرتُ بطاقتها المكثَّفة والمتفجِّرة. أردتُ بشدة أن أراها مرَّة أخرى. عندما أنظر إلى المرآة، كنتُ أرى امرأة تفقد نضارتها، وعندما كنتُ أنظر إلى مفاتيح البيانو كانت الأوردة تتدفَّق بعجل تحت جلدي في أنهار وجبال صغيرة. أصبح ثدياي أقل تماسكاً، وهو ما لاحظته مع كمال ضمن غرابة تذكُّر أجسادنا في فترة الشباب. ما الذي فعلتُه طوال هذه السنين؟ كنتُ أحاول أن أُنجح زواجي، وقمتُ بتربية طفلين. كنتُ أعيش في قوقعة من الطين أصبحت متصدِّعة ومنهارة الآن. كنتُ أتوق إلى العزف في هذا الحفل. ولذلك فقد توسَّلتُ إلى علي: «دعنا نصطحب والديك إلى نيويورك هذا الصيف. لقد كنتَ مريضاً طوال الفترة الماضية وهي فرصة لنا جميعاً لنكون معاً». شعرتُ بانقباض معدتي، وأنا أنتظر سماع رفضه القاطع، وكنت قد خططتُ بأنني، وبغض النظر عن

1- علم تصميم الرقصات.

جوابه، سوف أذهب إلى نيويورك وسأصطحب ليلوما معي. كان ظلال الشخص الذي أصبحتُ عليه يكمن في استمراري في السعي جاهدة إلى إرضائه. كنت أسترضيه وكنتُ أشعر بالقرف من نفسي. لكنه فاجأني، وقال: «ربَّما أنتِ على حق».

بعد أيام اتصلتْ بي حماتي هاتفياً لتسألني عن عدد الأيام التي سأقيم خلالها الحفلة، وعدد أيام التدريب والوقتُ الذي سأستغرقه وراء الكواليس، والمكان الذي سنبقى فيه. أردتُ أن أصرخ: «وكيف لي أن أعرف؟ فبالكاد كنتُ أخرج من المنزل منذ أن قمتِ باختطاف ابنتي». كما سألتني عن تفاصيل الفندق الذي سوف ننزل فيه، وعمَّا إذا كنتُ سأصحبها للتسوُّق، وعن المطاعم التي يمكن لعمِّي أن يجد فيها الأرز العادي، وخاصَّة عصيدة الأرز في الصباح. قمتُ بطمأنتها بأنه سيكون لديَّ الكثير من الوقت للتجوُّل معها في نيويورك. أرسلت إليَّ لباساً هندياً تقليدياً جميلاً مطرزاً تطريزاً كثيفاً بألوان الأخضر والأصفر، ومصنوع من حرير ناعم باهظ ورائع. كتبت ملاحظة تقول: «هذا من أجل عرضكِ».

كم كنتُ حمقاء.

اتصلتْ وقالت: «لقد وجدتُ زوجاً ملائماً لليلوما. إنه متعلِّم، وعمل سابقاً مع علي. سوف يكون مُرضياً جدَّاً لها، وهو وسيم جدَّاً أيضاً. كان قد عمل في لندن، ويمكن لعلي أن يجد له مكاناً في الأعمال التجارية في كندا. ألن نكون سعيدين لرؤيتها تستقر؟ علينا أن نعرِّفهما إلى بعضهما البعض، ويجب ألا ننتظر طويلاً. أنا قلقة جداً حول صحَّة علي».

لم يتورَّعوا عن قول وفعل أي شيء لتحقيق غايتهم.

كان يكبر ليلوما بخمسة عشر عاماً. قال علي: «لقد قُرِّر الأمر. تكمن سعادتي في أن يتحقَّق هذا الأمر لليلوما».

* «آه، دعها تذهب لدراسة المنحة الدراسية التي حصلتْ عليها، دعها تنهِ تعليمها. فهي صغيرة جدًّاً وسوف يكون ذلك صعباً عليها».

- «حتى عندما أكون مريضاً، فأنت تقاومين إرادتي. يمكنها الالتحاق بالجامعة بعد زواجها. وهي لم تره بعد حتى تتَّخذ قرارها. لقد وافقتُ على أن تعزفي في الحفل. ولكنكِ دائماً تريدين المزيد».

* «إنها لا تريد أن تتزوَّج. وإنما تريد إكمال دراستها».

- «إنه الوقت المناسب لها لتتزوَّج. ثمَّ، أين هي المشكلة في الزواج؟».

كاثرين

كان من الرائع جداً أن أرى مهسا أخيراً. ضممتها إليّ. بدت لي أنحف، ورأينا في عيني بعضنا البعض آثار السنوات الأخيرة من السعي والكد. قلتُ: «هيا بنا نعزف. ابدئي أنتِ، وأنا سأستمع». شاهدتها وهي تستقر على كرسي البيانو وتلمس مفاتيح البيانو من نوع "بوزندورفر"، بينما انحنيتُ على شرفة أمامية في الطابق العلوي من المسرح لأستمع وأقيِّم صدى الصوت هناك. من فوق، بدا لي البيانو المفتوح وكأنه يشبه قيثارة موضوعة على جانبها. كنتُ أحبُّ الصوتيات في أكاديمية بروكلين للموسيقى. كانت مهسا متوتِّرة مثل فرس رهان صغيرة مستعدَّة للانطلاق. ناديت عليها: «عزفكِ رائع، انتظري، أنا قادمة للعزف معكِ». على طول الطريق كنتُ أستمع إليها وهي لا تزال تتحسَّس الصوت الذي تريد أن تصل إليه. لطالما أحببتُ قاعات الحفلات الموسيقية الفارغة. وكان من المذهل أن أكون معها. جلستُ، ونظرنا إلى بعضنا البعض عبر هيكل البيانو وألواحه الصوتية، كنا شباباً، نعزف جنباً إلى جنب وكأننا في سيرف ميد مرَّة أخرى. استمعنا إلى الحافَّات وهي تهتز، وأوتار البيانو تصدح تحت أصابعنا. تأرجحنا معاً في أرجوحة من سلسلة واحدة، والخشب المشرق ينعكس على وجوهنا.

بدأنا العزف مع مقطوعة "أن تحب اثنين"، ثمَّ قلتُ: «دعينا نعزفها مباشرة وبأسلوب متواصل"، أومأت موافقة وانتظرتْ أن أبدأ. كان رأسها وكتفاها منحنيين إلى الأمام فوق مفاتيح البيانو. خلعت سترتها، وكانت ترتدي قميصاً خفيفاً، وقد أغلقت عينيها. كانت تعرف الموسيقى تماماً وعن ظهر قلب، وعندما كنتُ أتوقَّف أحياناً لأضيف شيئاً إلى ديناميكيات عزفنا، كان في إمكانها استئناف العزف من أي جزء. عزفنا وكأننا لم نفترق أبداً. كانت الأوراق الموسيقية موضوعة على الأرض بجانبها. لطالما أحببتُ العزف مع مهسا. وفي نهاية الحركة الثالثة، توقَّفنا في الثانية نفسها. كان هناك إحساس مفعم بالطاقة يصدر عن ضربات أصابعها على المفاتيح، ولم أكن قد سمعته من قبل. قلتُ: «أنتِ تعزفين بقوة».

* «موسيقاكِ هي السبب».

- «إنها موسيقاكِ أيضاً».

جاء علي لمشاهدة نهاية البروفة. وقف مكتوف الأيدي، وهو يتَّكئ على الحائط. كان يرتدي بذلته الباهظة بحكم العادة، وعلى الرغم من أن مهسا أخبرتني بأنه كان مريضاً، إلا أنني رأيتُ رجلاً معتاداً على فرض سيطرته على أي موقف يكون فيه. سار في الممر الطويل، وقدَّم نفسه بطريقة ساحرة، وأضاف: «تحدَّثت مهسا عنكِ كثيراً. هل يمكنني أن أحضر لكما أي شيء؟». قلتُ: «كل ما علينا القيام به هو الاسترخاء قبل العرض». تساءلت بيني وبين نفسي فيما إذا كانت مهسا قد خافت طوال هذه السنوات من شخص موجود في مخيَّلتها فقط، ففي الحقيقة بدا لي مسالماً جداً، وكان مهذَّباً ومحترماً. عندما غادر، جلستْ مهسا مرَّة أخرى وعزفتْ، على سبيل المتعة، مقطوعة لموسيقى البلوز كثيراً ما عزفَتها في شبابنا. كانت تسمِّيها دائماً "كراتشي حبيبتي" ولكنني أعتقد بأنه لحن قديم

لفرقة "البيتلز". شاهدتُ كتفيها وهما يبدآن في التحرُّك، وجسدها يتحرَّر، وعندما انتهت نظرتْ حولها بسعادة، وقالت: «أشعر وكأنني على شفا هاويتي الجميلة مرَّة أخرى. أشعر بهذا دائماً وأنا معكِ».

* «وأنا أيضاً».

ثم أنزلت يديها إلى جانبيها وتأرجحت على المقعد، وقالت: «كاثرين، أحسُّ بشعور سيِّئ».

* «إنه مجرَّد توتر. فأنتِ لم تؤدِّي عروضاً منذ فترة طويلة. دعينا نتناول بعض الطعام».

بعد بضع ساعات، كانت القاعة ممتلئة بالحضور وكان الراقصون وراءنا، عزفت مهسا كما لم تعزف من قبل، ممتلئة بحيوية وإبداع العالم بأسره.

مهسا

على خشبة المسرح، وببذلتها السوداء، بدتْ كاثرين مثل رجل أنيق طويل القامة يرتدي قبعة امرأة. كما تألَّق ثوبي التقليدي من الحرير الناعم في تناقض مع بذلتها. بدأتْ بعزف "الشيء الجديد"، ثمَّ انضممتُ إليها في العزف بينما سطعت الإضاءة على الراقصين. كان الجميع منسجمين في عمل واحد، بلا انقطاع، وبشكل متواصل. كنا نعيش جميعنا لحظة واحدة. وقصَّة واحدة.

ارتدت إحدى الراقصات فستان زفاف، وفي أثناء مشهد الهجوم العنيف، يتمزَّق فستانها الحريري الجميل بفعل عنف إخوتها وهم يسحبونها بعيداً عن حبيبها. يُترك عشيقها لوحده وهو يحمل قصاصة من ثوبها الممزَّق، وثيابه أيضاً في حالة يُرثى لها. تنتهي تلك الحركة مع ظهور راقصين، وجوههم مغطَّاة بحجاب، يرقصون على موسيقى "اشتقت إليكِ، مور". وقبل أداء الألغريتو[1]، نظرتْ كاثرين إليَّ، وبدتْ مستعدَّة لإكمال المقطوعة الطويلة دون انقطاع.

كانت اللوحة الراقصة الأخيرة هي الجزء المفضَّل لديَّ من كامل الرقصة. حيث يتحاور البيانو الأول مع البيانو الثاني. وتظهر على المسرح

---

1 - قطعة موسيقية سريعة.

أشباح العاشقين وهما يرقصان بشغف رقصة عن الحب المفقود. يتحرَّكان داخل وخارج بقع ثابتة من الضوء الأزرق. كنتُ أستعدُّ لعزف هذه اللحظة مع كاثرين منذ الوقت الذي جلستُ فيه على كرسي البيانو إلى جانب أبو عندما كنتُ لا أزال طفلة صغيرة.

عندما انتهى العرض، وفي ظلام خشبة المسرح، عانقتني كاثرين، وقالت: «لقد عزفنا جيِّداً».

* «شعرتُ بذلك».

- «سأذهب إلى مهندسي التسجيل لأرى ما إذا كانوا قد أنهوا عملهم جيِّداً. اذهبي واستمتعي بالحفلة، وسأكون هناك خلال لحظات».

لم أكن على علم بحضوره إلى أن نزلت من خشبة المسرح ورأيته واقفاً نصف مختفٍ قرب الباب في المدخل المؤدِّي إلى الغرفة الخضراء. إنه كمال. في نيويورك. تزاحمت مجموعة من الراقصين الشباب عند الباب وهم يركضون بإثارة كبيرة داخل وخارج غرف تبديل الملابس، وتعثَّر أمامنا طالب جاء لملاقاة حبيبته التي كانت ترقص مع المجموعة. نظر إلى كمال وإليَّ، كان يبدوا مخموراً، وتساءل: «عذراً، هل هذا الرجل حبيبكِ؟».

* «لا».

نظر إليَّ الطالب مندهشاً وكأنني قلتُ له إن الأرض مسطحة، وقال: «إذا هل تتمنيِّن لو كان حبيبكِ؟».

ضحكتُ كما كنتُ أفعل مع السكارى في حانات الفنادق، وقلتُ: «أنا متوجِّهة لأخذ أغراضي فقط».

تحرَّكَ الشاب المخمور بعيداً وهمستُ لكمال: «يجب أن أذهب. حتى الشاب المخمور أمكنه أن يشعر بحالنا».

* «ليس بعد».

- «عليَّ أن أحضر أغراضي».

في غرفة تبديل الملابس، كانت هناك زجاجات مياه فارغة، وحقائب الراقصين، ومعاطف مكوَّمة على الأريكة. وعندما التفتُّ، كان كمال يقف داخل الباب وكنا وحدنا.

* «مهسا، لقد عزفتِ عزفاً جميلاً».

- «كمال، أنا سعيدة لأنكَ هنا».

سمعتُ صوت أشخاص في الممر وتحرَّكتُ بعيداً عنه. تسلَّل إلى غرفة جانبية بينما دخل مدير المسرح بصحبة علي.

قال علي: «مهسا، أنتِ تعرفين بأنني كنتُ أنتظركِ. ماذا تفعلين؟ ومن كان ذلك الرجل؟».

* «إنه أحد موظَّفي المسرح».

- «تعالي، لديَّ شخص ينتظر مقابلتكِ».

في قاعة الاستقبال، شعرتُ بالارتباك المزعج الذي كنتُ أشعر به عند مقابلة الناس بعد أداء العروض. قدِم علي بصحبة رجل أعمال فرنسي-كندي كنتُ قد التقيتُ به عدَّة مرَّات في مونتريال، قال لي: «مهسا، لقد كنتِ مذهلة». ثم التفتَ إلى علي وقال: «أين كنت تخبِّئها؟». وأشار إلى شاب يقف بجانبه قائلاً: «هذا ابني سيباستيان. وهو يتمنَّى أن تعزفي في ناديه "نواج بلو"، عندما تعودين إلى مونتريال».

قال علي: «بالطبع سوف تعزف هناك».

سألتُ علي: «أين آصف وليلوما؟».

أُضيء المكان بإضاءة مذهلة. وفي وسط الحجرة الواسعة، وُضعتْ

موائد مستديرة وبار طويل مع شموع وأطباق كبيرة من الطعام التي حام الراقصون حولها مثل أسراب صغيرة من طائر الزرزور. التفَّ بعض الراقصين بالأوشحة وملابس تدفئة ثقيلة، بينما ارتدى آخرون قمصاناً حريرية خفيفة، واقترب أهلهم ليقولوا لي إنهم لم يسمعوا من قبل عزفاً لآلتَيْ بيانو معاً، وإن أولادهم قد استلهموا الكثير من العمل. عرَّفتْني كاثرين على هارفي الذي كان يرتدي سترة منقوشة وفيدورا سوداء. كان يريدني أن ألتقي مع أشخاص من مجلس إدارة المدرسة. لم أتصوَّر أبداً في حياتي هذا العدد الكبير من معارف كاثرين، أو ما قد يعنيه هذا الإنتاج. أخيراً، تمكَّنتُ من العودة إلى علي، وسألته: «أين الأولاد؟».

* «ذهبا إلى الفندق مع أهلي لتجهيز الاحتفال بنجاحكِ. سنلتقي بهم هناك».

- «كنتُ أريد أن يبقوا هنا في حفل الاستقبال، وأن أبقى هنا طوال الليل مع الجميع لكي نستمتع بهذه اللحظة».

* «لقد تأخَّر الوقت».

عدت إلى أجواء حفل الاستقبال مرَّة أخرى ورأيتُ بيا التي كانت متحمِّسة لأنها قدَّمت أوَّل عمل راقص من تصميمها، سألتني: «أين هما ليلوما وآصف؟ لم أرهما».

كما وجدتُ كاثرين التي قالت: «مهسا، هذا هو الجزء الممتع من الحفل». والتفتت إلى علي وقالت: «أتمنَّى أن تبقيا لفترة أطول قليلاً. فالجميع يريد التحدُّث إليها في ليلة الافتتاح».

أجابها بطريقة ساخرة: «أنا متأكِّد من أنكِ ستتفهَّمين الوضع، سيسافر والداي في الصباح الباكر. وأتمنَّى أن تسمحي لي بأن أدعوكِ وعائلتك إلى تناول العشاء بعد عرض يوم غد».

عندما أومأتُ لها بأن لا خيار لديَّ سوى المغادرة، قالت لي كاثرين: «حسناً، سأراكِ هنا غداً في الخامسة والنصف».

في سيَّارة أجرة قال لي علي: «أنا أكره هذا النوع من العروض المسرحية».

نظرتُ من النافذة إلى برج كارنيجي هول ذو الطوب المزجج. وفكَّرتُ في أنني لن أسمح له بأن يُفسد ليلتي.

أضاف: «كانت الراقصات شبه عاريات. لا عجب أن الجحيم يغصُّ بالنساء».

دخلتُ إلى الفندق، ومشيتُ تحت الثريَّات على سجَّادة سميكة، مروراً بمكاتب خشبية ثقيلة عليها زهور مشرقة. كنتُ لا أزال أجهل ما كان يحدث. وأنتظر بفارغ الصبر الاحتفال مع ولديَّ. كنتُ أجهل الحقيقة، وأنا أسير في ردهة الفندق الكبيرة، وأفكِّر في عرض الغد.

لكنني أدركتُ كل شيء عندما خطوتُ إلى داخل الغرفة وأضأتُ الأضواء، عندما أغلق علي الباب خلفنا وأوصده بالقفل، أدركتُ إدراكاً تامَّاً هذا النوع من الفراغ.

لم تتمكَّن من الذهاب إلى الحفل. لا هي، ولا آصف، ولا والدا علي. وبينما كنتُ أجلس وراء البيانو على المسرح المظلم، ومع عزفنا النوتات الأولى وظهور الراقصين، كانوا قد انسلُّوا بعيداً. أجبروها، وغصبوها على دخول سيَّارة أجرة. وأقفلوا عليها الأبواب. وانطلقت السيَّارة بعيداً باتجاه المطار.

بهذه السرعة، يمكن للحياة أن تتغيَّر إلى الأبد.

كاثرين

كنتُ أعيش مع صمت جديد في أعماقي. بعد انتهاء الحفلة، عدتُ إلى البيت وحدي، واستعدتُ الأداء بأكمله في رأسي. كان هناك شغف جديد في مهسا لم أشعر به من قبل. تمنَّيتُ لو كان في إمكانها أن تأتي إلى منزلي وتسهر معي حتى وقت متأخِّر، لنتحدَّث مثل الأيام الخوالي. كنتُ أفكِّر في تغيير توقيت افتتاح الحركة الثانية. لم أستطع النوم وتمنَّيتُ لو جاء تي معي. كانت والدتي تسكنني بطريقة مختلفة الآن. أمَّاه، أريد أن أنساكِ وأستمرَّ دون أن تطاردي أفكاري. ولكنك مثل الجمر الخفي. أعتقد بأنك كنتِ ستحبِّين الرقصة التي صمَّمتها بيا الصغيرة. أنا سعيدة لأنني رأيتكِ مع شون. كنتِ امرأة محبوبة. عزمتُ على معاودة العزف في جولات موسيقية مرَّة أخرى لأنني كنتُ أتوق إلى النوم في أسِرَّة غريبة، والعزف أمام جمهور جديد في كل ليلة، وذلك منذ أن أصبحت حاملاً لأوَّل مرة، وتخلَّيتُ عن كل ذلك. لديَّ الكثير من الأفكار الجديدة التي تلائم آلتَي بيانو. وسوف أسمِّي إحدى المقطوعات "وداعاً أيتها النجوم". أنا أسمع أصواتاً جديدة تبدأ بالصمت الممتلئ بكِ. وكلما طالت المدَّة منذ وفاتكِ، كلما شعرتُ بكِ تنغرسين أعمق في روحي. هل أنا أبدأ من جديد مرَّة أخرى؟ تصبح المرأة هشَّة عندما يغادرها أهلها وصغارها. هل كان هذا شعوركِ عندما غادرتُ؟

استمعتُ إلى ضجَّة أولادي البالغين وهم يدخلون ويجلسون على طاولة المطبخ، بينما أنا مستلقية في سريري. حقَّقتُ الآن ما كنتُ أعتقد طوال حياتي بأنني أريده، مساحة فارغة والوقت لتأليف أشياء حقيقية وواقعية. كنتُ أفكِّر في الأصوات الجديدة عندما سمعتُ صوت رنين الهاتف، رفعت بيا سماعة الهاتف وأنصتتْ مطوَّلاً لحديث الشخص المتصل. وأخيراً دخلتْ إلى غرفة النوم، وسألتني: «هل أنت مستيقظة؟ ليلوما تريد التحدُّث معكِ».

مهسا

دخلتُ قبل علي إلى الغرفة الصامتة.

قال: «لا تحاولي إيقاف هذا. وإلا سوف أطلِّقك. سأقول لكِ طالقاً ثلاث مرَّات وأنتهي منكِ».

كانت عيناه مثل الخرز الأسود المغروز في وجهه العجوز والمحتقن. بدا لي فجأة مشوَّهاً، وشخصاً غريباً.

- «علي، إنه يكبرها بكثير. أرجوكَ أن تفهم».

* «سوف يتزوَّجان غداً. وسنغادر أنا وأنتِ في الصباح إلى مونتريال. لقد مللنا جميعنا عنادكِ».

كان يجدر بي البقاء في نيويورك لأعزف الليلتين الأخيرتين مع كاثرين. ولكن كل ما كان يمكنني أن أفكِّر فيه هو استعادة ليلوما، وهكذا غادرتُ معه معتقدة بأنه يمكنني أن أفعل هناك أكثر مما يمكنني فعله هنا.

شاهدتُ الصليب غير المضاء في نور الصباح ونظرتُ إلى النهر الكبير الذي يحتضن المدينة. وعلى الرغم من أنني عشت هنا لفترة أطول ممَّا قضيته في أي مكان آخر، فإن رؤية الغابات من الطائرة لا تزال تبدو غريبة بالنسبة إليَّ. تحرَّك علي في مقعده ولمس يدي وشعرتُ بالاشمئزاز. ابتعدتُ عنه ووضعت جبهتي على النافذة الصغيرة. سوف أتَّصل بكاثرين،

ومن ثمَّ بالعمَّة، التي لم أتحدَّث إليها منذ سنوات، لأطلب منها أن تأخذ ليلوما إلى السوق وتُخفيها. كان عليَّ أن أخرج من المنزل للاتصال. كان يمكنني الذهاب إلى منزل جان، أو مونيك. وكان عليَّ التصرُّف بسرعة. أحضرنا الأمتعة وقطعنا الجمارك وأظهر علي جوازات سفرنا. عندما سألنا ضابط الهجرة: «ما كان الغرض من رحلتكم؟». قال علي: «المتعة فقط». ونظر إليَّ ليحثَّني على الإيماء بالموافقة. وضع جوازات سفرنا في جيب سترته وركبنا حافلة المطار التي توصلنا إلى وسط المدينة، وكنتُ أفكِّر: «أين هي ليلوما الآن؟».

حمل علي حقيبته الكبيرة على درج بيتنا، وكنتُ أحمل حقيبة يدي التي تخلو من الأموال. فتح علي الباب ودخل قبلي إلى الردهة. أنزل الحقيبة وخلع معطفه. ثم توقَّف وصرخ في وجهي: «أغلقي الباب». أجفلني بغضبه الجديد إلى أن رأيت ما رآه في غرفة المعيشة.

صرخ قائلاً: «ماذا تفعل هنا؟ أين هي؟».

وقف آصف. كان وجهه شاحباً، وظهرت دوائر سوداء تحت عينيه بجلاء. يبدو بأنه لم يغمض له جفن. قال: «لقد رفضتْ، يا أبو. لم يكن في وسعي أن أجبرها. تسبَّبت بفضيحة رهيبة في المطار. ما أن عبرتْ كاشف المعادن حتى بدأت بالصراخ: إنهم يختطفونني! مزَّقت بطاقة الصعود إلى الطائرة ورمتها على الأرض. كان جميع من في الصف يحدِّقون إلينا. ولم يكن في إمكان جدِّي إمساكها، كنتُ أقف في الصف خلفهم. قامت شرطة المطار بتوقيفنا جميعاً، وأخذها رجال الأمن بعيداً. لم نرها بعد ذلك أبداً. فقد أخذوها إلى غرفة مغلقة».

صرخ علي: «هل تريدني أن أصدّق بأنه لم يكن في وسعك إجبارها على صعود الطائرة؟ لقد ساعدتها!».

* «لا، أبو، لم تكن لتكفَّ عن الصراخ. جُنَّ جنونها. كان المكان بأكمله صامتاً يراقبنا. عندما سألنا الموظَّفون الأميركيون عن القصَّة قلتُ لهم إنها عائدة إلى المنزل لمساعدة جدَّتي، مثلما أمرتني أن أقول، وجميعنا قلنا ذلك. بدأ جدِّي يتجادل معهم، قائلاً إنها مسألة عائلية وليس لديهم الحق في التدخُّل، وإنه سيقاضيهم، وكال إليهم جميع أنواع التهديدات. غضب الضابط عندما سمعه يتحدَّث بهذا الشكل، وقال: أخبرتنا حفيدتكَ بأنكم تجبرونها على الذهاب رغماً عنها. وهذه جريمة. لقد بلغت السن القانونية، وهي حرَّة. سوف أطلق سراحكم لتصعدوا على متن الطائرة فقط. أنصحك بألا تفوِّت الطائرة يا سيِّد. كما طلب مني أن أعود إلى المنزل أيضاً. أبو، لقد كان غاضباً جدَّاً. ولم يكن هناك شيء في وسعنا القيام به. نمتُ في المطار وصعدتُ على متن أوَّل رحلة عودة. بعد النقطة الأمنية في المطار، لم نرها مرة أخرى».

صرخ علي: «تبّاً! لو كنتُ موجوداً هناك فقط».

أمسك أحد المصابيح وحطمه على المدفأة. وبصق في وجهي قائلاً: «أيَّتها العاهرة!».

تحوَّلت عائلتنا إلى مخلوق مزمجر مشتَّت وغاضب بلمح البصر. صرخ علي في وجهي: «أليس للأب الحق في أن يعرف مكان ابنته؟ اعترفي بمكانها، أين هي؟».

* «لا أعرف».

- «أنتِ عاهرة وكاذبة!».

* «علي! توقّف».

- «هيَّا اتَّصلي بتلك المرأة».

طلبتُ ببطء رقم كاثرين، وأنا أنظر في عيني آصف لمعرفة ما يعرفه،

ولكنه كان مرعوباً. طلبتُ رقماً خطأً ووضعت السمَّاعة جانباً، وقلتُ: «الرقم خاطئ».

أمسك علي بالهاتف وقال: «قولي لي رقم هاتفها».

* «لا يمكنكَ الاتصال الآن».

قال لآصف: «أنت تعرف الرقم. اطلبه الآن».

أخذ آصف سمَّاعة الهاتف وهو يقول: «توقَّف أبو، توقَّف».

طلب الرقم وسمعتُ صوت كاثرين النعس وهي تقول: «ألو».

أمسك علي السماعة: «أين هي؟».

* «من هذا بحق الجحيم؟».

قرَّب علي السمَّاعة إلى فمي، وقال: «أخبريها».

قلتُ: «كاثرين، لقد اختفت ليلوما. هل تواصلتْ معكِ؟».

صرخ علي: «أين ابنتي؟».

ولا أعرف ما قالته كاثرين.

كاثرين

كانت تلك فوضى لعينة. فقد اتخذت ليلوما قرارها مسبقاً بالذهاب غرباً للدراسة. قلتُ لها أن تأتي إلى شقَّتي لقضاء الليلة ولكنها كانت تخشى أن يجدها علي. ذهبتُ أنا وبيا لملاقاتها في المطار، وساعدناها على ترتيب حجز الطائرة إلى لوس أنجلس ومن ثمَّ إلى فانكوفر من هناك. قالت: «سوف أنام هنا». بقيتْ بيا معها. فقد كنتُ في حاجة إلى العودة إلى المنزل والنوم قليلاً، والاتصال ببديل مهسا والتدرُّب معه على تأدية الليلتين الأخيرتين. كان كل ما يجري مثل مسلسل درامي لعين.

كنتُ قد ضقت ذرعاً بكل شيء. كل ما أردته هو العودة إلى الجولات الموسيقية مرَّة أخرى. أردتُ أن أدركَ ماهية الصمت، وكيف يعيش الموتى داخله. أنا لا أفهم لماذا بقيتْ معه بحق الجحيم! لم أكن لأبقى يوماً واحداً لو كنتُ مكانها.

بدأتْ جولتي الموسيقية ببداية صعبة. فقد رتَّب لنا سيسيل أن نعزف في مهرجان تراوت فورست في ريد ليك، أونتاريو- كندا، دون أن يخبرني بذلك.

قلتُ: «سيسيل، أعلم أن كل هذه القصَّة هي من أجل فتاة. اذهب لملاقاتها وسأجتمع بكَ لاحقاً. فلا يوجد شيء هناك سوى البعوض».

قال: «كات، لم أذهب في حياتي أبعد من شارع 109 لوحدي، وقد دعتني تلك الفتاة لحضور ذلك المهرجان. تعالي واعزفي معي ليلة واحدة. أريد لعائلتها أن تعرف أنني أجيد العزف. لقد رتَّبتُ كل شيء».

- «من دفع ثمن تذاكر الطيران؟».

* «أنا فعلتُ».

- «سيسيل، نحن ذاهبان في جولة كبيرة، وقد بدأتْ التلاعب بي قبل أن نبدأ حتى».

* «هذه المرّة فقط».

- «كيف التقيتها؟».

* «كانت في نادي "بلو نوت". أنتِ لا تعرفين شيئاً عن الحب».

انتهى الأمر بنا على متن طائرة تحلِّق فوق ألف ميل من الأدغال والبحيرات، ووضع سيسيل الكونتراباص خاصته بين أرجلنا. وصلنا إلى نزل "نورسمان" ذي الأسطح الحمراء حيث استلمتُ برقية من شون يقول فيها: «حظاً سعيداً في جولتكِ». ما زلتُ لم أسمع أي خبر من مهسا، وفي كل الأحوال فلم أكن أتوقَّع شيئاً منها وهي في حالتها تلك. بدونا غريبين في ذلك المكان الصغير، حيث حمل سيسيل الضخم والقوي الكونتراباص، وتجوَّلتُ أنا بقبعتي الكبيرة.

حضرت الفتاة التي قطعنا من أجلها كل هذه الرحلة في سيَّارة رباعية الدفع مع صديقها الضخم. قال صديقها: «قلتُ لها إنني لا أريد أية هدايا تذكارية من نيويورك، ولكن ما باليد حيلة، فلن تكون هناك طائرة مغادرة قبل الصباح».

عثر لي منظِّمو المهرجان على أورغ كهربائي وانضممتُ مع سيسيل

إلى ليلة الافتتاح مع فرقة تُسمَّى "بيغ بوغالو"، التي تعزف موسيقى الروك أند رول والموسيقى اللاتينية. لم تسمع منطقة الريد ليك بمثل الموسيقى التي عزفناها وتفاعل معظم الحضور معنا. ومع نهاية الليلة قلتُ للجمهور: «أُهدي هذه المقطوعة الأخيرة إلى أمِّي التي توفِّيت هذا العام».

تراجعت فرقة "بيغ بوغالو" وبدت نغمات سيسيل المنخفضة جداً مثل أرواح قديمة تتحرَّك على وجه الصخور في الليل الشمالي المتغضن. كان الجمهور منسجماً معنا، ثم اختفتْ الموسيقى في أرجاء الغابة، وبدت السماء وكأنها النفس الأخير. أمَّاه، تخيَّلتكِ وأنتِ تجلسين في المدخل في الطابق السفلي من فندق "رويال كونوت"، وتدخِّنين وتحرِّكين قدمكِ بالطريقة نفسها، بينما تستمعين إليَّ وأنا أعزف الموسيقى على البيانو القديم البالي.

في نهاية الحفلة، سألنا الموسيقيون الشباب: «هل تريدون الخروج وقضاء وقت ممتع؟ سنذهب إلى "هاوي بيه لاونج" وهو قريب من فندقكم».

كان سيسيل حريصاً على أن يكون في أي مكان باستثناء غرفته. فقلتُ: «أفضِّل ألا أذهب. أما أنتَ فيمكنك الذهاب إن أردت، ولكنني لا أريد أن أراك مرمياً على جانب البحيرة في الصباح إثر عراك ما بسبب سكركَ. أريد أن تبقى يداك سليمتين من أجل عروضنا».

ضحكوا جميعاً وتحرَّكوا إلى وجهتهم، تقدَّم مني رجل ذو عينين يبدو عليهما الحزن، ولم أكن قد انتبهتُ له قبل ذلك، وقال: «أحببتُ القطعة الأخيرة التي عزفتِها. هل ستغادرين على متن الطائرة التي تقلع في الصباح؟».

* «نعم فعلاً».

- «هل ترغبين في رؤية معرضنا الفني؟».

كانت الساعة الثانية فجراً، ولكنني سمحتُ له بأن يأخذني إلى المكان. فتح باب صالة العرض بمفتاح معلَّق بشريط جلدي وأشعل الأضواء. ضمَّتْ جدران الصالة أربع لوحات هائلة تجسِّد مخلوقات ذات أعين ضخمة، وتتَّصل مع بعضها البعض عن طريق خطوط سوداء، وصور لحيوانات، وملامح من الأرض، والماء، والسماء، وقد أطلق على تلك المخلوقات ذات الأعين المدورة اسم "أناس من سمك". قدَّم لي سيجارة، وتجوَّلتُ في الغرفة ببطء وأنا أتأمَّل اللوحات.

- «هل قمتَ برسمها؟».

* «أجل».

- «هل يدور موضوعها حول روح العالم؟».

* «بعض الناس يقولون ذلك».

- «حول المكان الذي ذهبتُ إليه والدتي بعد وفاتها؟».

* «أو المكان الذي جاءت منه أصلاً».

نقض رماد سيجارته على الأرض. كان وجهه يعجُّ بالبثور وهناك ندبة فوق خدِّه الأيسر. بدا وكأنه واحدٌ من مخلوقاته التي رسمها. جلسنا معاً على الأرض في وسط الغرفة ودخنَّا سيجارة أخرى.

سألته: «هل يمكنكَ قفل الباب؟». هزَّ رأسه وأقفله وأطفأ الأضواء. كان لطيفاً، ووضع قميصه الفانيلا على الأرض لنستلقي عليه. ومع خيوط الفجر الأولى، أعادني في سيَّارته إلى الفندق. بدا كوكب فينوس كنقطة مضيئة وحيدة وسط السماء الشمالية. لم أرَ ذلك الفنَّان مرة أخرى، ولكن رأيتُ لوحاته. حيث شاهدتُ في نيويورك لوحة جديدة له تجسِّد امرأة

طويلة القامة، ذات شعر أسود، ترتبط بخطوط غريبة إلى شيء مشرق في الجزء العلوي من الإطار. أحبُّ الناس الذين ألتقيهم والقصص التي تحدث بمحض الصدفة خلال جولاتي. أنا أحبُّ السعي.

مهسا

كان من المفترض بي أن أكون مضطربة وأن أشعر بتعقيد الوضع. ولكني لم أشعر بأي شيء من هذا القبيل. كنتُ أشعر بأنني كاملة. بأنني أنا نفسي أكثر من أي وقت مضى. بعض الماء يحجز في السدود. وبعض الماء يتدفَّق من الينابيع بحرِّية في الجداول المفتوحة. وإذا كان الحبُّ حقيقياً، فهو ليس خطأً. وللحب أشكال عديدة.

على مدى أيام، لم ينظر علي في وجهي. ثمَّ، في إحدى الليالي، جاء إلى المطبخ، وجلس على كرسي. وقال: «يشعر والدي بخيبة أمل. وهو يرفض التحدُّث إليَّ. أنا مريض يا مهسا ويمكنكِ مساعدتي في حل هذه المشكلة. أنا أعلم أنكِ تعرفين أين هي».

مع غياب ليلوما، كانت أيامي أطول بكثير ممَّا كانت عليه. أحياناً، كنتُ ألتقي كمال في الصباح. وحالَ اجتيازي عتبة بابه أسارع إلى خلع النقاب، وقبل أن أخلع معطفي، يكون قد طوقني بذراعيه. كنا نمارس الحبّ، وكان كل شيء أسهل عندما نكون معاً، كنا نستلقي هادئين ونستمتع بالصمت.

سألني: «لماذا ترتدين النقاب؟».

استهجنت سؤاله:

- «لماذا؟».

* «إذا اكتُشف أمري، فسوف أكون مثل الجيفة المعروضة لدى بائع اللحم، دون أي ساق لأقف عليها».

النكات تشبه الثلج، فهي تهدف إلى التهدئة. لطالما تغيَّر العالم إلى الأبد بدءاً من أحداث صغيرة وكلمات قليلة. بعد كل تلك السنوات كنتُ أخيراً قادرة على أن أقول لكمال "الآن"، بينما كنتُ أتصرَّف طوال حياتي بحيث أتدبَّر الأمور في "هذه المرحلة". غادرتُ باكستان لأتفادى المشاكل في " هذه المرحلة "، وحاولتُ إنجاح زواجي من أجل " هذه المرحلة"، ولكي أبقي ابنتي آمنة في "هذه المرحلة"، وأجَّلت العزف مع كاثرين في "هذه المرحلة". ولكنني في الحقيقة كنتُ أحبُ كلمة كمال "دائماً". فقد كان يقول: سأحبكِ دائماً. أفكِّر فيكِ دائماً. نحن دائماً نفعل هذا أولاً.

وأخيراً اتصلت ليلوما هاتفياً، وسألتني: «مور، لماذا حدث كل هذا؟ أنا لم أرتكب أي إثم. لقد كنتُ دائماً ابنة مطيعة».

* «ليست لديّ إجابة عن سؤالكِ. أحياناً يكون ذنب الثعلب الوحيد هو سرعته».

- «ماذا فعلتُ، مور؟».

* «لم ترتكبي أي خطأ، ليلوما. كنا نتوقَّع حدوث مثل هذا الأمر. أين أنت؟».

- «وعدتُ كاثرين بألا أبوح بمكاني. قالت إنها الطريقة الوحيدة لأكون في أمان. فنحن لا نعرف ما قد يقدم عليه أبو. لذلك، عليَّ أن أبقى مختفية».

تحدَّثتُ معها مطوَّلاً، لم أكن أريد أن أنهي المكالمة. تخيَّلتها في مكان بعيد حيث الأشجار الداكنة والأرواح وموسيقى الجاز الحرة.

- «كنتُ خائفة جدَّاً في المطار يا مور. لم أكن أعرف ما الذي سيفعله

جدِّي إذا ما أجبروني على الذهاب. لن يسمح لي بالخروج وحدي مجدَّداً. وأنا لا أعرف أي شيء في كراتشي. حاول جدِّي تجاوز رجال الأمن في المطار بينما هم يأخذونني بعيداً. كان عليكِ أن تري وجه آصف».

أصبح صوتها أكثر مرحاً، وقالت: «مور، كان ذلك رائعاً بشكل ما. عندما أخبرني ضبَّاط شرطة المطار بأنني بلغت السنَّ القانونية ولديَّ حرِّية المغادرة إلى حيث أريد لم أستطع أن أصدِّق ذلك. لم أكن أعرف بأنني بلغت السنَّ القانونية. لماذا لم تخبريني؟».

* «لم أكن أعرف ذلك أيضاً».

لماذا لم أكن أعرف بهذه الأمور قبلاً، كنتُ على الأقل تحدَّثتُ معها في هذا الأمر قبل وقوع كل ما حدث؟

سألتني: «ماذا لو أجبروني على الذهاب؟».

وصفتْ لي سفرها إلى الغرب وحدها، وقالت: «مور، المال الذي أعطيتني إياه كان كافياً لشراء التذاكر. كنتُ دائماً أعتقد بأنكِ كنتِ مجنونة لإعطائي هذا المبلغ الكبير من المال. ماذا لو لم يكن معي مثل هذا المبلغ؟».

روتْ لي كيف حملتْ النقود ضمن حزام على الخصر صنعته بنفسها، وأنها كانت خائفة من فقدانه طوال دراستها في المدرسة الثانوية. قالت لي كم اشتاقت للمنزل وسألتني: «هل سيكرهني أبو إلى الأبد؟». في الخلفية سمعتُ صوت شخص يعزف موسيقى باخ. استطعتُ تمييز ذلك العزف الخاص. إنها ماتش. قلتُ: «ليلوما، يمكن ليد مكسورة أن تُشفى وتعمل، لكن القلب المكسور لا شفاء له».

* «مور، لا أريد أنْ يكرهني أبو».

- «أبو يحبُّكِ».

* «حسناً من الأفضل أن أذهب الآن». ثمَّ أضافت: «يا لها من طريقة لطيفة لإظهار حبِّه!».

شاهدتُ أوراق الشجر تدور عند النافذة، واستمعتُ إلى صوت الرياح. فكَّرتُ في قصَّة الجنِّي الذي سجن امرأة في تابوت زجاجي مقفل بأربعة أقفال متينة، وأبقاها محبوسة تحت سطح البحر لأنه كان يحبُّها، ولكنها تمكَّنت على الرغم من ذلك من الفرار. عندما عادتْ إلى العالم، قرَّرت أن تأخذ خاتماً من كل رجل تغويه، وهو ما فعلته بالفعل. لاحقاً، التقتْ بأميرين اثنين، وأغوتهما كعادتها، وأخذتْ اثنين من خواتمهما كغنيمة. كانا الرجلين التاسع والتسعين والمئة اللذين تغويهما. وقالت: «يجب على الرجال أن يمتنعوا عن حبس زوجاتهم في توابيت زجاجية لأن ذلك لا يعلمهنَّ إلا المكر».

من حكم عليَّ أن أعيش بشرف ولكن دون معنى؟ بأن أحافظ على السلام في عائلتي؟ كان في إمكاني أن أغادر، ولكن علي كان قد عاود العلاج مرَّة أخرى. كيف يمكنني أن أتركه وحيداً دون أي شخص يعتني به؟ حيثما يتصارع الحب والواجب لا يعود هناك مكان للفرح بانتصار الواجب. في لحظاتي الوحيدة المظلمة، كانت الرغبة تمسُّني بنبض أبدي كامتلاء السماء الليلية بالنجوم الميتة والحية.

وعندما تمكنتُ أخيراً من الحديث مع ماتش مرة أخرى، قالت لي: «لا تقلقي، أنا أساعدها».

* «كيف هي حياتكِ بعد الزواج؟».

- «أنا أحبّها وأستمتع بها كثيراً. قريباً سيكون لديَّ طفل. وأنا أقوم بتدريس البيانو. الموسيقى الكلاسيكية طبعاً».

شعرتُ عبر الهاتف بأمل وطاقة الفتيات الشابات، وتمنَّيتُ لو كنتُ هناك معهنَّ.

في إحدى الليالي، تجرأت ليلوما على الاتصال بالمنزل في الوقت الذي تعرف تماماً بأن علي يتواجد خلاله في المنزل. قالت: «عيد شكر سعيد، مور». سمعني علي أتحدَّث على الهاتف وسألني: «هلْ هذه هي؟». أشحتُ بوجهي عنه، لكنه أخذ سمَّاعة الهاتف وقال: «أنتِ ميتة بالنسبة إليَّ».

أصبح علي أكثر نُحلاً. كان قد صفح عن آصف ودرَّبه لتولِّي الأعمال. وقال: «الأسرة عذاب يجب تحمُّله». اتصلت حماتي قائلة: «كيف حال آصف وليلوما؟». وكأن شيئاً لم يحدث. في تلك الفترة، كانت أيام العطل وحيدة ومملَّة، عيد الميلاد، وعيد الفطر، وعيد الفصح الحزين جدّاً. كان بيتي هادئاً وفارغاً، كنتُ أصطحب علي في السيَّارة إلى مواعيده. ونتحدَّث عن الطقس. وفي مكان ما في لندن كانت هناك امرأة أحبَّته فترة أطول من الفترة التي عرفني فيها. عدُت إلى التدريس مرة أخرى. ثمَّ جاءت اللحظة التي بدأ يُحتضر فيها فعلاً.

كان يتظاهر بأن الأمور على ما يرام. وفي إحدى الليالي سألني: «ألم تشارف ليلوما على الانتهاء من دراستها؟ يجب عليها أن تأتي لتزورنا في فصل الصيف».

* «علي، لا أعتقد بأنها سوف تفعل».

- «ما زال وعدنا قائماً تجاه عريسها».

* «أعرف ذلك».

- «يجب عليكِ إقناعها».

بقيتُ معه لأنني لم أكن أحتمل أن أكون أنا الضربة الأخيرة التي ستدمِّر في نهاية المطاف عائلتنا المتصدِّعة. لم أكن أحبُّه. وفي المكان الذي ولدتُ فيه، يمكن أن يُسمَّى ما أقوم به بالشرف، وهنا يمكن أن يُسمَّى بالولاء،

ولكن هذه الكلمات لا تصف أبداً مشاعر امرأة اعتنتْ برجل وحملتْ أطفاله بغض النظر عمَّا إذا كان ذلك بإرادتها أم لا. ربما كان ينبغي لي أن أكون أكثر قسوة. كان في وسعي هجره والذهاب إلى نيويورك أو إلى الغرب حيث ليلوما. قضيتُ كامل زواجي في إهمال قلبي ورغباتي، وكان الثمن الذي دفعته بأن عشتُ حياة مسجونة ومقيَّدة.

كاثرين

كانت الجولة مع سيسيل ناجحة جدّاً. فقد كان يعزف بأقصى قدراته الإبداعية. عزفنا بحرِّية كاملة، وكنا نغيظ بعضنا البعض على المسرح، وسرعان ما أصبحنا نمارس الحب بعد العروض. كنتُ أحبُّ الشعور الذي أحسُّه عندما يلمسني بيديه الكبيرتين على ظهري. كان من الرائع أن أشعر بشعور العشيقة بعد كل تلك السنوات من الوحدة. يا إلهي! كانت تلك الأيام لا تُصدَّق، كنا نستمتع بوقتنا إلى أقصى الحدود. كنا نمارس الجنس الحلو. الجنس السعيد. الجنس الذي لا يُصدَّق. الجنس المنهك. كنتُ أستمتع بكل ذلك. وكان هو أيضاً كذلك.

قال مازحاً: «دعينا نستمتع بذلك بما إنه لم يعد لديَّ حبيبة في ريد ليك بعد الآن».

شعرتُ وكأنني طفلة. أمِّي ماتت وأولادي أصبحوا بالغين، كنتُ حرَّة بلا أي قيد. خلال تلك الجولة، كنتُ أرتجل بجنون، وأعزف ليلة بعد ليلة في اليابان وإندونيسيا والهند. وكانت محطَّتنا الأخيرة في باكستان. كنّا غريبين وملفتين للنظر في معظم الأماكن التي زرناها، وكان معظم الحضور يتقبَّلون موسيقانا. كان ذهني متفتِّحاً تماماً. وكان وطني هو المكان الذي أكون فيه أنا. كم قضينا من أوقات طيِّبة!

طلبتُ أن نعزف في فندق "بيتش لاكشري"، وذلك لكي أرى المكان

الذي جاءت منه مهسا. في خزائن غرفة الفندق كانت هناك سَّجادات للصلاة ومصاحف القرآن الكريم. وعلى الطاولة سهم معدني يشير إلى اتجاه القبلة في مكَّة المكرَّمة. لم تعد تلك مدينة مهسا التي عرفتها هي في يوم من الأيَّام. كانت مكاناً للعنف البطيء، وذلكِ قبل أشهر على عملية "بلو فوكس". كان القادة يتحدَّثون صراحة عن القضاء على أي شخص ينتمي إلى "حركة المهاجر القومي".

استأجرت سيَّارة لتأخذني في جولة في المدينة، ولرؤية قبر محمد علي جناح[1]، والجِمال على الشاطئ، والثعابين في الأسواق. كانت الشوارع تمتلئ بالبنادق والجيش وعربات بيع الأطعمة والموسيقيين الجوَّالين. كما كان هناك شخص متحوِّل جنسياً يتسوَّل في الشوارع. مشت النساء المحجَّبات في مجموعات صغيرة، فيما كانت هناك فتيات غير محجَّبات يرتدين أحذية غربية. كما استُخدمتْ حاويات الشحن لسدِّ الطرق وإبطاء حركة المرور. وأحيطتْ الفنادق والمحلات التجارية بالأسلاك الشائكة.

عزفنا قليلاً في نادٍ صغير يُسمَّى "007" في فندق "بيتش لاكشري"، وأتى عازف جيتار اسمه نورمان دسوزا مع بعض الموسيقيين الجوالين وانضمُّوا للعزف معنا. كانوا يعرفون أغاني الروك أند رول القديمة، وأنهينا الحفل بعزف أغنية "الحب في كل مكان" التي لم يعزفها سيسيل من قبل ولكن كان من السهل عليه أن يتتبَّع لحنها. أرسلتُ إلى مهسا بطاقة بريدية من الفندق في الصباح قائلة: انظري أين انتهى بي المطاف!

1- محمد علي جناح (1876 - 1948) محام وسياسي ومؤسس دولة باكستان. تزعم جناح عصبة مسلمي عموم الهند من 1913 إلى غاية استقلال باكستان في 14 آب 1947، ليصير بعدها أول حاكم عام لباكستان من استقلالها وحتى وفاته. في باكستان، يعتبر القائد الأعظم وأبو الأمة، واتخذ من تاريخ ميلاده عيداً وطنياً. (م).

جلس سيسيل في السرير وأعطاني رشفة من فنجان قهوته.

قلتُ: «اعتقدَ أحد النذل بأنني أعزف لحناً لأغنية شعبية في بلدته. كيف تظنُّ أنها وصلت إلى هناك؟».

التقطتُ جريدة "الفجر" ونظرتُ إلى خريطة المدينة اليومية التي تصدرها الجريدة والتي تلخِّص فيها حوادث إطلاق النار والقنابل التي وقعت في اليوم السابق، تماماً مثل نيويورك في السبعينيات. وفكَّرتُ كم كانت معرفتي سطحية بظروف حياة مهسا!

استلقى سيسيل عارياً تحت الغطاء، مسترخياً في الحرارة. كنا قد عملنا بجد. قال: «إنه اليوم الأخير. ولا أريد أن أعود».

كنتُ أعرف ما الذي كان يقصده. كنتُ أرغب في الاستمرار على هذه الحالة إلى الأبد. قلتُ له: «عندما كنتُ طفلة ذهبت إلى متجر قريب من المنزل لشراء السجائر لأمِّي. رأيتُ اثنين من أولئك الذين يسافرون عن طريق التطفُّل على الحافلات، كانا من أمريكا الجنوبية. ويحملان حقائب الظهر ويرتديان أوشحة حمراء وصفراء وبرتقالية حول عنقهما. وبمجرَّد أن وقع ناظري عليهما أدركتُ أنني كنت أشبههما. ومنذ ذلك اليوم وأنا أريد أن أكون على الطريق».

شربتُ قهوة سيسيل وغمزته قائلة: «وفقاً للثقافات الجوَّالة فقد كان من الطبيعي أن يتشارك الرجال زوجاتهم».

* «صحيح».

- «سمعتُ بأنه تبعاً لعادات شعب الإنويت[1]، إذا عرضت المرأة ممارسة الجنس على زائر فإن زوجها لا يمانع ذلك».

1- الإنويت أو الإسكيمو: شعب يسكن في شمال الكرة الأرضية.

* «ما رأيك بأن أذهبَ إلى الردهة وأطرق على باب غرفة لا على التعيين وأقول بأنني زائر؟».

ضحكتُ: «عليكَ محاولة ذلك».

* «ألا يشعر الزوج بالغيرة مطلقاً؟».

- «لا أعرف. إلا أن الزوج يطلق على الزائر اسم "أيباك" أي: أنا-الآخر».

أمسك سيسيل يدي وسحبني إليه. وأضاف: «ذلك يحل الكثير من المشاكل. الليلة هي الليلة الأخيرة يا كات. بعد غد سوف نعود إلى مانهاتن. هل ستعودين إلى "أيباك" الخاص بكِ؟».

مهسا

كانت ذراعا علي قويتين. عندما كان يشعر بالسعادة، كان يرفع ذراعيه ليجعل من نفسه أكبر، وعندما كان يؤنِّبني كانت يداه تنقبضان وتقسوان. وفي مواقف أخرى، اعتاد أن يفتح يده اليمنى ويشير إلى الباب الأمامي مع إبهام مرفوع وسبابة مستقيمة ليقول لي بأنه سيتأخَّر في العودة إلى المنزل. لم يكن يعي هذه الحركات. واستنتجتُ مدى تدهور حالته من ضعف قبضته. أصبح مع الوقت أقل وأقل قدرة على تحريك نفسه وعلى تحريك أردافه وساقيه كي أتمكَّن من رفعه. يقولون باللغة الإنكليزية للدلالة على ثقل شيء ما: «ثقيل مثل الأموات». وهذا دقيق تماماً.

سألته: «هل تشعر بالألم؟».

* «أتألم كلَّما تحرَّكتُ».

وهكذا، فقد أصبحت أشياء بسيطة مثل تغيير بياضات السرير، وإبقائه نظيفاً، ورفعه لارتشاف قطرة من الماء محنة مؤلمة بالنسبة إليه. يفعل الجسم أشياء مؤلمة. فهو لا يستسلم بسهولة. بعد أن خضع للقثطرة لم يعد يتحرَّك بأي شكل يذكر. كانت هذه نقطة تحول نهائية. إن زواجاً مثل زواجنا هو حالة إنكار دائمة لشيء مفقود. وتكون أسهل طريقة للتعايش مع هذا الفقد هي عدم الاعتراف به ونكرانه دائماً وأبداً. بدت لي أشهر

رعايته طويلة بالطريقة نفسها التي يبدو فيها الحلم طويلاً بينما أنتَ تحلم به. كنتُ أغادر غرفته عندما تأتي الممرِّضة بعد ظهر كل يوم أو عندما يجلس آصف معه في المساء. وكنتُ أضع سريراً متحرِّكاً إلى أسفل سريره وأنام، منصتة لأدنى تغيير في نمط تنفُّسه، بالطريقة نفسها التي كنتُ أستمع فيها خلال نومي إلى أصوات طفليَّ عندما كانا حديثي الولادة. انكمش جسده وشاخ وبدا شكله غريباً وخارقاً للطبيعة مثل والده. عندما جاء والده ووالدته في زيارتهم الأخيرة، كنا نتنقل عبر الغرف بهدوء، وكان علي يجد العزاء في الساعات التي قضاها مع والدته التي كانت تبكي كلَّما غادرت الغرفة. جلست حماتي عند طاولة المطبخ لشرب الشاي، وقالت: «إنه يريد ليلوما. عليكِ أن تعيديها إلى المنزل».

* «أنا لا أعرف أين هي».

تعمَّقت التجعيدة بين حاجبيها، واخترقتني نظراتها بغرض تحقيق ما أرادت، بالقوَّة أو بالتملُّق. ولطالما كنتُ بنظرها مثل الخادمة التي تنتظر أوامرها عند الباب.

قالت: «إنها رغبته الأخيرة. سأطلب ذلك من آصف في حال لم تفعلي أي شيء حيال الموضوع. ولا يمكنكِ أن تمنعي ذلك».

* «بلى، أستطيع».

كنتُ أفرِّغ جلَّ غضبي في الطبخ، وتقطيع الخضراوات بلا صوت، وترتيب الأواني بحيث لا تصدر قرقعة عندما أخرجها من الخزائن. خلال زيارتهما تلك نظَّفتُ جميع النوافذ. وبانشغالي بهذه الطريقة كنتُ أكثر قدرة على المحافظة على السلام مع حماتي. تأمَّلتُ جزيئات الضوء التي تمرُّ عبر الزجاج النظيف تماماً. كنتُ أستيقظ قبل ساعات منهما، كنتُ أشعر بثقل معاناتهما مع حزنهما الخاص، فلا ينبغي للابن أن يموت قبل

والديه. عند الفجر، إذا كان علي نائماً، كنتُ أجلس عند النافذة وأشاهد الغبار يدور في الهواء. كنتُ أتخيَّل نفسي أدور معه. ومع أن احتياجاته كانت مختلفة الآن، فقد كنتُ أعرف ما الذي يجعله مرتاحاً وما يريده مني. خلال احتضاره، كان يصدر أوامره للعالم بسلطوية أقل، ولكنه كان لا يزال يحاول. أردتُ الحفاظ على كرامته وكان يشكرني أحياناً. جاء شكره لي متأخِّراً جدَّاً وبلا معنى، بعد كل تلك السنوات التي قضاها في اللامبالاة. قال لي في أحد الأيام: لا يمكن للمرء أن يحارب المرض. فهو يصيبه فحسب. وأومأتُ بالموافقة لأنني أعرف بأن ما يقوله كان صحيحاً.

بدأتْ نظرة العينين المنعزلتين. أحضرتُ له، في صباح أحد الأيام، صوراً من سنواتنا الأولى معاً، عندما كان الأطفال صغاراً، وكان هو رجلاً وسيماً وحيوياً وُلِدَ في كراتشي، وتلقَّى تعليمه في لندن، وأنشأ عائلته في مونتريال، عندما كنتُ لا أزال مفعمة بالأمل وأحاول إرضاءه. كنا في أفضل حالاتنا في السنة الأولى ونحن نربِّي آصف معاً. جلستُ على السرير بجانبه لمشاركته الصور لكنه ألقى نظرة خاطفة فقط ودفعها بعيداً عنه. تمنَّيتُ لو يقول لي أية كلمة طيِّبة. لكنه لم يستطع أن يحمل نفسه على أن يقول لي ذلك. قال: «ما هو الوقت؟ آصف قادم. وعليكِ الذهاب للتسوُّق».

عدتُ إلى البيت على عجل في ذلك اليوم لأنه كان ضعيفاً جدَّاً، وعندما خطوتُ إلى الداخل، تفاجأتُ برؤية امرأة في الردهة تهِمُّ بارتداء معطفها استعداداً للمغادرة. ارتبكتْ عندما رأتني، وقالت بلكنة بريطانية: «آصف سمح لي بالدخول. أنا شريكة أعمال قديمة لزوجكِ. وأنا سعيدة بمقابلتكِ».

تصرَّفتُ بطريقة طبيعية. فلم يعد هناك شيء مهمٌّ بعد الآن. جزء مني كان يريد أن يطلب منها الجلوس لتناول كوب من الشاي، ولكنه كان

الفضول فحسب، وليس اهتماماً حقيقياً بها، ولذلك فلم أطلب منها أياً من ذلك. من الصعب الاهتمام بشخص يُحتضر، ولكن من الجيِّد القيام بذلك على أفضل وجه. اعتادت مور على القول: «إن لم يكن لدى المرء سوى بعض البصل ليقدِّمه للآخرين، فليقم بذلك بسخاء ولطف».

عادت ليلوما إلى المنزل. عندما رأته، هزيلاً ومريضاً لهذه الدرجة، تراجعت خطوة إلى الوراء، ثم أوقفت نفسها واقتربت منه فاتحة ذراعيها. كان متصلِّباً وربَّت على ظهرها وهي تقول: «أبو. أنا آسفة جداً،" فأجاب: «ما زلتِ منذورةً لذلك الرجل».

حاولتْ ألا تبقى لوحدها معه. وفي خضمِّ حزنهما الفوضوي، حاولتْ هي وآصف تحييد الاضطراب والتوتُّر الذي طغى على أسرتنا في محاولة لإظهار حبِّهما. بمشاهدتهم مجتمعين كلهم معاً كنتُ أشهد أخيراً، ودون أي خجل، التجسيد الأقصى لأكاذيب أسرتنا. قريباً سأكون أرملة وحرَّة، ولم تكن تلك حرِّية غفلة الشباب، وإنما حرِّية مستحقة بعد طول معاناة. كان آصف وليلوما يتنقلان من وإلى غرفة علي، ووجهاهما متوجِّسان. لم تخبرني ليلوما أبداً بما وعدت أو لم تعد به والدها. وكذلك امتنع آصف عن قول أي شيء. كانت تلك أول حادثة احتضار يشهدانها. ولم يكن في وسعهما أن يدركا أن شعورهما لن يصبح أفضل عندما ينتهي كل شيء أخيراً. دلّكت قدميه الباردتين. وبمجرَّد أن أصبحنا وحدنا، نظر إليَّ وقال: «أعتقد بأنني قمتُ بكل شيء على أكمل وجه».

* «نعم، علي، لقد قمتَ بذلك».

كنتُ أريد أن أتجاوز أية قسوة قائمة بيننا. ولكن لا يمكن لإرادة المرء أن تفعل الكثير حيال هذا الأمر. هناك حُجُب بين الإنسان والله، وبين الإنسان ونفسه، سبع سماوات، وسبع بوابات إلى الجحيم. ولم نتمكَّن

أنا وعلي من إيجاد وسيلة لنقول فيها لبعضنا البعض: «الأشياء التي لا تنتمي إلينا قد وسمت حياتنا وتحكَّمت بنا». قال لي في آخر مرَّة كان قادراً فيها على النطق بكلمات مفهومة: «لقد حاولنا». ثمَّ صمت وأضاف: «لقد كانت حياة كاملة».

عندما مات علي، في الساعة الثالثة وسبع وثلاثين دقيقة فجراً، اختفى آصف في مكتب الشركة في وسط المدينة. وعاد إلى البيت بعد شروق الشمس، قال إنه أجرى اتصالات هاتفية مع الأسرة وشركاء العمل في الخارج، بما في ذلك أقدم صديق لعلي في باكستان، الذي كان علي قد وعده بتزويج ليلوما إلى أحد أبنائه. دعا آصف ليلوما إلى غرفة نومه، وعند خروجهما مرة أخرى، بدا وجهها صافياً كما لم يكن منذ أن كانت في الثالثة عشرة من عمرها. وأياً كان الواجب المتعلِّق بذلك الوعد وذلك الزواج فقد تمكَّن آصف من جعل ليلوما في حلٍّ منه. ولا بدَّ من أن المال قد حلَّ كل شيء. لا أعرف. فالمال يحلُّ العديد من المشاكل، وهو بذلك وسيلة مريرة وسطحية لحلها. من الأفضل استخدام العينين والكلمات اللطيفة، ولكنَّ ذلك ليس ممكناً دوماً.

وفقاً للتقاليد، تكون فترة حداد المرأة على من يموت من عائلتها ثلاثة أيام فقط، باستثناء زوجها، حيث تكون فترة حدادها أربعة أشهر وعشرة أيام. وترتدي الأرملة ثوباً بسيطاً، وتمتنع عن وضع أي كحل أو عطر، باستثناء القليل من بخور القسط أو الأظفار عندما تنظِّف نفسها بعد فترة الحيض. ولكنني كنتُ قد تجاوزت مسائل التقاليد هذه. كبر أولادي. وسأكون كما أريد أنا أن أكون، وليحصل ما يحصل. فقد حرَّرتُ نفسي.

قام آصف بغسل ولفِّ جثمان أبيه في الكفن استعداداً لدفنه. وساعدته في غسل جسده المألوف، الذي أصبح بارداً ومتصلِّباً الآن، ومسَّدتُ

التجعيدة المعتادة بين حاجبيه للمرَّة الأخيرة. حملوه إلى المقبرة الإسلامية في لافال.

دخل ابني عبر أحد أبواب المسجد، ودخلتُ أنا وليلوما من باب آخر. سمعنا صلاة الجنازة، التي تُقام على روح الميت.

اللهمَّ اغفر له وارحمه، وعافه واعفُ عنه، ونقِّه من الخطايا كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدَنَس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجه، وأدخله الجنة.

صلَّيتُ مع النساء. ولكن لم يكن لغضبي أن ينطفئ، ليس في يوم آخر أو بعد ألف يوم. وفق التقاليد، لا يسمح للمرأة بالاقتراب من القبر عندما يكون رجال هناك، وهكذا، من مكاننا في السيَّارة، شاهدتُ أنا وليلوما آصف وغيره من الرجال وهم يوارون جسده في الثرى، وعندما انفضَّ الرجال، سُمح لي وليلوما بالاقتراب من القبر المغلق.

في تلك الليلة، كنا وحدنا أخيراً. جلس آصف وليلوما يتحدَّثان معاً ويتأمَّلان صور والدهما، وكنت أتساءل ما هي الذكريات التي سوف تستقرُّ في ذهنيهما. يلوم الأطفال في بعض الأحيان الوالد الذي يستمرُّ في العيش بعد وفاة أحد الوالدين. تركتهما، وقد أصبحتُ أرملة الآن. مشيتُ عبر الظلام إلى النهر. أخرجتُ نقابي من جيبي، قطعة القماش السوداء التي لم يرها علي أبداً. لففتها لفاً محكماً حول حجر. واقتربت من الضفة والقيتُ بها بعيداً، شاهدتها تختفي تحت المياه السوداء السريعة التي تدفَّقت دون فرح ولا ندم نحو البحر.

كاثرين

أَلَّفتُ ما يكفي لتسجيل ألبوم كامل من الموسيقى التي تلائم آلَتَي بيانو والتي سوف أسجِّلها مع مهسا. استمرَّت الحياة منذ أن أَلَّفتُ "الشيء الجديد". أُجريت ترتيبات لكي أعزف في مهرجان المرأة لموسيقى الجاز في ولاية أوهايو، وأن أقوم بجولة إلى البرازيل. أعلمتني مهسا بأن علي قد توفِّي عندما كنتُ في بلاك فورست في طريقي إلى برلين. كان لا بدَّ لي من قول شيء ما، لذلك كتبتُ لها على بطاقة: «أيها القلب الغالي، أنتَ في قلبي».

لا تهتم الطبيعة للموسيقى أو الأطفال أو العشَّاق أو طول فترة حياة أحد. تسعى الطبيعة بلا هوادة نحو الحياة. وعندما وصلتُ إلى البيت اتصلتُ بها في مونتريال قبل أن أذهب إلى ولاية أوهايو وأخبرتها بأن وكيل أعمالي قد حجز جولتنا، وبأنه لا بدَّ لنا من التمرُّن.

قالت: «عودي في أقرب وقت. أنا جاهزة».

مهسا

عندما رأيتُ كمال لأوَّل مرَّة بعد وفاة علي، لم أكن أريد ممارسة الحب معه. كنتُ توَّاقة إلى الجلوس والبكاء. جلس هو بالقرب مني دون أن يلمسني. كان مضى وقت طويل منذ آخر مرَّة رأينا فيها بعضنا البعض. قلتُ: «أشعر بأنني أريد الخوض في النهر، والانتهاء طافية في المحيط».

* «سآتي معكِ».

لم أكن معتادة على وجود رجل يريد أن يكون معي بهذه الطريقة. كنتُ قد نسيتُ دفئه. أجبته: «حسناً، ليس الآن. دعنا نقم ببعض الأشياء أوَّلاً. فما زلتُ أريد أن أعزف».

سمحتُ له بأن يلفَّني بذراعيه. كنا دائماً نقوم بهذا أوَّلاً.

مهسا

قال لي تي عبر الهاتف: «لقد رحلت. دون سابق إنذار. دون قول أي شيء».

وأضاف: «الأشخاص مثل كاتي لا يموتون. كانت قد عادت لتوِّها من البرازيل وكنا نجلس معاً بصحبة الأولاد. كانت تجلس على ركبتي بينما أتأرجح على الكرسي، وهي عادة أزعجتها دوماً لأنني تسبَّبتُ في كسر عددٍ من الكراسي بهذه الطريقة. كانت بيا محشورة على كرسي دكستر، وتشكو من أن أحدهم لا يأخذها على محمل الجد، وقال جيمي لها: لديكِ القدرة على قول ما تريدين. ولا تحتاجين أي شخص ليعطيكِ الضوء الأخضر.

انحنت كاتي نحوي وهمست: انظر ما صنعنا، وسأل جيمي: ماذا صنعتما؟ ضحك الجميع وكنا نستمتع بوقتنا. كانت سعيدة عندما نجتمع كلنا معاً. لم أحقِّق لها ذلك بما فيه الكفاية. لم نقلق عندما قالت إنها ترغب في الذهاب إلى الفراش. نادتني من غرفة النوم ولم أُعر الموضوع الكثير من الاهتمام لأنني كنت أستمتع بوقتي، ولكن في المرَّة الثانية التي نادتني فيها، ذهبتُ إليها».

كانت تعاني من مرض تمدُّد الأوعية الدموية.

أضاف تي: «كانت رحلتها طويلة وصعبة. وكانت تعمل دائماً وتجهد

نفسها. كانت ترى أنها تعوِّض بذلك ما فاتها. لم تكن تريد أن تبقى ساكنة في مكانها إلا عندما تجلس إلى البيانو لتعزف، ولم يكن ذلك سكوناً، كان ذلك يعني البقاء في مكان واحد فقط. سمعتُ تلك النبرة في صوتها وكنتُ أعرف ما أرادت لذلك ذهبتُ إليها كما أفعل دائماً عندما أسمع تلك النبرة. دائماً كنا نذهب إلى بعضنا البعض عندما نسمع ذلك ومن ثمَّ، ساد الصمت».

كنتُ أرغب كثيراً في سماع صوت كاثرين. تخيَّلتُ درجاً ضيقاً يؤدِّي إلى القبو حيث تقع غرف المنزل القديم في ماونتن برو، ورائحة الدخان الثقيلة وأمَّها وهي تضع في السرير فتاة صغيرة والدها في الصين. فكَّرتُ في كاثرين وهي تشاهد طفلتها الصغيرة تكسر دزينة بيض حتى تتمكَّن من الاستماع إلى كولترين، وتذكَّرتُ كيف دعوتها للعزف معي في "سيرف ميد" عندما كنا نحن الاثنتان جديدتين في نيويورك، في تلك الليلة التي أصبحنا فيها صديقتين، والسنوات التي تلتْ، والتي قضيناها نعزف لبعضنا البعض عبر الهاتف. كنتُ حرَّة جدَّاً عندما التقيت بها لأوَّل مرَّة، قبل أن أتزوَّج، عندما كنتُ أسافر ذهاباً وإياباً على متن الحافلة.

ماذا عن جولتنا؟ يا إلهي كم الأحياء أنانيون! تخيّلَتُ تي وهو يدخل غرفة النوم في تلك الليلة الأخيرة، رجل كاثرين طويل القامة، يمشي إليها، لم يعد جميلاً كما كان. وأتخيَّل الطريقة التي لا بدَّ من أنها نظرت بها إلى عينيه، هل كانت تضجُّ بالعطاء أو بالرغبة، أم أنها كانت تشعر بالفعل بالضعف، أو الألم، وهل عانقها في الليلة الأخيرة؟ يبقى عشَّاق الناس الآخرين لغزاً، ما يقبلونه وما يرفضونه. كان من المفترض أن يكون أمام تي وكاثرين الكثير من الوقت. لا بدَّ من أنها راقبته وهو يغلق الباب ويخلع قميصه، ويستلقي بجانبها. تخيَّلتُ نومهما في أحضان بعضهما البعض في

تلك الليلة الأخيرة لها في هذه الدنيا. النوم هو أكثر جمالاً بقرب الحبيب. من في إمكانه أن يفسِّر معجزة الحب الذي يدوم مدى الحياة؟

جاءت ليلوما من الساحل الغربي وهي تحمل حقيبة صغيرة. وسافر آصف ليقف إلى جانب دكستر وجيمي. أُقيم حفل التأبين في مسرح "برومينيد". حيث عزف فنَّانو الجاز تحيَّةً لروحها، وقرأ الطلاب كلمات التقدير، ورأيتُ الكثير من الشباب الذين كانوا في أكاديمية "بروكلين للموسيقى". رقصت بيا. وعزف تي، فقد كان عزفه هو الأحب إلى قلبها وربَّما عزفي أنا أيضاً.

تحدَّثتْ بيا من على المنصَّة المغطَّاة بالورود والزنبق، وكان كل شيء دراميّاً مثل كاثرين. علَّقوا ثلاث قبَّعاتٍ من أكبر قبَّعاتها على شجرة في القاعة، ووضعوا صورة لها على حامل، وبالطبع عزفوا موسيقاها. قالت بيا: «كان البيانو من أهمِّ الأشياء في حياة أمِّي. انتقلنا من هاميلتون إلى هنا في سيَّارة مكشوفة حمراء حتى تتمكَّن من العزف. وعندما لم تكن تعزف أو تدرِّس فقد كانت تستمتع بالمشي في نيويورك والقراءة. كان في إمكانك المشي معها لساعات. عندما كنتُ طفلة صغيرة، كانت تعزف خلال دروس الباليه الخاصَّة بي، وكنا بعد ذلك نستعجل العودة إلى المنزل لأن أخويَّ كانا ينتظراننا. أخذتني في هاملتون إلى أوَّل عرض باليه أحضره في حياتي، حيث وصلنا إلى القاعة ولم يكن هناك مكان للجلوس، ثم تقدَّم منها أحد الأشخاص وأعطاها كرسيين في المقدَّمة. أعتقد بأنها كانت دائماً محظوظة بعض الشيء، وعندما قلت لها ذلك، قالت: كلما عملتِ بجدٍّ أكثر، زاد حظُّكِ أكثر».

قال دكستر: «كانت لديها ثقة كاملة لا تتزعزع بالنفس. جئنا إلى هنا دون أن نملك شيئاً، ولكننا لم نشعر بذلك أبداً. كنا نمشي عبر الأسواق، وعندما

تجد طماطم شبه تالفة رماها الناس بعيداً، كانت تأخذها وتقول: انظروا إلى هذه، لا يوجد عيب بها. سوف أطبخ لكم الليلة شوربة الخضار. كان يمكنها تدبُّر أمورها حتى وإن لم تكن تملك شيئاً، وقد نجحت في ذلك، لقد استمرَّت بالحياة من أجل وبسبب الموسيقى. لم أكن أعرف متى كانت تجد الوقت لتنام. في بداية انتقالنا إلى هنا، كانت تضعنا في السرير ثم تنزل إلى الطابق السفلي لتعزف، وكانت توصلنا في الصباح إلى المدرسة. كانت سعيدة جدَّاً عندما أنجزت أوَّل تسجيل منفرد لها. حتى أنها وضعت صورتنا على الغلاف».

وقال جيمي: «أنا لا أجيد كثيراً التعبير بالكلمات. كانت شابَّة جدَّاً. ولديها ذوق رهيب في اختيار الملابس». ضحك الجميع وهم يفكِّرون في فساتين الكوكتيل المستعملة التي اعتادت أن ترتديها. وأضاف جيمي: «ماذا يمكنني أن أقول؟ أمِّي ستبقى في قلبي. أنا أنظر إلى كل واحد منكم وأرى أناساً عزفت معهم وأناساً درَّستهم وأعتقد بأنها ستبقى حية في ذاكرة معظمنا في هذه الغرفة، بطريقة أو بأخرى. والآن صديقتها مهسا ويفر، ستعزف لنا».

كان من الصعب جدَّاً أن أختار مقطوعة أعزفها لوحدي، فقد كنتُ أحب الموسيقى التي ألَّفتها كاثرين من أجل آلتَي بيانو، ولذلك فقد قمتُ بإعادة توزيع "أن تحب اثنين". لم أكن قادرة على عزف مقطع كلٍّ منا ولكنني فعلتُ ما في وسعي.

فاض الحضور في ممرَّات المسرح، وجاء تي إليَّ عبر الحشد. قلتُ له: «إنها أفضل صديقة حظيتُ بها في حياتي».

ضمَّني تي والحزن يلفُّه ويطغى على روحه، وبعد وقت طويل أفلتني وقال لي: «كان جسدها بارداً عندما استيقظتُ، وضعتُ إصبعي على شفتيها

الزرقاوين، ولم تقم بأدنى حركة. حاولتُ إيقاظها، كيف يمكن لحبيبتي أن تموت بجانبي بهذه البساطة؟».

مشيتُ بصحبة ليلوما وبيا في سنترال بارك. وأخبرتنا بيا ما تعرفه عن والد كاثرين الصيني، وكيف أنهما تحدَّثتا أخيراً عن اعتقال جدَّتها عندما كانت كاثرين تؤلِّف مقطوعة "الشيء الجديد".

- «ماذا تعرفين عن الموضوع، مهسا؟».

* «أعرف معنى الحزن المظلم. عندما التقينا للمرَّة الأولى، كنا شابَّتين تعشقان موسيقى الجاز. وكنا نتحدَّث دائماً عن الموسيقى وعن أطفالنا. ولطالما أحبَّت كاثرين النظر إلى الأمام وليس إلى الوراء».

جلستْ ليلوما معنا على كرسي في سنترال بارك، كانت بشرتها صافية، وشعرها منسدل، وأظافرها مطلية بلون أحمر، وترتدي حذاء أحمر. كان يوماً بارداً ورطباً. غطَّت الغيوم الشمس وأصبح الجو أكثر برودة. قالت بيا: «سأذهب الآن للقاء أخويَّ. تعالوا لزيارتنا قريباً».

راقبناها وهي تمشي بخفَّة عبر الحديقة، كانت جميلة حتى في حدادها الشرس والكبير. سألتني ليلوما: «كيف يمكن لهم أن يرتكبوا ذلك بحق أمِّ كاثرين؟».

تأتي لحظة تدرك فيها بأن أطفالك لم يعودوا لك، ويكون ذلك الإدراك طبيعياً وحزيناً. لم أستطع تحمُّل أن أخبر ليلوما أكثر عن الموضوع. كما لم أستطع تحمُّل إخبارها عن حقيقة أخوالها الأفغانيين، وعن فقدان أبو ومور، الغاليين على قلبي. وعن غضب القتلى وفوران الدماء. بكيتُ أخيراً، ووضعتْ ليلوما يدها على ذراعي وقالت ببساطة: «مور».

أصبحت طفلتي الصغيرة امرأة قوية يمكن لها مواساة امرأة أخرى. أردتُ أن أخبر كاثرين بذلك.

قمتُ بإنجاز أول تسجيل منفرد لي وأنا أعزف مباشرة في "نواج بلو"، وأهديتُ التسجيل إلى كاثرين. قال لي كمال مازحاً: «لمَ ليس لي؟»، وسألني آصف وليلوما: «لمَ ليس لنا؟». كنتُ أرغب في تضمين قطعة كانت كاثرين تؤلِّفها وتحمل عنوان "فيوليت"، حيث عزفتْ لي كاثرين أجزاءً منها على الهاتف، وشعرتُ بأنها غامضة، وظلَّت عالقة في ذهني طوال الفترة الماضية. لكنها لم ترسل لي النوتة الخاصة بهذه القطعة، وقالت بيا إنها لم تتمكَّن من العثور عليها ضمن أوراق كاثرين. ربما بقيت في رأس كاثرين دون أن تكتبها على الورق.

جاءت بيا وجيمي ودكستر إلى الحفلة التي أقمتها احتفالاً بالتسجيل واستمتعنا سوية. ضمَّ الألبوم تسجيلاً لعزفي مع كاثرين ونحن نعزف "أن تحب اثنين"، وقمتُ بتسجيل قصيدة تلوتها من تأليف حفصة، بينما عزف جان في الخلفية.

بعد الحفلة، قلتُ لكمال عندما وصلنا إلى المنزل، وبدأنا بخلع ثيابنا: «ما كان يرجوه قلبي لم يحدث، تلك كانت مشيئة الله».

* «هل حقّاً تعتقدين ذلك؟».

جلسنا معاً، نتأمَّل الظلام خارج النافذة. ونستمع لتسجيلي. قلتُ: «كانت كاثرين لتكون سعيدة من أجلي. يمكنني سماع صوتها تقول: أخشى ألا تتركي لي مجالاً للعزف».

يستمرُّ الحبُّ إلى ما بعد الموت. وعندما نموت كلنا، تبقى الموسيقى أبدية هنا.

كنتُ أنا وكمال مثل النباتات التي تزهر للمرَّة الثانية. شعرتُ بالحرِّية، كما كنتُ أفعل خلال تلك السنتين الوجيزتين قبل الزواج. سألته: «كيف تشعر؟».

* «لقد وجدتُ ما أبحث عنه».

- «وما هو ذلك؟».

* «الحياة وحبيبة».

لم نكن قادرين على إنجاز معجزة عيش حياة كاملة معاً، لم نستطع أن نعيش سنوات من العمل وتربية الأطفال. لكنه، وعلى الرغم من كل شيء، خاطر وحاول إيجادي مرة أخرى.

أصبحتُ الآن أقضي معظم اليوم في التمرُّن على العزف، والتأليف، والمشي، والاستمتاع بكوني معه. في أحد الأيام، دعاني لتناول الطعام معه. وعندما جلستُ على الطاولة قال لي: «هل تريدين سماع نكتة؟ أن تكون الأوَّل في كل شيء هو أمر جيِّد باستثناء الموت. أليست جيدة؟».

ضحكتُ قائلة: «لا تمت حتى يأتيك الموت».

لم تعد أمامنا الحياة بأكملها. ولذلك فنحن نستمتع بكل لحظة وكأن شيئاً لا ينتظرنا غداً، وبكرم أهل كراتشي، كنا نجد العذر لبعضنا ونقول: كنا صغاراً.

منذ سنوات مضت، بالقرب من بحر العرب، كنتُ أستمتع بلمسة يده على جسدي. ولطالما استمتعتُ بلمسته. وأستمتع بكل حركاته المميزة، حيث يذهب بعيداً إلى عوالم غريبة ويأخذني معه. بعض الحبِّ لا يموت. والآن، ينتظرني كمال وأنا أنتظره.

يعيش موتانا داخلنا، وسنكون معهم خلال وقت قريب بما فيه الكفاية. وبإدراكي لهذه الحقيقة، فأنا أستمتع بعيش ما تبقى لي من أيَّام، والتفاعل مع الأشخاص الجميلين في حياتي. عندما أنظر إلى كمال أرى الشاب الذي فُتنتُ به عندما كنتُ شابَّة، ذلك الشاب الخارق الذي أحببته وتركته في يوم من الأيَّام. أرى الرجل الذي قاسى مع الحياة، والذي وجدني مرَّة أخرى،

الرجل الحكيم الذي عجنته الحياة، ولا يزال يضحك على عبثية كل شيء. وعندما ألتفتُ إليه، تكون ذراعاه مشرعتين لي، بشكل معجز وغامض.

أحياناً أفكِّر في معنى كل ذلك الصراع والنضال؛ هل هذا هو جوهر الحياة؟ ذريعة للاستمرار في معزوفتك حتى تعود إلى النوتة الأولى؟

الصبر مرٌّ، ولكنه يثمر ثمرة حلوة. أريد لجمال وسعادة حياتي أن يستمرًّا إلى الأبد. لا ينتهي الحبُّ بالموت الذي يفرِّق الأم عن طفلها، والحبيب عن حبيبه والصديق عن صديقه. تُوفِّيتْ كاثرين عندما كانت لا تزال صغيرة جدّاً. والآن عليَّ أن أعزف كلاً من دورينا. ما زلتُ أسمع صوتها، وأرى أصابعها على مفاتيح البيانو. قمتُ بجولات موسيقية مع عازفين آخرين، وسافر كمال معي عندما كنتُ أطلب منه ذلك، وهو ما كنتُ أفعله دائماً. ما زلتُ أعزف الموسيقى التي كتبتها لنا. وأفكِّر فيما قالته جيني غودناو: «أُتيحت لي فرص لم أغتنمها». وأفكِّر فيما قالته مور: «حياتنا صعبة على الأرض، أما الجنَّة فهي بعيدة جدّاً».

هذا الصباح، طلبتُ من كمال أن يُسمِّي لي الأشخاص والأماكن المفضلة لديه وقال: «أنتِ. وذراعيكِ».

* «أوه، هذا كلام غزل ليس إلا».

- «لا إنها الحقيقة».

* «حسناً، أنا أحبّ كلامكَ».

لا أعتقد أن الموت سيأتي لأي منا اليوم. لديَّ الكثير جدّاً لأقدِّمه. وكلانا نحمل توقاً وأملاً في الحياة لموسم آخر، لصيف آخر وخريف آخر. بينما نترنَّح على شفير هاويتنا الخاصَّة. لا يزال هناك متَّسع من الوقت. وقت للاندساس تحت الأغطية، عاريين تماماً دون ارتداء أي شيء على الإطلاق.

سوف تتذكَّرون

أننا في شبابنا

قمنا بمثل هذه الأشياء

نعم، أشياء كثيرة وجميلة

سافو، الجزء 24 أ

شكر وتقدير

أنا ممتنَّة لجوليا غني لتقديمها النصح حول الأمور الثقافية، وشاليني كونانور، المستشار القانوني في العيادة القانونية الجنوب آسيوية في أونتاريو، لتقديمه النصح حول الأمور القانونية والثقافية، وجميل أحمد (الصقر المتجول) لتقديمها النصح حول التقاليد الأفغانية، ومحسن حميد (الأصولي المتردِّد) لمناقشة الثقافة والأدب وعلم النفس، وزارمينا رافي للمناقشة الأدبية والثقافية، ودينشاو وديناز أفاري في فندق "بيتش لاكشري" لتقديمهما المشورة المستمرَّة حول تاريخ كراتشي، ومينين رودريغز ونورمان دسوزا لمعلوماتهما حول الموسيقى والثقافة التاريخية في كراتشي، والأخت ماري والأخت بيرتشمانز في مدرسة دير يسوع ومريم، كراتشي، لمعلوماتهما حول التعليم في كراتشي. وأنا ممتنَّة لأمينة سيدي وآصف فروخي في مهرجان كراتشي الأدبي لإتاحة الفرصة للمشاركة في مناقشة أدبية نابضة بالحياة. وأنا ممتنَّة لآلان وليزلي نيكل لتعريفي على مجتمعات جديدة، والمناقشات حول موسيقى الجاز والتأليف والعلاقات. كما كان لوي فليك سخيّاً في البحث التاريخي في أكاديمية بروكلين للموسيقى، وماريكا ماير في البحث في موضوع موسيقى الجاز. والشكر الموصول إلى الأسماء التالية لمساعدتهم القيِّمة

في الترجمة: نيه زيكسيونغ، الدكتور ليهوا غوي وحنين تماري. شكراً للدكتورة جانيس ويليامسون لمراجعة المناقشات الثقافية ولمناقشة عمل شيرين رزاق، ياسمين جيناوي وسونيرا ثوباني، وكذلك الشكر لآن سيمبسون على القراءة والمناقشة. شكر خاص لساندرا كامبل على سنوات مناقشتنا لجميع الأمور الأدبية والثقافية.

كان الفريق في هاميش هاميلتون لا مثيل له. شكراً لديفيد روس، شون أواكي، كارين أليستون، بريتاني لافيري، اشلي أودرين، ستيفن مايرز وديبورا سن دي لا كروز.

كانت نيكول وينستانلي، الناشرة ورئيسة بنغوين كندا، مركز الطاقة والإلهام في هذا الفريق الموهوب. وهي تحبُّ الأدب ولا تخاف من تحمُّل المخاطر، وهي محرِّرة لا مثيل لها وصديقة عزيزة. شكر خاص لكِ نيكول.

إلى الأصدقاء والعائلة، وشكر خاص لآدم وآن وينترتون، مارك وجوان إتشلين، أن إتشلين والمرحوم راندي إتشلين، وإلى بارب كلارك وكين فورياكر وبول إتشلين للدعم اللامحدود. وإلى والدتي، مادلين إتشلين، التي آمنت بكتاباتي حتى عندما كانت الصفحة لا تزال فارغة. هناك ثلاثة أشخاص خاصون جدّاً يعيشون مع التفاصيل اليومية للكتابة، ويدعمونها بفضول فكري، وفكاهة واستمتاع باللغة التي يحبونها. شكراً لك زوجي، روس أبشور، وابنتيَّ، أوليفيا أبشور وسارة أبشور، على كل ما تقدِّمونه لي.

كيم إكلين

روائية ومترجمة ومحررة كندية، من مواليد 1955.

تحمل شهادة الدكتوراه في الأدب الإنكليزي.

صدرت لها عدة روايات منها "المفقود"، و"في ظل الحياة المرئية" و"شتاء الفيل".

رشحت لعدد من الجوائز الكندية والعالمية منها جائزة Scotiabank Giller Prize الأهم في كندا.

داليه مصري

مترجمة سوريَّة من مواليد دمشق عام 1985، حصلتْ على درجة البكالوريوس في اللغة الإنكليزية وآدابها من جامعة دمشق عام 2006، وهي تعمل منذ ذلك الحين في مجال الترجمة.

لديها العديد من الترجمات في المجال الثقافي، والفني، وفي مجال الدراسات والأعمال، من خلال تعاونها مع عدد من المؤسَّسات والمنظَّمات المحلِّية والعربية والدولية، ولديها كذلك عدد من الترجمات المنشورة بالتعاون مع هيئات عربية، منها على سبيل المثال: هيئة متاحف قطر، ومؤسَّسة الشارقة للفنون، ودائرة الثقافة والإعلام في حكومة الشارقة التي منحتها شهادة تقدير عن مجمل مساهماتها في مجال الترجمة.

تحمل كاثرين، الفتاة اليتيمة، وصمة خلفيتها الاجتماعية لكونها من عرقين مختلفين، وذلك في عهد كان فيه المجتمع يقف ضدها ويعادي كلّ ما تمثله من مبادئ. في خضم صراعها اليومي، تُتيح لها الموسيقى حرية الهروب مؤقتاً، وإمكانية الحلم بحياة أفضل. ضمن مسيرة تلفّها تقلّبات الأمومة غير المتوقعة والزوج الغائب، تسعى كاثرين لحماية ملاذها هذا بشقّ الأنفس، والاعتماد على موهبتها لبناء مستقبل لأسرتها.

مهسا أيضاً فتاة يتيمة، تنشأ في جو من الضياع بعد وفاة والديها وإرسالها للعيش مع أقاربها في باكستان. وكجزء من كفاحها للوصول إلى حرّيتها، تهرب مهسا إلى مونتريال، مخلّفة وراءها حبها الأول. ولكنها تكتشف في نهاية المطاف استحالة بتر خيوط ماضيها، لتجد نفسها أخيراً وقد أُجبرت على القبول بزواج مدبّر. بالنسبة لمهسا، تُصبح الموسيقى عزاءها الجميل، حيث تسمح لها بالهروب من الظروف القمعية التي تحيط بها.

في ظل صراعهما بين الحياة المرئية والحياة الخفية، تلتقي الفتاتان عاشقتا الموسيقى..

* * *

"لم أعد أذكر عدد المرّات التي وقفتُ فيها مأخوذاً بتفاصيل أحداث هذه الرواية المؤثرة. فكلّ صفحة ترسم الأمل مقابل اليأس، وتطالبنا بالكفاح من أجل تحقيق أحلامنا التي لا بدّ نضيع من دونها. ستبقى هذه القصّة التي تعرض مواضيع الأمومة والصداقة، من خلال بطلتيها الاستثنائيتين، محفورة في ذاكرتي لترافقني لفترة طويلة."

خالد حسيني، مؤلف عداء الطائرة الورقية وألف شمس مشرقة.

تُرجم هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب.







